

الإمام محمد عبده

بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي

د. عبد السمود شحانة

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تاريخ المصريين

(١٩٣)

● تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرسكان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر عن

للجنة المصرية العامة للكتاب



الإمام محمد عبد عبيد

بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي

د. عبد الله محمود شحاتة



المجلس المصري العام للكتاب

تدريج الصحافة

٢٠٠٠

الإشراف الفني :

محمود العزاز

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب عن
« الامام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي » ،
الذي كتبه الدكتور عبد الله محمود شحاته ، وهو في الأصل رسالة
علمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير من جامعة
الأزهر . وكان قد سبق نشره في عام ١٩٨٤ عندما كان الدكتور
عبد الله شحاته يرأس قسم الشريعة بكلية دار العلوم بجامعة
القاهرة ، وقدم له الشيخ محمد أبو زهرة ورأينا أهمية إعادة نشره
في سلسلة تاريخ المصريين ، لاستكمال الدراسات التي نشرتها
هذه السلسلة عن الشيخ محمد عبده .

والكتاب يتحدث عن منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن
الكريم ، الذي كان يتخذه أداة لمحاربة الأفكار الرجعية والتخلف
في فهم الدين ، ويدعو فيه الى الرجوع بالدين الى منابعه الاولى .
وقد قسم الدكتور عبد الله شحاته كتابه الى ثلاثة أبواب :
الباب الاول ، وقد تحدث فيه عن حياة الامام الشيخ محمد عبده ،
فتناول نسبه ، ونشأته ، وأساتذته ، وتعرفه بالشيخ درويش خضر ،
وعودته الى طنطا ، ودراسته في الجامع الأزهر ، وتعرفه
بالأفغانى ، وتأثره به ، وأهمية الامام .

أما الباب الثانى ، فقد تناول فيه منهج الشيخ محمد عبده
في تفسير القرآن الكريم ، مقارنة بمناهج المفسرين السابقين . وقد

تحدث فيه عن أسس تسعة قام عليها منهج الامام محمد عبده ،
وهي : اعتبار السورة وحدة متناسقة ، وعمومية القرآن
وشموله ، واعتبار القرآن المصدر الأول للتشريع ، ومহারبة
التقليد ، واستخدام المنهج العلمي ، وتحكيم العقل في فهم القرآن ،
وترك الأطناب في الكلام عما ورد في القرآن بصورة مبهمة ، والتحفظ
في الأخذ بما سمي بالتفسير المأثور ، والتحذير من الاسرائ依ليات ،
والاهتمام بتنظيم الحياة الاجتماعية على أسس هدى القرآن .

اما الباب الثالث ، فقد تحدث فيه عن تلامذة الامام محمد عبده
في التفسير ، وتناول بصفة خاصة تلميذه السيد رشيد رضا ،
فتحدث عن خصائص تفسير المنار للسيد رشيد رضا ، وتأثر
صاحب المنار بابن كثير في تفسيره للقرآن من حيث الاهتمام
بالرواية والتوفيق بين النصوص المتخالفة في الظاهر ، والعناية
بأحداث التاريخ المتعلقة بالقرآن ، وتأثر الاثنين بابن تيمية .

كذلك تأثر صاحب المنار بالغزالي ، وهو ما يلاحظ في نقله
آراء الغزالي في كثير من الموضوعات وفي جميع أجزاء المنار .

والكتاب على هذا النحو يقدم جانبا مهما من جوانب الشيخ
محمد عبده ، ويرسم صورة قد لا يحيط بها المؤرخون .

وأملئ ان ينتفع بهذا الكتاب الباحث المتخصص والمثقف
العادي .

والله الموفق .

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم تصريف بالكتاب

ظهر الشيخ محمد عبده مع الفجر ، وقاد الصحوة والنهضة ،
وحصل على الشهادة العالمية سنة ١٨٧٧ م واتجه الى الاصلاح
والتوجيه والتربية والتعليم بكل قوته .

وكان يتخذ من تفسير القرآن منبرا يدعو فيه الى التعمق
في فهم القرآن ، وروحه العامة وهداياته ، وادراك سر البيان
والبلاغة ، والترابط اللغوي والفني بين آياته وأفكاره .

وقد حارب التقليد والجمود ، ودعا الى استخدام العقل
والفكر والرأى .

كما حارب الرجعية والتخلف في فهم الدين ، ودعا الى
العودة الى الروح العامة للاسلام ، والاعتماد على المراجع
الاصلية لفهم الاسلام ، والاعتماد على القرآن الكريم والسنة
الصحيحة ، وتاريخ التشريع واعمال الصحابة ، وهدى السلف
الصالح .

ودعا الى تعليم المرأة جميع فنون التعليم ، واحترام
انسانيتها وتربيتها وتهذيبها ، وتعليمها الحقوق والواجبات ، حتى

تنشأ عزيزة كريمة ، فتكرم بكرامتها ، أبناءها وأحفادها ، وبذلك ترقى الأمة ، وتتماسك الأسرة ، وهذا الكتاب : (الامام محمد عبده بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى) رسالة علمية ، بذل فيها جهد شاق متتابع ، وطبعت منذ فترة بعيدة ، ثم نفدت طبعاتها ، واحسست بالحاجة الى نشرها ، وآمل ان يجد فيها المؤمن ما يقوى ايمانه ، وأن يجد فيها الباحث ما يساعده فى بحثه ، وأن يجد فيها المسلم نفحة روحية ، تعرفه بامام واسع القدم ، له باع طويل فى فهم الدين ، وتفسير القرآن الكريم ، والدعوة الى التسامى والقوة والتطور والتقدم ، واليقظة الفقهية ، فالفقه قانون الحياة ، والحياة متطورة متغيرة ، ويجب أن يتطور الفقه بما يوافق شرع الله من جهة ، وما يناسب مصالح الناس من جهة أخرى .

لقد كان الامام محمد عبده ، قوة باهرة ايقظت الأمة ، وحركتها فى فهم الدين والأدب ، والحياة الاجتماعية والتقدم العلمى والفكرى .

وآمل أن نجد فى هذا الكتاب ما ينفع ويفيد ان شاء الله ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

١٩٩٩/٩/٢٠

• عبد الله شحاتة •

تقديم

بقلم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

الحمد لله الذي أنزل القرآن برهانا ونورا مبينا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسل بشيرا ونذيرا وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فهذا كتاب في بيان منهاج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم وهو باكورة تأليف السيد عبد الله محمود شحاته ، وقد رأى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية أن يتولى طبعه ونشره تشجيعا لكاتبه ، وليكون وراء هذه الباكورة أنضج الثمرات وأينعها وأطيبها ان شاء الله تعالى .

١ - وقد ابتدأ الكاتب بذكر حياة الأستاذ الامام ناشئا نشأته الأولى في بيت ريفي ، لرب البيت فيه السلطة المطلقة ، وقد بين هنا أثر أبيه فيه ، وكيف كان يهابه ويرهبه ويحبه معا ، ثم انتقل بصاحبنا الغلام الى الجامع الأحمدي . حيث يطلب العلم ، مشتيرا الى حال المتعلم والمعلم فيه ، وطريقة الدرس . وهنا تبدو من الغلام أول ثورة نفسية ، وذلك أنه لم يستطع أن يفهم مما يلقي عليه شيئا . ودفعته هذه الثورة الى الاعراض ، ثم الى ترك الدرس بعد سنة ونصف . واذا كان قد زهد في العلم بعد أن رأى ما رأى في السنة والنصف ، وبعد استغلاق مسائل العلم عليه ، فإن الله

سبحانه وتعالى قد هيا له ما يرغبه في علم الاسلام . ذلك انه قد قهره الأب المرهوب المحبوب على العود الى طلب العلم وهم بان يفر هارباً ، ولكنه وجد المأوى والملاذ عند رجل صوفي ، له بأبيه قرابة ختولة ، فقد عرج عليه في مهربه ، والرجل قد راض نفسه وسما بها ، وسبقت له تجارب أسفار ، وفيه قوة نفسية تؤثر وتجذب وتوجه ، فوجد فيه محمد عبده الثائر موجها مؤثرا ، فأخذ يقرأ عليه رسائل وكتبا في التصوف الخالي من الشوائب ، وأخذ هذا يبت فيه النزوع الى المثل الانسانية والدينية العليا ، والتلميذ يتلقى ما يلقي عليه تلقى الصادى للماء العذب الفرات ، وتجاوبت النفسان ، والتقى القلبان . سأل التلميذ الشيخ : ما طريقتك ؟ فقال : الاسلام . وسأل التلميذ شيخه مرة أخرى : ما وردك ؟ فقال : لا ورد لى سوى القرآن تقرأه مع الفهم والتدبر . فقال انى لى أن افهم القرآن ولم اتعلم شيئاً ؟ فأخذ الشيخ الموجه بيد تلميذه لينقله من حيرته ، فقال : أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة ، وببركتها يفيض الله عليك التفسير .

٢ - أخذ الشاب محمد عبده طريقه ، فكان أمامه الاسلام والقرآن وفهمه ، وعلم أن السبيل الى ذلك هو تعلم علوم الاسلام وعلوم القرآن ، فعاد الى الجامع الأحمدى رغبا لا رهبا ، ففتحت الرغبة مغاليق عقله ، ففهم ما تعصى عليه فهمه من قبل ، ونبغ بين الطلبة

والجامع الأحمدى كان نهرا صغيرا من النهر الأعظم وهو الأزهر ، فتأقت نفسه لأن ينتقل اليه ، فشد رحاله الى القاهرة ، وفيها يلتقى بحكيم الشرق جمال الدين الأفغانى ، فوجد فيه الهدف الذى يقصده ، وجد فيه عقلا مشرقا نافذا ، وإذا كان قد وجد فى الشيخ الضوفى توجيهها سليما ، فقد وجد فى الشيخ الحكيم فكرا

مستقيماً ، ونفساً متوثبة وإرادة قوية خلّاقة ، قد تعلو على كل من في الوجود ، لتسجد لخالق الوجود ، وتقوده بحق المعبود .

كان جمال الدين يعلم الحكمة ، ويوعز بالتفكير الحر ، واستقلال الفكر مع غيرة على الإسلام وأهله ، ورغبة في جمع أشتات المسلمين ، وعمل على ذلك بإزالة الغمة عن العقول ، وإثارة الهمة للعمل ، وقد التقى به مع الشاب محمد صفوة من نبغاء الأزهر ، فبث فيهم نزعته بالتدريس والتوجيه وحسن الصحبة ، وما أخرج من مصر إلا بعد أن بدت بوادر الثورة .

٣ - تهيأ للشباب الأزهرى أن ينال شهادة العالمية ، فاخذ يكتب في الصحف ، وقد بدأت العقول تفتتح ، كما تفتتح أكمال الورد ، وتولى رئاسة تحرير الوقائع ، فاتخذ منها منبراً للتوجيه ، والدعوة إلى الهدى وإلى صراط مستقيم ، وانضم إليه من تلاميذه وصحبه من عاونوه في رسالته ، وقد قبسوا من علم جمال الدين ما قبس ، وكان لبعضهم في الوطنية والعلم مقام مشهود .

كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت ، فخب فيها الإمام محمد عبده ووضع ، ولما احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها كان الشيخ ممن أصابتهم عقوبتها ، فسجن ونفى ، ولكنه همة لا تفل ، وعزيمة لا تكل ، فالتقى بشيخه وصديقه جمال ، وأخذوا يعملان على جمع شمل المسلمين . وبعد جهود مضيئة من الرجلين ، رأى التلميذ أن أسلم طريق لا يقاظ الأفهام تعليم المسلمين ، ورأى الشيخ الأستاذ مع ذلك ضرورة إيقاظ الهمم ، فافترقا ، كل يعمل على منهاجه .

أخذ يلقي محمد عبده دروسه في الشام ثم لما عاد من منفاه أخذ يلقي دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهرين ، وقد عين في

منصب من أعلى مناصب القضاء عسى أن يصرف عن رسالته التي حملها ، وصار وحده الحامل لها ، وخصوصا بعد وفاة صديقه جمال الدين ، ولكنه لم يصرف عنها ، لأنها منبعثة من قلبه وإيمانه ، لا من تكليف حاكم ، أو من تعيين في منصب ، ورسالته هي التعليم ، فأنشأ الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم ، وعقد الندوات العلمية وألقى الدروس .

٤ - وكان الدرس الذي يمكنه من أداء رسالته العلمية هو تفسير القرآن ، فهو معجزة الاسلام ، وفيه شريعته ، وهو حبل الله الذي يعتصم به المسلمون ، وهو برهان الله ونوره المبين « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »
المائدة ١٦ .

لقد وجهه شيخه الصوفي الى القرآن وتدبره ، واسلم منهاج لتفسيره ، وهو فهم جملته ، ثم التوجه من بعد ذلك بصفاء نفس الى معانيه السامية ، فانه لابد من أن تسمو نفس طالب علم القرآن ، حتى يعلو الى ادراك سموه ، وانك لترى الامام محمد عبده يتجه في تفسيره اتجاهها لم يسلكه أحد من المفسرين ، فان المفسرين من قبله كانوا اما أن يعتمدوا على الأثر ، واما أن يعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من معان وما يشتمل عليه القرآن في الفاظه وجمله وأساليبه من بلاغة ، وقليل منهم من كان يفرغ في تدبر هذه المعاني . واذا كانت معاني الألفاظ هي مفاتيح المعاني كما قال الامام الغزالي ، فوراءها آفاق للتدبر والتأمل ، وقد حاول الامام بالتزامه منهاج التدبر في المعاني أن يوجه أذهان تلاميذه الى اسرار المعاني القرآنية .

وأنك تقر ما نقل من تفسيره ، وأحسب أن النقل كان مقربا لما قاله الامام وليس محققا لكل ما قال ، ولا مصورا لكل ما أراد - فتجد المحاولة الجدية لمعرفة ما في آيات القرآن من مرام وغايات ، وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى : « كُنْ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » فتجد فيها المحاولة بينة رائعة عظيمة .

هـ - والامام في تفسيره كان حريصا على تنقية الاسلام وتفسير القرآن من الشوائب ، فان طائفة كبيرة من الاسرائيليات دخلت القرآن فكانت حجابا حاجزا عند بعض المفسرين دون التغلغل في ادراك معانيه ، فكان من عمل الامام في درسه أن ازال هذه الفواشي فيما نشر ، لتبدو صفحة القرآن متألقة ونورها مبينا .

وان تلك الفواشي كانت كثيفة الى درجة أن وقع بعض كبار المفسرين في أغلاط بسببها ، واذا كان العابثون بالديانات السماوية قد حرفوا الكلم عن مواضعه في بعضها ، فانهم قد عجزوا عن ذلك في القرآن ، لأن الله حفظه ، ولأنه بأسلوبه فوق تحريف المحرفين ، وأي كلام يلحق به يبدو بادي الرأي مميذا ولم يحاول احد ذلك لعجزه ابتداء ، وقد حفظ متواترا في الصدور لا في السطور ، فلا سبيل لمحرف أن يصل اليه ، ولكن أولئك جاءوه من تلك الاسرائيليات ليشوهوا جماله . ولكن كان في كل عصر من أئمة الحق من يرد زيفهم ، وكان آخرهم الأستاذ الامام .

ولقد كان الامام يقرأ ما يقرأ حتى أنه كان يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيراً ، ما بين مطبوع ومخطوط ، ولكنه يستعين بمجموعها ، ليصل الى لباب المعنى ، لا لينقل ما فيها ، او يتيه فيما يقرأ .

وكان يتخذ من منبر القرآن طريقا لبيان البدع والاهام ، وما فرق امر المسلمين بعد الاجتماع ، ويوضح الفرق الفكرية

والسبيل الى تلافيها على مائدة القرآن ، والأخذ من ورده الصفى ،
وعلمه النقى .

ولقد تكونت مدرسة من العلماء والمثقفين تطلب علم الامام
وترويه وتنشره ، ومن أقوى هذه المدرسة تأثرا بالامام السيد
رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه - فهو راويه وناقل علمه الينا
نحن الذين لم نستمع الى الامام وان استمعنا الى صحابته
المخلصين له .

ولكن تفسير المنار قد اشتمل على امرين لم يكونا في تفسير
الامام :

اولهما - العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبي
صلى الله عليه وسلم ، وذلك بلا ريب خير كله .

وثانيهما - النقل الكثير من المفسرين ، وان السبب في ذلك
ان الامام كان يلقي درسا ، فكان يلقي ما تمثل في عقله وقلبه
ما قرا وتأمل وتدبر في القرآن ، ولان كل همة نفسه كانت
متجهة الى لباب القرآن .

٦ - وقد نبه السيد رشيد الى بعض أخطاء للامام في ادب ،
ووفاء ، ولكن ذلك لا يعليه الى مرتبته ، ولا ينزل الامام الى طبقته ،
فالناس منازل في العلم ، وحسب امام الجيل انه فتح عين الطريق ،
فاستقى منها كل وارد وكان أشد الناس منها تلميذه وصفيه
السيد رشيد ، ولكل مقام معلوم .

وقد خاض السيد الكاتب خوضا شديدا نواقفه في بعضه
ونخالفه في بعضه ، ولكننا في الموافقة والمخالفة نقدر اجتهاده ، وهو
فيه مجزى من الله تعالى .

والله ولي التوفيق .

محمد أبو زهرة

مقدمة

تجتاح الشرق العربي تيارات مختلفة تحاول أن تعصف بالمواريث والقيم التي ميزت هذا الشرق فكان مهبط الرسالات ومبعث النبوات .

ويحاول الاستعمار أن يستعين بكل السبل للقضاء على مجد العروبة والاسلام .

انه يرى في الاسلام عملاقا ضخما وماردا جبارا ، ايقظ العرب وانتشر ففتح البلاد ودانت له العباد وانضغ الاكاسرة والقيصرة .

كما قال الشاعر محمود غنيم :

يا من وای عمرا تكسوه برده والزيت ادم له والكوخ ماواه
يهتز كسرى على كرسیه فرقا من بطشه وملوك الروم تخشاه
ولقد حمل الحق الصليبي حملاته المتكررة على بلاد العروبة
والاسلام طوال قرنين من الزمان .

((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره
ولو كره الكافرون)) الصف ٨ .

وكان من اتمام الله توره اختياره صلاح الدين الذي أنقذ بيت المقدس من يد الصليبيين ، واراهم كيف تكون الهزيمة في حطين .
وفي هذه الأيام توجهت حملات تبشيرية من الشرق والغرب .

وكلها تلتقى على الكيد والدس للاسلام والمسلمين ((يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون)) .
البقرة ٩٠ . ولقد كان السيد جمال الدين الأفغانى من أول من نبه لهذه الدسائس والأمرات في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فطاف بالبلاد الاسلامية يوقظها من سباتها ، ويحيى فيها روح الكفاح والدفاع . وينادى حكامها بالديمقراطية والحياة النيابية ويناضل الاستعمار الأوربى . ويشن حملاته على الاستعمار الانجليزى ، حتى أزعج السلطات البريطانية في الهند ومصر وبلاد الأفغان ، وقضى السيد نجبه في الآستانة وقد ترك اثرا حسنا وشعورا مهيا وأرضا صالحة وغرسا يحتاج الى التعهد .

فكان الشيخ محمد عبده خير من نهض بهذه الرسالة .

وايقن الأستاذ الامام محمد عبده : ان التربية الحقيقية واصلاح شأن الأمة وتقويم اخلاقها وتعليم بنيتها ومحاربة الفساد فيها ، كل ذلك كفيل بأن يهيء البلاد لحالة اسلم واحسن متمثلا قوله تعالى : ((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي احسن)) النحل ١٢٥ . وانطلق الأستاذ الامام شعلة متقدة من النشاط المثمر والعمل النافع . فتراه يسهم في نجدة المنكوبين واغاثة الملهوفين وينشئ الجمعيات الخيرية ، ويدعو الأغنياء الى البذل والعطاء .

ويحيى اللغة العربية وينهض بالصحافة ، ويتخذ من « الوقائع

الرسمية « منبرا لتوجيه الأمة والرقى بأخلاقها وتهذيب عاداتها وطباعها .

ويلهب نار الثورة العرابية ، ويجابه الحاكم ويحارب ظلمه وبطشه ، ويتحمل النفي في اباء ، محاولا أن يزيح كابوس الاستعمار عن الشرق وأن يبعث همم الشرقيين ومجد المسلمين .

ويعود الامام من منفاه ويرضى عنه الخديو فلا يشغله ذلك عن هدفه ولا يمنعه من تربية الأمة وهو على منصة القضاء يدعوها الى التراحم والتكافل والبر والتعاون وينادى بتدعيم الأسرة .
وصلة الرحم وتربية النشء والاهتمام بأوامر الدين .

ويتولى الافتاء فتري رجلا جديدا في فتاويه ، يعرف آراء المعتزلة ، ويعجب بالامام احمد ابن تيمية ، ويرى تقدم الغرب وتفوق أممه .

فيتهمه بعضهم بأنه يميل الى المعتزلة ويرجح آراءهم ، ويقول آخرون انه سنى سلفى وهابى . ويتهمه آخرون بالتفرنج ومبالاة الانجليز والسعى في بلادهم ومصادقة حكامهم والاتصال بفلاسفتهم والخذل عن آرائهم . ويعترض الجميع قائلين :

« ما هذا الشيخ الذى يتكلم باللغة الفرنسية ، ويسبح في بلاد الافرنج ، ويترجم مؤلفاتهم وينقل عن فلاسفتهم ويباحث علماءهم ، ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين ويشترك في الجمعيات الخيرية ، ويجمع المال للفقراء والمنكوبين ؟ ان كان من أهل الدين ، فليقض حياته بين الجامع والبيت . وان كان من رجال الدنيا ، فانا نراه يعمل فيها وحده أكثر من جميع الناس » .

والحق ان الشيخ محمد عبده لم يكن معتزليا ولا سلفيا
ولا افرنجيا .

لقد جمع محاسن هذه الأشياء وتخلص من مساوئها . وكون
لنفسه رأيا خاصا ، وشخصية مستقلة تعتمد على القديم من تراثنا
وتخرجه للناس في ثوب مناسب للحضارة ، ملائم للحياة ، موافق
لصالح الناس .

ووجد الامام في القرآن مصدر الهداية « ان هذا القرآن
يهدى للتي هي اقوم » . رآه المدرسة التي تخرج فيها المسلمون
الأولون أمثال أبي بكر وعمر وخالد وأبي عبيدة وزيد بن ثابت
وغيرهم ، فشرع يفسر القرآن الكريم . ويتخذ منه وسيلة للنهوض
بالمجتمع واصلاح شأن الأمة الاسلامية . فكان تفسيره للقرآن
فتحاً جديداً في عالم التفسير .

لقد كان طالب التفسير يلتزمه في التفاسير السابقة فيجد
فيها كل شيء الا التفسير . نجد بعضها يهتم بالقواعد والاعراب ،
او البلاغة والبيان ، وبعضها يهتم بأراء الفرق الاسلامية والتعصب
لها او الرد عليها ، وبعضها يهتم بالقراءات ، وبعضها يورد آراء
الفقهاء . حتى ظهر تفسير الأستاذ الامام فعاب ما في هذه التفاسير
من الشغل عن التفسير .

وقد فسر الامام سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وجزءا
من سورة النساء حتى الآية (١٣٥) كما فسر جزء (عم) . وكان
تلميذه الوفي المخلص السيد رشيد رضا صاحب الفضل في حفظ
تراث الامام ، واكمال تفسير المنار حتى سورة يوسف ، وتوفي بعد
أن فسر قوله تعالى : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل
الاحاديث فاطر السموات والأرض انت ولي في الدنيا والآخرة
توفني مسلماً والحقني بالصالحين » يوسف ١٠١ .

وقرات تفسير الامام ، فرأيت رجلا يريد أن يبني أمة ويبعث مجدا ويثير حضارة على أساس من كتاب الله وهدى قرآنه الكريم . فاستعنت بالله وطلبت منه أن يوفقني في تتبع ما كتبه الامام ومقارنته بما كتبه المفسرون السابقون ، وسميت الكتاب :

الامام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي .

لقد رسم الأستاذ الامام من القرآن منهجا تربويا للأمة الاسلامية . يبعث مقوماتها ويثير امجادها وينادي بأداب القرآن من الشجاعة والكرامة والحفاظ . ويطالب بالتعاون والتواصي بالحق والجرأة بالرأى ومحاربة الظلم والتعاون على الحق كما تأمر آيات القرآن .

وحارب جمود الفقهاء وتقليدهم ، وتقديم المذاهب على القرآن فأعاد للقرآن والسنة مكانهما الأول من التشريع . ودعا المسلمين الى استخدام عقولهم وتفكيرهم حتى يحققوا أمر القرآن من جهة . وينهضوا بحياتهم ويستفيدوا من التقدم العلمي الذي أحرزه الغرب من جهة أخرى .

وحارب الامام الخرافات التي شاعت بين العوام في عصره عن كرامات الأولياء وشفاعة الأبدال والأنبياء وما يتعلق بأذهانهم من الجن والسحر وغيرها على نحو ما صنع الامام ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب في محاربة البدع والرجوع بالاسلام الى أصوله الأولى .

والتزم الامام في تفسيره الطابع العلمي . فلم يلتمس تفسير القرآن في القصص والاسرائيليات . بل قال ان خير ما فسر القرآن القرآن .

ورفض كل قصة أو اطناب في وصف ليس له سند صحيح من القرآن أو السنة .

ودافع الامام عن العقائد والمثل الاسلامية وبين قيمتها واهميتها التاريخية والعلمية . ودعا الى اعتبار القرآن جميعه وحدة متماسكة لا يصح الايمان ببعضه دون بعض ، وبين أن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه .

وأن في كل سورة من سور القرآن روحا يسرى في آياتها ويسيطر على مبادئها واحكامها وتوجيهاتها واسلوبها .

واخيرا لقد كان هذا التراث الذي تركه الامام معينا لا ينضب . استقى منه اساتذة هذا الجيل ، وتأثر بالأستاذ الامام كل مفكر حر وكل عالم مجتهد في النصف الأول من هذا القرن .

فما أجدرنا ونحن نبني مصر الجديدة في ثورتها ونهضتها أن نقدم من « حياة الأستاذ الامام ومنهجه في تفسير القرآن الكريم » زادا لهذه النهضة ، يوضح أن عندنا رصيда من القرآن والاسلام والتفسير يفنيان عن غيرها من المبادئ الهدامة والمذاهب الأرضية ، وشتان بين وحى السماء وعمل الأرض .

« افحكم الجاهلية يغفون . ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

لقد كان هذا البحث تلبية لدواعي الوطنية والقومية العربية والنهضة الاسلامية .

واستجابة لقرارات مؤتمر الثقافة والفنون التي اذيعت ونشرت بجريدة الجمهورية في ١٥ من شوال سنة ١٣٧٨ هـ - ٢٣ من ابريل ١٩٥٩ م .

وقد تضمنت هذه القرارات : أن القومية العربية حقيقة واقعة تربط الأمة العربية بروابط الدم واللغة والتراث الروحي والثقافي المشترك . وأن إقامة المجتمع العربي على أساس من الاشتراكية الديمقراطية التعاونية امتداد لتاريخنا وتطور طبيعي لمجتمعنا . وأن الاستعمار والصهيونية والتبعية والشيوعية على اختلاف صورها وشعاراتها دخيلة على هذا المجتمع ومناهضة لمبادئه وأهدافه ومقدساته . وتعبئة جميع قوانا الروحية والمادية لدفع أية محاولة ترمي إلى النيل من القومية العربية أو المساس ببناء مجتمعنا الاشتراكي الديمقراطي التعاوني .

وعلى هدى هذه القرارات قررت اللجان الفرعية المتخصصة ما يلي :

لجنة التراث الفني : أن يستخلص من الكتب القديمة والمراجع الدينية النصوص التي تحقق المعاني الروحية . والعبارات وأثرها في تربية الضمير الاجتماعي والكرامة الانسانية والعدالة الاجتماعية والتعاون الانساني في الأسرة والمجتمع ، والحرية والتكافل الاجتماعي وتكوين رأي عام فاضل يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . وأن تعد تراجم لأعلام الحضارة وأحاديث عن البطولة وعمل مجموعات من الصور عن آثارنا وأصهار كتيبات عنها ونشر القيم المأخوذة من تراثنا القديم .

من أجل هذه المعاني شرعت في وضع هذه الرسالة .

والله أسأل أن ينفع بها ،

وأن يجعلها خالصة لوجهه .

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

عبدالله محمود سحاته

الباب الأول

حياة الشيخ محمد عبده

نسبه - نشأته - أساتذته - تعرفه
بالشيخ درويش خضر - عودته الى طنطا -
دراسته في الجامع الأزهر - تعرفه بالسيد
جمال الدين الأفغاني - تأثره بالسيد
جمال الدين - عظمة الامام •

حياة الشيخ محمد عبده

نسبه :

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله .

ولد في قرية محلة نصر مركز شبراخيت ، مديرية البحيرة ،
تبعد عن دمنهور بنحو خمسة عشر كيلو مترا ، وهي واقعة على
ترعة تسمى الترعة الأنصارية .

ولم يكن أبوه من أهل الغنى والجاء أو الحسب والنسب
ولكنه كان من أهل المروءة والنجدة والانسانية . ونحن نشاهد
أن كثيرا من الناس تفرهم انسابهم وتقعدهم أحسابهم عن عمل الخير
والشباب إلى المكرمات .

ولكن الاسلام لا يعتد بالحسب والنسب قدر ما يعتد بالعمل
والسيرة الحسنة . وانا لنرى عبدا أو موالى ارتفع قدرهم في فجر
الاسلام ، فبلال وصهيب وسلمان كان لهم شرف الصحبة بالنبي
عليه الصلاة والسلام ومدحهم القرآن . بينما ذم أبا لهب الحسيب
النسيب .

وقال الشاعر :

لعمرك ما الانسان الا ابن دينه
فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

لقد رفع الاسلام سلمان فارس
كما وضع الشرك الحبيب ابا لهب

والنبي عليه الصلاة والسلام كان ينادى قرابته فيحذرهم
من الاعتماد على انسابهم ويقول لهم : « يا آل محمد لا يأتيني الناس
بالاعمال وتأتوني بالانساب » .

والله تعالى يقول : « فاذا نلخ في الصور فلا انساب
بينهم » المأمنون ١٠١ .

العبرة اذن في الشرف والسيادة هي كمال الفطرة وسلامة
النفس وهمة المرء وسيرته الحسنة .

فاذا انضم الى ذلك شرف النسب كان زينا وكمالا . ولم
يضر محمد عبده أنه من أسرة فقيرة من أعماق الريف ، فقد كانت
أخلاقه أخلاق الملوك ، حتى قال له جمال الدين ذات مرة :
« أخبرني ، ابن من من الملوك أنت ؟ » .

ولم يكن جمال الدين الأفغاني يعتز بنفسه وحسبه قدر
ما يعتز بفكرته ودعوته للإصلاح ونهوض المسلمين .

وأسرة جمال الدين على عراقتها في الحسب والنسب لم تخرج
غير جمال الدين ، وأسرة محمد عبده على بساطتها لم تخرج غير
محمد عبده . فالشرف ليس بالحسب أو الضعة ، وليس بالفنى
أو الفقر ، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكم اب لك علا بابن ذرا شرف كما علت برسول الله عدنان

ورب شرف يلحق الأسرة من أبنائها فيعوضها عن شرف
آبائها .

وكان عبده خير الله ، والد الشيخ محمد عبده ، من هذا
الصنف الذى تميز بأخلاقه وسيرته وإنسانيته . قال الامام - رحمه
الله - فيما كتبه من تاريخ حياته :

« كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية وكل من فيها
دونه ، وهو بذلك أعظم رجل فى الدنيا ، فإن الدنيا لم تكن أوسع
عندى من محلة نصر ، وكان ينزل عنده بعض الحكام ولا ينزلون
فى بيت العمدة - مع أنه أغنى وأكثر دورا وأرضين . ونشأ فى
الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة وكثرة المال
وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزمته وشدة
فى المعاملة وقسوته على من يعاديه . واخذت عنه ما عدا القسوة .

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة
والدى . وكانت ترحم المساكين وتعطف على الفقراء ، وتعد ذلك
مجدا وطاعة لله وحمدا » (١) .

نشأته :

نشأ الأستاذ الامام فى جو ريفى ، بعيدا عن المدن . والنشأة
فى القرى البعيدة أعون على خلوص النظر من تصنع البلاد
المتحضرة .

ولد الامام فى بيت يشتغل أهله بالزراعة ، وجميع اخوته
يساعدون أباهم فيها ، ولكن والده اختاره للقرآن وأخلصه للتعليم ،
وقد يكون ذلك الاختيار بمحض الصدفة .

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج١ ص ١٤ .

— فانا نشاهد في الريف كثيرا من الأسر المتوسطة والفقيرة تختار بعض بنيتها للعلم اذا صادفت سنو نشأته بعض اليسر في الأسرة .

واذا كان اختيار الامام للعلم صدفة . فقد باركها الاستعداد الطيب عند الفتى . فقد حفظ القرآن الكريم في فترة وجيزة جعلت والده يأمل فيه الخير .

ويرى المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق ان والد الامام اختاره للتعلم دون سائر اخوته لمنزلته عند ابويه .

— ويدلل على هذه العناية بأن ابيه علمه القرآن على معلم خاص ، وان امه لم تصبر طويلا على سفره الى الجامع الاحمدى فذهبت لتراء بعد خمسة عشر يوما . وان اياه وزوجه وهو صغير .

وربما كان ذلك كله راجعا الى طبيعة الوالدين من العناية بجميع الأبناء كل في مهنته وحسب ظروفه من غير تفضيل لواحد منهم على الآخر ، وهذا ما يسمى في التربية بتكافؤ الفرص لا تماثل الفرص ، وتكافؤ الفرص هو أن يهيأ امام المواطن فرصة تناسب مواهبه وميوله . ولا يلزم أن تتماثل مع مواطن آخر يختلف عنه في ذكائه واستعداده وميوله .

وقد صادفت نشأة الامام استقرارا في الأسرة وبعض اليسر . لأن والد الامام اضطر للهجرة من محلة نصر مع أولاده فرارا من قسوة الحكام وظلمهم . وتزوج في هذه الفترة من السيدة « جنينة » والدة الامام . ثم عاد الى وطنه محلة نصر واسترد بعض املاكه ، وولد الامام في فترة الاستقرار هذه عام ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩ م . والاستقرار المالي في الأسرة كفيلا بأن يهيء للابن الجديد فرص التعليم التي حرم منها اخوته الآخرون .

وعلى كل فما كان في علم الأب أن ابنه سيكون اماما للإسلام والمسلمين ، فلعلها العناية الإلهية هي التي دفعت الأب إلى اخلاص ابنه للتعليم بتوفيق الله وإرادته كما قال عليه الصلاة والسلام .
« ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها » (١) .

على أننا نرى الامام قد حارب من التعليم وفر من الجامعات الأحمدي لأن أسلوب التعليم لم يوافقته - ولكن أباه أجبره على العودة إليه ، ولو كان أبوه يدله لأبقاه بجواره .

وقد كان والد علي باشا مبارك يصر على بقاء ابنه علي بجواره حبا له وإثارا لقربه على تعليمه . ولكن علي مبارك فر من والده والتحق بالمدرسة (٢) . والامام يخبرنا أن والده كان قاسيا في معاملته يأكل وحده ولا يأكل أحد معه . قال الامام :

« وقر في نفسي احترام والدي ونظرت إليه أجل الناس في عيني وسكن من هيئته في قلبي ما لا أجده لأحد من الناس اليوم عندي . أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأتذكر منها قلة الكلام أمامي ، ووقارا كان في الحركات والأعمال والهيئة ، والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس ومشاهدتي أهل بلدي يحترهونه ويبالغون في توقيرهم أباه ، وانفراده بالطعام دون والدتي وأخوتي ، فكان ذلك آية العظمة عندها ، فان ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الأوقات الا الفقراء وأصل الطبقة السفلى من أهل القرية » (٣) .

-
- (١) رواه ابو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة . وانظر تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ، ص ٩٧٤ للتعليق على هذا الحديث .
(٢) كتاب بناء النهضة العربية لجورجي زيدان ص ١٢٠ .
(٣) تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٢ .

وهذه صفات تتوافر فعلا في كبار النفوس من أهل القرى ،
ولكن لا تسمح لأصحابها بتفضيل بعض الأبناء على الآخرين .
وما قدمته رأى أراه بحكم نشأتى فى الريف لا حقيقة أثبتها .
وقد يجتمع الرايان لأن اختيار الانسان للتعليم تتداخل فيه عوامل
عدة ، منها الاستقرار فى المسكن واليسر فى المعيشة وظهور الذكاء
على التلميذ . وإن كان بعض عظماء الرجال فى العالم لم يبد منهم
أى ذكاء فى صغرهم . والذكاء نفسه لا يظهر الا بالاحتكاك بمواقف
الحياة . وقد احتك محمد عبده بهذه المواقف فى الجامع الأحمدي
واخفق فيها واجتازها كثير غيره .

وسواء أكان اختيار الامام للتعليم بمحض الصدفة ، أم لتميظه
على سائر اخوته ، فانه حفظ القرآن الكريم ، وذهب الى الجامع
الأحمدي ليتعلم تجويد القرآن . وفى الريف ينتشر قولهم :
« لا علم الا ازهرى ، ولا قرآن الا أحمدي » .

ونجح الامام فى تعلم التجويد واتم فنونه فى سنتين على الوجه
الأكمل . وفى سنة (١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م) جلس فى دروس العلم
فى المسجد لأحمدي ، لكن منهج التعليم كان وعرا شاقا ، يتبع
الطريقة التقليدية التى تعتمد على الحفظ وحشو الذهن بالمعلومات .
وعلى أن ، رفة مقصودة لذاتها .

— قال الامام فى الترجمة التى كتبها لنفسه :

« وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لوداعة طريقة التعليم
فأدركنى اليأس من النجاح وهربت من الدرس ، واختفيت عند
أخوالى مدة ثلاثة اشهر ، ثم عثر على أخى ، وأخذنى الى المسجد
الأحمدي وأراد اكراهي على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد
أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود

الى بلدى ، وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثرة من اقاربي ، وانتهى الجدل بتغلبى عليه . واخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية !لا اعود الى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م) على هذه النية « (١) .

وقد ترك الاخفاق فى طلب العلم أثرة السيء فى نفس الشيخ محمد عبده وعبر عن هذا الأثر بقوله :

« فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر . وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم . غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم ، فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبلى بهم الناس وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة . ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شىء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه « (٢) .

أساتذته :

هيا الله للامام أساتذة من نوع ممتاز استطاعوا أن يكبحوا جماح نفسه ويحببوا اليه العلم والمعرفة بعد أن يئس من الدراسة وتزوج واعتزم على فلاحه الأرض .

وقد تتلمذ الامام على عدد من الأساتذة تميز كل منهم باتجاه

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج١ ص ٢٠ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج١ ص ٢١ .

خاص . وتفاعلت في الامام عناصر التوجيه الروحي والأدبي والفلسفي .

فكان أستاذه الروحي الشيخ درويش خضر . وكان أستاذه في الأدب الشيخ محمد البسيوني . وكان أستاذه في الفلسفة الشيخ حسن الطويل وكان أستاذه في الدعوة حكيم الاسلام جمال الدين الأفغاني .

تعرفه بالشيخ درويش خضر :

التقى الامام بهذا الشيخ عرضا وبدون قصد فقد أجبره والده على الرجوع الى طنطا لطلب العلم . ولما كان الامام يائسا من متابعة الدراسة في الأزهر فقد هرب في قرية « كنيسة اورين » وهي قرية من قرى شبراخيت غالب سكانها من خثولة أبيه ، وهناك اتصل بمعلمه الأول ومفتاح سعادته الشيخ درويش خضر أحد أحوال أبيه وهو رجل سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ طاهر ، وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ بعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه . ثم رجع من أسفاره الى قريته ، واشتغل بالزراعة .

وكان الشيخ درويش من النوع الممتاز من المربين ، يهتم بالتربية قبل ان يهتم بالتعليم وهي طريقة كبار الصوفية الذين كانوا يفرسون في نفوس اتباعهم الأذواق والمواجد لا عن طريق التلقين والتحفيظ ولكن عن طريق المشاهدة والقنوة الحسنة .

كان الشيخ من الصوفية قنوة طيبة لمريديه وأتباعه - في حاله وهيئته وصلاته ومناجاته لله ، وحسن فهمه للدين . وكان

يجمع حوله مريديه ويربيهم ويؤثر فيهم بنفسه القوية الخيرة بعقل
النفوس وادواتها .

وقد استطاع الشيخ درويش خضر أن يكبح جماح الفتى
الهارب . وان يحول بغضه للتعليم الى حب شديد ، وان يصرف
نفسه عن اللهو والعبث الى حب للمعرفة والدرس . وقد حنى
الامام لنا هذه الطريقة التربوية فقال : « جاءني هذا الشيخ ويده
كتاب يحنوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض
مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق ، وسألني أن أقرأ له فيها
شيئا لضعف بصره فدفعته طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل
بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى
بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى في لطف مظاهر الحلم ولم يزل
بي حتى اخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي
معاني ما قرأت بعبرة واضحة تغالب اعراض فتغلبه وتسبق الى
نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعوني الى ركوب الخيل واللعب
بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب
وانصرفت اليهم . وبعد العصر جاءني الشيخ بكتابه والى علي في
قراءة شيء منه فقرأت وفسر ، ثم تركته الى اللعب ، وفعل في اليوم
الثاني كما فعل في الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه
وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ،
فقال لي انه في حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل
فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معي فتركه ، ومضيت أقرؤه وكلما
مررت بعبرة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء
وقت الظهر ، وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى
ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان
معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في
المطالعة والميل الى الفهم . »

« كانت هذه الرسائل تحتوى على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا » .

« لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو وعاد أحب شيء الى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ويزهدوننى في عشرة الشيخ رحمه الله . فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب » .

« في اليوم السابع سألت الشيخ : ما هي طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الاسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس مسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب ، وبغير سبب » .

« هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وإن كنا في غمرة ساهين . سألته : ما وردكم الذى يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سوى القرآن نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر . فقلت له : انى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟ قال : اقرأ معك وبكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، وإذا خلوت فاذكر الله - على طريقة بينها - وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتى أطيّر بنفسي في عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا . وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا

وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ، ولم أجد اماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كان لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي « (١) » .

عودته الى طنطا :

رجع الأستاذ الامام الى المسجد الاحمدى واقبل على المدرسين في شغف وتلief على المعرفة . ففهم الدروس ثم تميز على زملائه فالتفوا حوله ليطالع لهم .

واستقرت في ذهن الامام هذه النوازع الصوفية التي غرسها فيه الشيخ درويش خضر . وساعد على استقرارها مظاهر الدراويش والأولياء في مسجد سيدي احمد البدوي ، ولكنه كان تصوفا سلبيا يميل الى المعرفة والانكماش وهضم النفس والاعتماد على الشطحات والاشارات وقد اعتمد الامام على اشارة أحد الدراويش له بالسفر الى القاهرة .

قال الامام :

« وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة (سنة ١٢٨٢ هـ)

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج١ ص ٢٣ .

كنت اطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت
أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب
فلما رفعت رأسي إليه قال ما معناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ،
فقلت له : واين الخلوى التى معك ؟ . فقال : سبحان الله
من جد وجند » .

ثم انصرف ، فعددت ذلك القول الهاما ساقه الله لى ليحملنى
على طلب العلم فى مصر دون طنطا .

دراسته فى الجامع الأزهر :

ذهب الأستاذ الامام الى الجامع الأزهر فى شوال سنة
١٢٨٢ هـ - فبراير سنة ١٨٦٦ م .

ولم تكن طريقة التعليم فيه تختلف كثيرا عن طريقة التعليم
فى الجامع الأحمدي .

تلك الطريقة الجامدة العقيمة التى كانت تفرض على طلاب
العلم مختصرات لا تفهم الا بشروح وحواشى وتقارير ، وانما تزحم
ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدقيقات
اللفظية التى تزهق الفكر وتعوقه عن النمو . ولا تنمى فى التلميذ
الملاحظة والاستنتاج . وقد وصف هذه الطريقة بعض علماء الفرنجة
فقال : « ولئن كانت أنماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف
عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافا أساسيا ، فهى لا تختلف
فى شىء عن الأنماط التى كانت عندنا قديما » .

- أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشى
عندنا منذ قرون ، لا يزال فى عنفوان سطوته فى الجامعات الإسلامية .

« ليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر هو البحث للتحقيق
والمقارنة والتمحيص . ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون » .

« والمفروض أن الأجيال متراجعة الى الانحطاط ، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبي صلى الله عليه وسلم من طريق هابط من أعلى الى أسفل - والأئمة المجتهدون بعداء في عصور ذاهبة في أعماق الماضي ، لا يستطيع الحاضر أن يدرك غارها » (١) .

ضاق الامام بطريقة التدريس في الأزهر . ولكن الأقدار التي هيأت له الشيخ درويش خضر عند أزمته من الجاهع الأحمدي قد هيأت له في الأزهر أساتذة من نوع ممتاز استطاعوا أن يجذبوا انتباه الشيخ محمد عبده وأن يحببوا اليه أنواعا من العلوم والمعارف التي لم تكن تدرس في الأزهر . منهم الشيخ حسن الطويل ، وهو رجل عشق الفلسفة يوم أن كانت تعد الفلسفة لونا من ألوان الاتحاد .

كان الشيخ الطويل يدرس كتب ابن سينا ومنطق أرسطو ، وهي كتب لم تكن مألوفة في الأزهر ، فتعرف عليها الشيخ محمد عبده عن طريق أستاذه هذا ، وضم بذلك في تحصيل معرفته الى كتب الأزهر التقليدية هذه الكتب الفلسفية .

وكما هيأ له القدير أن يتلمذ على الشيخ حسن الطويل وهو رجل يعالج الحكمة . تتلمذ على الشيخ محمد البسيوني الأديب وهو شيخ عني بمعالجة الأسلوب الأدبي . وبالفصاحة والبيان العربي . لا كما عني صاحب شروح التخليص بذلك ، وإنما على نحو آخر هو أن الأدب والبيان ذرية ومملكة وذوق واحساس أكثر منها قواعد ومناهج .

(١) ترجمة الأستاذ الامام المفرحوم فضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس ١٩٥٩ .

فلم ينشأ الشيخ محمد عبده باتجاه واحد وإنما تأثر بتصوف الشيخ درويش وفلسفة الشيخ الطويل وأدب الشيخ البسيوني ومحافظة الشيخ عlish وزملائه من أساتذة الأزهر .

وكل هذه المؤثرات تفاعلت في ذهنه وساعدت على تكوين شخصيته وتنمية مواهبه واستعداده الفطري .

ذلك الذي أذكاه ونماه جمال الدين الأفغاني حكيم الاسلام .

تعرفه بالسيد جمال الدين الأفغاني :

السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ولد في بيت شرف وعلم بقرية اسعد آباد من قرى كثر من أعمال كابل ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م . ويتصل نسبه بالامام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقد نشأ جمال الدين في بيت علم وفضل وكرامة وسيادة ، واشترك في أمور الحكم في بلاد الأفغان ثم رحل الى بلاد الهند وطاف بكثير من البلاد الشرقية والغربية .

ثم قدم الى مصر للمرة الثانية سنة ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م . فاتصل به الشيخ محمد عبده يحضر دروسه ويلتزم مجالسه التي كانت مجالس حكمة وعلم .

واستطاع السيد الأفغاني أن ينزع الشيخ محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة ، والانصراف الى التحنث والرياضة الى معنى للتصوف جديد هو التصدي للاصلاح والتجرد الكامل للدفاع عن الاسلام . والتسلح الفكري والفلسفي لرد هجمات المستشرقين والمغرضين .

ولم يكن جمال الدين عالما عاديا من علماء المسلمين • وليس عالما أفق علمه ومعرفته وطن وبلد من بلاد العالم الاسلامى • ولم تكن معرفته مقصورة على المؤلف في وقته باسم الثقافة الاسلامية ولا كتباً ومقالات فحسب • بل ضم اليها مع ذلك تجارب شخصية كانت وليدة رحلاته ووقوفه على نفسية الشعوب الاسلامية من جانب • وعلى الدخلاء الأجانب من جانب آخر •

وقد قام جمال الدين بنشاطه الكبير في كل بلد حل به • وكان يهدف الى نهضة البلاد الاسلامية وتقوية كل بلد في ذاته وتقوية الروابط بين البلاد الاسلامية بعد ذلك لكي يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبي • وقد كان يقول بهذا الصدد : « ان الدول الغربية تنتحل الأعذار في هجومها وعدوانها على البلاد الاسلامية واذلالها واكراهها بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط واليهوان بحيث لا تستطيع ان تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها ، في حين ان تلك الدول عينها لا تكف عن التذرع بالوف الذرائع ، حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والاصلاح في البلاد الاسلامية • ومن ثم يجب على العالم الاسلامى ان يتحد في حلف دفاعى كبير • ليستطيع بذلك ان يصون نفسه من الفناء •

وللوصول الى هذه الغاية انما يجب عليه ان يأخذ بأسباب التقدم في الغرب وأن يكتنه اسرار تفوقه وقدرته (١) •

ومن الانصاف ان نذكر أن جمال الدين لم يكن يعنى بذلك احلال قومية الدين محل قومية القطر ، وانما كان يرغب في أن تتحد جميع الاقطار الاسلامية • مع استقلال كل منهما عن الآخر الى هدف.

(١) عثمان امين - رائد الفكر المصرى ص ٢٢ •

واحد هو التحرر السياسى ، ومن أجل النهوض بالوطن المصرى
او التركى او الفارسى كان يعمل على نهضة الاسلام الذى يتغلغل
فى الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار الاسلامية المختلفة » على
أن عبء النهوض بمهمة الإصلاح الدينى سيقع فى صميمه على
عاتق تلميذه الفيور محمد عبده الذى سيكون لوثر الشرق حقا « (١) .

والنظرة السطحية تجعل بعض الناس يقول ان جمال الدين
كاز، ثائرا سياسيا . بينما كان تلميذه الشيخ محمد عبده «صلحا
اجتماعيا » . ولذا امعنا النظر وجدنا ان الدين كان أساسا أوليا
عندهما . وفى الوقت نفسه كان هدفا أخيرا وغاية مطلوبة .

فحركة جمال الدين فى مظهرها حركة سياسية ، وفى جوهرها
حركة اسلامية . يتحدث عن « وحدة المسلمين » مرة وعن حكومات
اسلامية مستقلة . يرتبط بعضها ببعض فى شبه اتحاد مرة أخرى .
وهم ذلك فالشئ الذى لم يتغير عنده هو الأخذ بتعاليم الاسلام .
سواء فى قيام الحكومة الواحدة او فى ارتباط الحكومات المختلفة .

يتحدث عن الأخذ بما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ،
ولكن على أساس أن يكون ذلك فى تلاؤم مع الاسلام ، او لأن
الاسلام يدعو اليه .

يتحدث عن مقاومة الاستعمار الغربى . وبالأخص مقاومة
الاستعمار الانجليزى — ولكن فى حديثه يتكئ على الاسلام ،
ويطلب تحقيق تعاليمه .

ينتقد سلطان الآستانة ، وشاه ايران ، وخديو مصر ، لأن

(١) محمد صبرى : الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل ص ٢٠٠
(فى الهامش) .

أى واحد من هؤلاء لا يرغب فى إعطاء الشعب حريته فى الرأى والقول والمشورة .

لا يرغب فى إعطاء الشعب دستورا يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، ونقده لمصلحة الشعب ، فتبدو عليه مسحة العمل السياسى .

ولكن هذا النقد أسس على الاسلام وعلى مبادئه التى تصون هذه المقدسات : حرية الشعب ، وسيادته ، ووضع الحاكم منه وضع المنفذ لمشيئته . لا وضع السيد صاحب السيادة المطلقة عليه .

يدعو الى الترابط الوثيق بين المسلمين وغير المسلمين فى الأوطان الاسلامية والى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم ، فتبدو دعوته هذه فى مظهر « الشرقية » أو « الوطنية » تبدو سياسية ، ويميل لذلك بعض المؤرخين لجمال الدين ان يسمى حركته هذه بالحركة الشرقية . ولكنه هو فى دعوته هذه مسلم ، وعمله عمل اسلامى . لأنه يستند الى الاسلام فى تاريخ الفتح ، وفى تعاليمه فى الصلة بين المسلم وغيره سواء فى مكان واحد ، أو مكانين مختلفين .

يدعو الى نبذ الخصومة بين الشيعة والسنة ليؤلف بين مبطلتين فى رقعة العالم الاسلامى اذ ذاك ، بين سلطة ايران وسلطة القسطنطينية . بعد ذهاب دولة الهند الاسلامية ، فيبدو لذلك سياسيا ، أو وسيطا فى مجال السياسة ، ولكنه هو يدعو بدعوة الاسلام فى ذلك .

— يحارب المذهب الطبيعى (الدهرى) الذى انتشر فى الهند سنة ٨٧٩ م والذى قال فيه : انه سيقرق المسلمين هناك الى

طائفتين : طائفة القديم وطائفة الجديد . طائفة اصحاب الطاعة والولاء
للحاكم المستعمر والطائفة الأخرى المنازعة المقاومة لنفوذه وولايته ،
كما سيفرق بين مسلمى الهند من جانب ، والخلافة العثمانية من
جانب آخر .

فيظهر مرة أخرى في دعوته هذه بمظهر الرجل الذى يريد أن
يحافظ على وحدة الامبراطورية الاسلامية الجغرافية ولكنه فى الرد
يقاوم الاتحاد الدينى بصفة عامة ويوضح ضرورة الدين للمجتمع
الانسانى ، أى دين ، ثم يذكر مزايا الاسلام التى تكفل للانسان
متعة فى هذه الحياة أرفع بكثير من تلك المتعة التى يهيئها له اعتناق
المذهب الطبيعى (المادى أو الدهرى) فهو فى هذا مسلم وعمله
اسلامى كذلك (١) .

وقد كان جمال الدين قوة مشعة مؤثرة ، لا ينزل بلدا الا ترك
فيه أثرا . قال عنه الفيلسوف (رنان) :

« كنت أتحدث اليه فكان يخيّل الى من حرية فكره ونبالة
طبعه واخلاص قلبه ، أثنى أرى وجهها لوجه أحد معارفى القدماء ،
وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحدا من أولئك الأحرار
العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر
الانسانى » (٢) .

وقد مات جمال الدين فى سنة ١٨٩٧ م ، بعد صراع عنيف مع
الاستعمار الغربى استمر قرابة ثلاثين عاما ، ولكن ما ان توفى عليه
رحمة الله حتى انتشر كفاحه واتجاهه فى التفكير فى جميع أنحاء
العالم الاسلامى ، وخاصة تلك الأنحاء التى تسلط فيها الأجانب

(١) مجموعة العروة الوثقى ص ٤٧١ - ٤٧٧ .

(٢) عثمان امين - زائد الفكر المصرى ص ٢٢ .

وعبث بمقدسات المسلمين ، وبكراماتهم واقتصادياتهم ، ومواردهم
في الثروة الطبيعية .

مات جمال الدين في استقائبول وظهر أثره في مصر ، في
محمد عبده ومدرسته (السلفية) وفي الجزائر في جمعية علماء
الجزائر (لمؤسسها المرحوم عبد الحميد بن باديس المتوفى
سنة ١٩٤٠) وفي اندونيسيا في حركة تجديد « المنار » ، وفي الهند
في جماعة أهل الحديث ، وفي ندرة العلماء (لمؤسسها محمد شبل
النعمانى المتوفى سنة ١٩٤١) وفي أزهر الهند ، في مدرسة دار
العلوم في « ديوبند » التي نقلت بعد التقسيم الى « اكورى »
ببشاور في الباكستان .

وفي كل هذه الحركات تجد هدفا واحدا : هو تحرير الوطن
الاسلامى من الاستعمار الغربى ومحاربة الاتجاه الاستعمارى
في التفكير ، ثم مع هذا الهدف الوسائل لتحقيقه .

اما تحرير الوطن الاسلامى من الاستعمار الغربى فيعتمد في
كل هذه الحركات على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم وتآخيهم ،
واسترجاع هذه القوة يعتمد بالتالى على طرح ما طرا على الاسلام
من عادات في السلوك . وأفهام سقيمة في تخريج نصوصه وشرح
تعاليمه . ثم الرجوع الى موقف المسلمين الأول من القرآن في
استلهاهم التوجيه منه مباشرة لطبع تصرفاتهم بالطابع الاسلامى في
من جهة ، ولوصولهم الى الغاية التى ينشدونها في أمان وسرعة من
جهة أخرى .

واما محاربة الاتجاه الاستعمارى في التفكير . فبالوقوف في
وجه الشبه التى تثار والتخريجات المفرضة لنصوص مصدرى
الاسلام : القرآن والسنة الصحيحة ، وبيان زيفها بالأسلوب العلمى
والتاريخى . وتصحب ذلك محاولة تقريب مبادئ الاسلام من

العقلية الإسلامية الحديثة • وتوضيح أن هذه المبادئ هي لتوجيه الإنسان توجيهها سليماً سواء في عصر الأبل ، أو في عصر الحضارة الإسلامية القديمة ، الهندية والفارسية والافريقية أو في عصر البخار والآلة ، أو في عصر الذرة والإنسان الآلي •

ولهذا الشبه في الهدف والوسيلة بين هذه الحركات التي ترجمت كفلاح جمال الدين الأفغاني من جديد ، نجد ما ينسب إلى الشيخ محمد عبده في مضمون من حركة إصلاحية ودعوة إلى تحديد المفاهيم الإسلامية تحت تأثير الحياة الحديثة وما فيها من حضارات لم تكن مألوفة ، وطاقات لسيطرة الانستنان على الحياة لم يكن للمسلمين من قبل الف بها ، هو ما نجده كذلك عند زعماء تلك الحركات « التحريرية » والاختلاف بينها في سعة الحركة الإصلاحية أو ضيق نطاقها أو في قوة الدعوة أو تواضعها •

وما ينسب للشيخ محمد عبده من منهج تربوي لتنشئة المسلم الصغير ، وتقويم العامي وتخريج الدعاة والباحثين وتثقيف المرأة - وما نجده عنده من منهج للتعليم « الوطني » نجده أساساً من أسس تلك الحركات ، مع ما قد يكون من فارق في النوع أو الكمية :

التعبئة العامة للشعوب الإسلامية على أساس من دينها •
لا على أساس من مذاهب الطوائف فيها • ومن أجل هذا الدين ،
هي مجمل هذه الحركات •

الدين سيادة المؤمنين به ، وعلى المؤمنين أن يحافظوا عليه
ويتمسكوا به ويدافعوا عنه لتبقى لهم السيادة • هذا هو شعار
تلك الحركات (١)

(١) الدكتور فخيد الميحي ، الفكر الإسلامي الحديث ص ٨١ •

وقد كان تأثير جمال الدين الأفغانى فى مصر أوضح كثيرا من تأثيره فى غيرها . أقام فى مصر ثماني سنين كانت كلها خيرا وبركة لمصر والمصريين : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطنى فى هذه البلاد . وقد نسب اليه بحق الدور التاريخى « لأبى القومية » ، استطاع الرجل بخطبه الملهبة أن ينفث فى النفوس نزوعا الى الحرية ورغبة فى العدالة . خطب مرة فى الاسكندرية قبل خلع الخديوى اسماعيل فقال :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمح وتقوم بأوثر العياك . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » (١) بهذه الجراحة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق فى أيقاظ الناس ، وتنبيه الحكوميين الى حقوقهم قبل الحاكمين ، فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السلطان ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق فى التصرف فى شئون الرعية ، وليس هناك شك فى أن لجمال الدين يدا فى الحركة العربية . ومن المحقق أن ابدا الوطنى الذى سيطر على تلك الحركة من غرسه كما قال شكيب أرسلان : « وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ولفحة الدسائس الأجنبية ، ما صوح نضرتة . شأن تلك الدسائس على كل نهضة فى الشرق ، أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق . حجب الغباوة التى هى أصدق عوامل الاستعمار » (٢) .

(١) أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية ص ٢٢ .
(٢) تعليقات شكيب أرسلان على كتاب « حاضر العالم الاسلامى » ،
تألف لم ثروب ستودارد ، الترجمة العربية . القاهرة سنة ١٩٢٢
المجلد الثانى ص ٢٨٩ - ٢٠٣ .

ومن أحسن الآثار التي تركها لمصر تلميذه النابه الوفي الشيخ محمد عبده . فلما قضى على جمال الدين بالابعاد عن مصر بأمر توفيق باشا . قال يوم وداعه لبعض خاصته : « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » .

قائه بالسيد جمال الدين :

سمع الشيخ محمد عبده بقدوم جمال الدين الى مصر سنة ١٨٨٧ م فذهب اليه . ولازم مجالسته .

« وكان الامام يومئذ فتى متأثرة كل عواطف قلبه الفتى بمنازع التصوف ورياضته ومواجهه . وكان يتلقى علوم الازهر على أنماطها المعروفة متشوقا في نفس الوقت الى علوم أخرى حدثه عنها الشيخ درويش خضر ، وكان السيد الأفغاني وحده قادرا على تخليص محمد عبده من خموله الصوفي ودفعه الى الحياة العاملة ودراسة العلوم المختلفة كالفلسفة والرياضيات والكلام والأخلاق والسياسة وغيرها مما لم يكن له مكان في مناهج الازهر » (١) .

وبعد سنتين من صحبة الشيخ محمد عبده للسيد جمال الدين ظهر لنا ذلك الشاب المتصوف الذي كان ينطلق في القول على وجل ، اذا سألته العامة عن شيء من أمر دينهم في تلك المجامع التي كان يقوده اليها خال أبيه الشيخ درويش ، مؤلفا جريئا يكتب في رسالة الزارات سنة ١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م ، من المذاهب الفلسفية والصوفية ما قد تكون بعض أوساطنا العلمية لم تستعد بعد لسماعه ، وقد مضى خمسون عاما (٢) . هذه الرسالة هي أول ما وصل اليها من آثار أستاذنا لا تخلو في أسلوبها من نفحة الأدب

(١) السيد رشيد رضا - تاريخ الامام ج١ ص ٢٦ .

(٢) مصطفى عبد الرارق - الأستاذ الامام ص ٢ .

العتيق ، أدب السجع والتكلف ، الذى كان عالقا بالمؤلف لقرب عهده به ، ولكنها فى تأليفها ذات نظام حسن ، وطريقة فى سوق البراهين معقولة ، هى رسالة صغيرة فى العقائد على منزع يغلب تصوفه ما فيه من فلسفة (١) .

وفى سنة (١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م) ألف الشيخ محمد عبده حاشيته على « شرح الجلال الدوائى للعقائد المضدية » .

وهذه الحاشية ، ترينا الشيخ محمد عبده فى السادسة والعشرين من عمره محيطا بمذاهب المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة احاطة فهم ونقد ، يكاد يجهر بأرائه فى تلك الموضوعات الخطيرة ، ويكاد يكظم صوته الفتى القوى شبح عصا الشيخ عيش ، قائما على رأس مجاور ، بينه وبين التقدم لامتحان العالمية سنتان ، وفى هذه الحاشية توضيح للمذاهب فى الالهيات والنبوات ومقارنة بينها ، ونقد متين .

وكان من اثر جمال الدين اتجاه المجاور الشيخ محمد عبده الى الاصلاح ، فشرع يكتب فى جريدة « الأهرام » فصولا متتابعة . سامية المنزع مشتملة على اصول الدعوة الاصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها .

وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس الى ذلك الفتى الناهض الى السابعة والعشرين من عمره نهضة المصلحين الكبار عاقلا جريئا . وصل صدق تلك المقالات الى اسماع الجامدين من الشيوخ ، والتقى فيها بحديث ملازمة كاتبها للسيد جمال الدين واشتغاله بالفلسفة وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة . ونهيه عن

(١) نفس المرجع .

التقليد ، ودعوته الى الاشتغال بالعلوم الحديثة وتحبيذه لعلوم
الفرنجة واطالة شعره أيضا .

دخل الشيخ محمد عبده مجلس الامتحان سنة (١٢٩٤ هـ -
١٨٧٧ م) وكل ذلك ينتظره في صدور اعضاءه ما عدا الرجل
المنصف الشيخ محمد المهدي العباسي شيخ الأزهر لذلك العهد ،
ورئيس لجنة الامتحان .

ولولا قوة الشيخ محمد عبده في علمه وفي نفسه قوة باهرة ،
وترفع الشيخ المهدي عن الظلم لقضى مجلس الامتحان المؤلف من
كبار الشيوخ ، بأن ذلك المجاور المضطهد ، لا يستحق نجاحا .

قال الشيخ محمد عبده : شهادة العالمية من الدرجة الثانية ،
وهي ابن ثمان وعشرين سنة ، فشر لأول مرة بأنه انتصر على
خصومه الجامدين أعداء الاصلاح برغم جاههم وكثرتهم ، وزاده
ذلك نشاطا فجمع كل ما في نفسه من قوة الشباب وقوة العلم وقوة
الرغبة في الاصلاح ، ووجه جميع ذلك الى العمل في الأزهر ،
لاعتقاده أن صلاح الأزهر صلاح للبلاد ، وأهلها وللمسلمين في اقطار
الأرض .

أخذ يدرس كتب المنطق ، والكلام المشوب بالفلسفة في الجامع
الأزهر ، ويدرس في داره لبعض المجاورين كتاب تهذيب الأخلاق
لابن مسكويه . وكتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك
الأوروبية ، تأليف الوزير فرانسوا جيزو ، وتعريب الخواجه
نعمة الله خوري .

وفي أواخر سنة (١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨ م) عين مدرسا للتاريخ
في مدرسة دار العلوم ومدرسا للعلوم العربية في مدرسة الادارة
والالسن الحديوية . فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

في الجامع الأزهر . « بدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وإنما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشئون العمران وأصوله على أمته ويبين أسباب ضعفها ، والوسائل التي تذهب به وتعيد إليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك ، فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله ، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده واعلاء شأن أمته لأن هذه الأفكار لم تكن معهودة في هذه البلاد ، فلا تذكر في المدارس ولا في المجالس ، والمقرر في أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لا حقوق لهم عليهم ، وقد كتب الشيخ محمد عبده في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون ، واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في العصور الغابرة » (١) .

« وفي سنة (١٢٩٦ هـ - ١٨٧٩ م) نفى من مصر بمساعي الانجليز السيد جمال الدين الأفغاني الذي كان عمله شجى في خلق ممثل انجلترا بمقدار ما كان تجديده لدروس الفلسفيات غيظا للجامدين من أهل الأزهر » (٢) .

واقيل الشيخ محمد عبده من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن وأمر بأن يقيم في قريته (محلة نصر) وذلك في الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٩ م أواسط رمضان ١٢٩٦ هـ .

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ ص ١٣٦ .

(٢) مصطفى عبد الرازق : الاستاذ الامام محمد عبده .

عظمة الامام :

الرجل العظيم يكون عظيما في كل ما يقوم به . والمصلح والمربي لا ينتظر قدوم الناس اليه حتى يرشدهم ، بل هو يسعى الى اصلاحهم كأن له مصلحة في ذلك .

وقد كان الامام مريبا في دار العلوم ، ومحورا للعقول والأفكار وحين نفى الى بلده لم يهن ولم يضعف . حتى اذا عفا عنه الخديو توفيق واسند اليه رياض باشا تحرير الوقائع في سنة ١٢٩٧ هـ - ١٨٨٠ م . انطلق للاصلاح بكل ما تملك يده .

وقد كانت الوقائع المصرية جريدة رسمية أسسها محمد علي سنة ١٢٨٨ هـ وكانت مقصورة على الأوامر الرسمية والدعاية الحكومية حتى تولى الامام تحريرها . فنهض بها نهضة عظيمة واستعان على تحريرها بنخبة من المحررين . من خيرة تلاميذ جمال الدين الأفغاني أمثال سعد زغلول ، والهلباوى ، والشيخ سيد وفا . ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان ما لم يخطر على قلب بشر ، وهو أن رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيما على الحكومة والأمة ، ينتقد الأعمال والأقوال وينتقل بالناس من حال الى حال .

وضع لائحة لقلم المطبوعات او للجريدة الرسمية اجازها وانفذها رياض باشا ، فكان من احكامها أن جميع ادارات الحكومة ومصالحها في العاصمة وغيرها مكلفة ان تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت فأتمت وما شرعت فيه فلم تنمه ، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج احكامها ، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ما تراه منتقدا من الأعمال ومن المكتوبات الرسمية . وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والأجنبية التي تصدر في القطر

المصرى ، وأن تبحث عن حقيقة ما تقوله في رجال الحكومة وأعمالها ، وعلى الحكومة مساعدتها في ذلك بمعنى أنه إذا نشر في بعض الجرائد ما ترتب إدارة المطبوعات فيه فإن لها أن تسأل المصلحة أو الإدارة التي يسند إليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية إن لم يكن ما نشر مسندا إلى النظارة . والا سألتها هي مباشرة فإن كان حقا ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذه من نسب إليه الذنب ، وذكر ذلك في الجريدة الرسمية وإن كان كذبا طوبى مدير الجريدة بآبائاته والا أنذر - وكان من أحكام قانون المطبوعات أنه إذا تكرر انذار جريدة ثلاث مرات يمنع إصدارها البتة أو إلى الأجل الذي تراه الإدارة . وكان من حق هذه الإدارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لا تجوز المناقشة فيه ، وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الأدبية والاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك .

فكم كان عجيبا أن ترى صاحب عمارة ازهرية يدخل في حكومة مطلقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح أعمالها ما يكتبون ، ويرشدهم إلى اصلاح العمل فيما يعملون ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة فيقوم من أخلاقها ويصلح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح والارشاد القويم ، ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق في القول ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا ، وتأثيرا ماثورا (١) .

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج١ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

ثم هبت أعاصير الثورة العرابية والشيخ محمد عبده رئيس
لتحرير الجريدة الرسمية له يد عاملة في حرية الأفكار . ولم يكن
الامام في بداية الأمر مشايخا لعرابي : فقد كان يعتبره ناطقا
بافكار عسكرية بحتة . وكان محمد عبده يعلن انه يفضل قيام
نظام للحكم مصحوب باصلاح داخلي تقدمي وسيلته الرئيسية - في
نظره - هي نشر الثقافة وبث التربية الاخلاقية والسياسية الصحيحة
التي تناسب قيام دستور حر . وكان يقول في هذا الصدد لعرابي
نفسه : « ان الامة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة في ادارة
شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى . فما يطلبه
رؤساء الجند غير مشروع : لأنه لو تحقق ونالت البلاد مجلس
شورى لما كان ذلك تصويرا لاستعداد الامة ولا تحقيقا لمطالبها ،
فلا يلبث أن يتهدم ويزول ، وأخشى أن يجر هذا على البلاد احتلالا
أجنبيا » (١) . ولكن ازاء تدفق الحوادث لم يستطع المصري الغيور
الا أن يسارع بشد أزر العرابيين الثائرين حتى غدا أحد الرؤوس
المديرة لشئون الحكومة الوطنية .

وبعد اخفاق عرابي - اتهم محمد عبده بالتآمر مع رجال
الثورة وحكم عليه بالسجن ، ثم بالنفي ثلاث سنوات فاختار سوريا
ورحل اليها سنة ١٨٨٣ . واقام نحو سنة ثم سافر الى أوروبا على
موعد بينه وبين استاذة جمال الدين . فاقام فيها عشرة اشهر
معظمها في باريس وهناك أصدر معا جريدة « العروة الوثقى » وكان
هدف الجريدة الدعوة الى الجامعة الاسلامية والذود عن الشرقيين
ومكافحة التسلط الأجنبي والطغيان الداخلي وتخليص مصر من
الاحتلال الانجليزى بوجه خاص . وكانت (العروة) أول صحيفة

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج١ ص ١٢٧ - ١٢٥ - ٢١٧ .

عربية ظهرت في أوروبا . نهضت بمثل هذه المهمة الشاقة وذاذت عنها في حماسة وبلاغة(١) .

وفي بداية صيف ١٨٨٤ م رحل محمد عبده الى انجلترا مندوبا عن « العروة الوثقى » في لندن ، وقد استقبل الشيخ المصري صديقه « ولفرد بلنت » الكاتب الانجليزي مؤلف كتاب « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر » وقد أمد « بلنت » صديقه المصري بمعونته القيمة ابلاغ صوته عن طريق الصحافة الى الراى العام الانجليزي، ودعوته الى الاهتمام بالقضية المصرية . كذلك يسر للشيخ المصري سبيل مقابلات مع بعض رجال السياسة وأعضاء البرلمان الانجليزي ومن أولئك « راندولف تشرشل » والد رئيس الوزارة الانجليزية السابق(٢) .

وبعد اقامة قصيرة في لندن عاد محمد عبده الى باريس ، ليستأنف عمله في المجلة ، ولكن السياسة الانجليزية حالت دون وصول « العروة الوثقى » الى البلاد الاسلامية فاحتجبت المجلة . ومع هذا فقد كان لها في العالم الاسلامى نفوذ عظيم في نمو القومية والجامعة الاسلامية معا .

« وقد غادر الشيخ محمد عبده باريس وعاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ مركز الثقافة العربية اذ ذاك . وقد عهد اليه التدريس في المدرسة السلطانية لاهياء اللغة والدين ، وكان يشتغل مع التدريس بالتأليف والكتابة وقد ألف « رسالة التوحيد » هناك ، ونقل الى العربية رسالة « الرد على الدهرين » ، التى كتبها

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام - ج ١ ص ٢٩٢ .

(٢) عثمان امين : محمد عبده - ص ٨٢ - ٩٢ .

السيد جمال الدين باللغة الفارسية . وشرح كتاب نهج البلاغة
ومقامات بديع الزمان الهمداني « (١) » .

« ولم تقتصر جهوده على التعليم والتأليف . فقد أسس
بمعونة اشخاص آخرين جمعية دينية سرية من أهدافها التقريب
بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والاسلامية ،
وكان القس « اسحق تيلر » راعي الكنيسة الانجليزىة احد
الأعضاء العاملين في تلك الجمعية ، وهو الذى حاول - فيما يبدو -
نشر افكارها في انجلترا ، ويقال انه قد جرت بين هذا القس وبين
الشيخ محمد عبده مراسلات كان من آثارها ان تحدث القس عن
الاسلام حديثا وديا ، ونشر بهذا المعنى مقالات في صحف لندن ،
ولكن يبدو ان نشاط الشيخ محمد عبده في هذه الجمعية قد
فسر - في تركيا - تفسيراً سياسياً يناقض مصالح الخلافة
العثمانية . مما حدا بالسلطان عبد الحميد الى السعى لدى الحكومة
الانجليزية لاصدار العفو عن الشيخ محمد عبده ودعوته الى
مفادرة سوريا في أقرب وقت ممكن « (٢) » .

وعاد الشيخ محمد عبده ودعوته الى مصر سنة ١٨٨٨ . وكانت
له رغبة في الاشتغال بالتدريس والتربية - رغم أن وظيفة
التدريس محدودة الترقية ، فقد كان الامام يفضلها على القضاء ،
ولكن الخديو توفيق لم يرض بتعيينه معلماً خوفاً من أن يربى له
تلاميذ على افكاره ومنازعه ، فعين قاضياً بمحكمة بنها الأهلية ،
ومنها انتقل الى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين . وفي سنة
(١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م) عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية .

(١) مصطفى عبد الرازق : الاستاذ الامام ، كتاب المهالل : دروس من
القرآن للشيخ محمد عبده .

(٢) رشيد رضا : - ج١ ص ٨٢٢ .

وعرف الشيخ محمد عبده في القضاء بالاستقلال في الفكر والتحرر من الرسوم والشكليات ، وكان يتوخى في أحكامه تربية الجمهور وإيقاظ ضميره ، واصلاح ذات البين بين الأسر . وفي سنة ١٣١٢ هـ جعلته الحكومة المصرية عضوا في مجلس ادارة الأزهر ، وهو اول مجلس أسس بسعيه عند الخديو عباس ليكون رسول الاصلاح .

ولست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ هـ - ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م صدر الأمر بتعيينه مفتيا للديار المصرية .

فأضفى على المنصب سناء وبهاء ، ولم يقتصر على الافتاء فيما كان يحال اليه من مسائل بل وسع اختصاصه وزاد من نفوذ المنصب الكبير .

وامتازت فتاوى الأستاذ الامام بالميل الى التسامح ، واستقلال الراى والبعد عن التقليد والملاءمة بين روح الاسلام ومطالب المدنية الحديثة . وأشهر الفتاوى التى أصدرها ثلاث : الأولى تبيح للمسلمين ادخار أموالهم ، وأخذ الفوائد والأرباح عليها . والثانية تبيح لهم أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة ، والثالثة تبيح لهم أن يتزينوا بزى غير زيهم التقليدى ، تيسيرا لهم فى أمور معاشهم . وقد سببت هذه الفتاوى كثيرا من المجادلات ، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين . وجلبت على المفتى ضروبا من القدح والتشهير لم تكن الدوافع اليها دينية خالصة فى كثير من الأحيان .

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ م عين محمد عبده عضوا فى مجلس شورى القوانين فصار على سياسة ترمى الى تربية الراى العام فى مصر وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة ، واستهداف المصالح القومية الكبرى .

وقد عمل الشيخ محمد عبده عن طريق « الجمعية الخيرية الإسلامية » التي كان من أوائل مؤسسيها على تحقيق اصلاح أخلاقي اجتماعي ، يذكى في الناس روح الاعتماد على النفس والتعاون بين الأفراد واشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والاحسان الى الفقراء .

« وكان صوته اول صوت ارتفع في مصر الحديثة مناديا بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات .

والى الأستاذ الامام يرجع الفضل في انشاء مدرسة القضاء الشرعي والعمل على اصلاح المحاكم الشرعية كما اسس « جمعية احياء الكتب العربية القديمة » (١) .

وفي سنة ١٩٠٥ م اخذ الامام يدعو الى انشاء جامعة مصرية الى جانب الجامعة الأزهرية . ولم يقنع بالتفكير ، بل خرج بالمشروع الى التنفيذ فاقنع « أحمد المنشاوي باشا » بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض في احدى ضواحي القاهرة . ولكن بموت المنشاوي باشا وقف المشروع .

وفي ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ م توفي الشيخ محمد عبده ، وهو في أوج نشاطه ، وكانت وفاته حداذا عاما للبلاد العربية والإسلامية جميعا .

(١) دائرة معارف الشعب ص ٤٠ .

الباب الثاني

منهج الشيخ محمد عبده
في تفسير القرآن الكريم
مقارنا بمناهج المفسرين السابقين

منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم مقارنا بمناهج المفسرين السابقين

يقوم منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم على
تسعة أسس هي :

الأساس الأول :

- اعتبار السورة وحدة متناسقة .

الأساس الثاني :

- عموم القرآن وشموله .

الأساس الثالث :

- القرآن هو المصدر الأول للتشريع .

الأساس الرابع :

- محاربة التقليد .

الأساس الخامس :

- اعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمى

الأساس السادس :

- تحكيم العقل والاعتماد عليه فى فهم القرآن

الأساس السابع :

- ترك الاطناب فى الكلام عما ورد فى القرآن بصورة مبهمه

الأساس الثامن :

- التحفظ فى الأخذ بما سمي بالتفسير المأثور والتحديد من الاسرائيليات

الأساس التاسع :

- اهتمامه بتنظيم الحياة الاجتماعية على اساس من هدى القرآن

الأساس الأول

اعتبار السورة وحدة متناسقة

١ - كانت فكرة التناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه في تفسيره . وفي ترجيح بعض آراء سابقيه على بعض .
بل ربما روى آراء السابقين في الموضوع ثم رفضها جميعها لأنها لا تحقق التناسق بين الآيات .

فأراه يستهل تفسيره لسورة الفجر قائلا : « كثر (١) خلاف المفسرين والرواة في معنى كل من الفجر وليال عشر ، إلى آخر ما أقسم به ، وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ، ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه . وغالب ذلك يجرى على خلاف ما عودنا الله في نسق كتابه الكريم . وقد جرت سنة الكتاب بأنه إذا أريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه كيوم القيامة في « لا أقسم بيوم القيامة » ، واليوم الموعود في سورة « والسماء ذات البروج » وكليلة القدر في سورتها ، فإذا أطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعنه معنى الاسم كما سبق في قوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » . والفجر هنا على هذا هو جنس ذلك الوقت المعروف

(١) تفسير جزء عم طبعة الجمعية الخيرية الإسلامية ، الطبعة الثانية ص ٧٧ .

الذى يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الأسود وينبعث الضياء
لمطاردة الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح وهو معهود في كل يوم .
فصح ان يعرف بالالف واللام . والمراد والله أعلم من « ليال عشر »
ليال تتشابه في حالها مع حال الفجر ، وهى ما يكون ضوء القمر
فيها مطاردا لظلام الليل الى ان تغلبه الظلمة فكأنه وضع التناسب
على شئ من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع
النهار ولا يزال الضوء الى الليل وضوء الأهلة في عشر ليال من
اول كل شهر يشق الظلام ثم لا يزال الظلام يغالبه الى ان يغلبه
فيسدل على الكون حجبه » .

٢ - والشيخ محمد عبده باتباعه هذا المنهج واحتكامه الى
تناسق الآيات وتجانس معانيها المتجاورة يقضى على طريقة تفسير
آيات القرآن منفصلة بعضها عن بعض تلك الطرق التى سلكها
كثير من المفسرين فقضت على جوانب بلاغة القرآن وتناسق أسلوبه
وترتيب أفكاره مما جعل بعض المستشرقين يقول ان القرآن خليط
متنافر وجمع غير مؤتلف ليس فيه وحدة للموضوع ، ولا يتبع منهج
التأليف العلمى أو الفنى : من عرض الموضوع ومناقشته وتدوين
الملاحظات واستنتاج الحقائق . بل نجد السورة تدخل في أكثر من
موضوع وتعرض الجميع عرضا مبتسرا سريعا ، ولا تراعى مناسبة
بين محتوياتها ، فهى أشبه بقولهم غسل خمر لبن .

٣ - وللشيخ محمد عبده يرجع الفضل في رسم فكرة عامة
عن السورة وعرض المواضيع التى تعالجها والمبادئ والحقائق التى
تسجلها واقتفى أثره في ذلك تلميذه السيد رشيد رضا في اكمال
تفسير المنار الى سورة يوسف .

وظهرت وحدة السورة جيدا في الفهرس العام الذى كان يضعه
لها ، وفي عرض الموضوعات التى تحدثت عنها . واقتدى بالأستاذ
الامام طليعة العلماء في هذا القرن وقادة التفكير الاسلامى مثل :

فضيلة الأستاذ الكبير المرحوم محمد مصطفى المراغى •

فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت •

وفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز •
وان تميز كل واحد منهم بميزة خاصة •

٤ - والوحدة في منهج السورة القرآنية لا تقتيد بمبدأ الوحدة الفنية في التأليف الأدبي أو الفني • فالقصة الأدبية مثلا لها قواعد فنية يجب مراعاتها مثل العقدة والمأزق والصراع والحل • ولكن القرآن الكريم كتاب هداية كان يذكر من القصة أو الحادثة ما يحقق هذه الهداية وأحيانا يبسط الموضوع ، وأحيانا يوجزه حسب مقتضى الحال • وأحيانا يترك الموضوع ويتكلم عن شيء مناسب أو مجانس ، ثم يرجع الى الموضوع الأول أو ينتقل الى غيره ، وهذا طريق لو اتبعه بشر لكان تأليفه تافها أو ساقطا • ولكن القرآن كتاب الله وهو على كل شيء قدير • ومن قدرته انه يؤلف بين الأجناس المختلفة • فترى بينها نهاية التضام والالتحام • وكل امرئ يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل • هل يجد لديه من هزة الاستحسان في هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة قد صفت فيها ضروب الفوائد والمتع ثم جعلت تمر به في أبداع تنسيق وأحسن تقويم ؟ اللهم لا ، فذلك كذلك « (١) » •

٥ - يشعر الأستاذ الامام أن فكرة السورة يجب ان تكون اساسا في فهم آياتها • والموضوع يجب ان يكون اساسا في فهم الآيات التي نزلت فيه • وكان هذا من اسباب رفضه كل تفسير لا يحقق وحدة الهدف والتناسق بين اجزاء السورة • فمثلا نراه

(١) كتاب النبا العظيم ، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٦٢ حاشية •

عند الكلام على تفسير الرزق في قوله تعالى : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » يقول : « قالوا (١) كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف . والله لم يقل ذلك ، ولا قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا هو مما يعرف بالرأى ، والتاريخ المعتمد به لم يثبت . والروايات عن مفسري السلف متعارضة » . ويستمر في تفسير الرزق في الجملة التالية « ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » فيقول : وأنت ترى (٢) انه لا دليل في الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات واسناد المؤمنين الأمر الى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث .

ويبسط السيد رشيد رضا الفكرة ويشرحها حين يقول : قال الأستاذ الامام ما مثاله مبسوطا : « ان القرآن نزل سائغا يسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب في الدفاع عن شيء خلاف الظاهر . فعلينا ألا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل القصة من خوارق العادات . والبحث عن الرزق ما هو ومن أين جاء فضول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة . ولو علم الله أن في بيانه خيرا لنا لبينه . أما ما سيقى القصة لأجله وهو الذي يجب أن نبحت فيه ونستخرج العبرة من قوادمه وخوافيه ، فهو تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ودحض شبهة أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب اسرائيل ، وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر .

(١) تفسير المنار - الجزء الثالث من ٢٦٢ .

(٢) نفس المرجع .

وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها الوجدانية ، وتقدير عقيدة البعث والجزاء ، وعقيدة الوحي والأنبياء . وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وانزال الكتاب . ثم كانت الآيات من أولها الى هذه القصة أو قبيل هذه القصة في الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وإزالة الشبهات والأوهام في ذلك . ثم بين أن الإيمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة في الآخرة والفوز بالسعادة فيها إنما يكون باتباع رسوله ، وقفى على ذلك بهذه القصة التي تزيل شبهة المشركين وأهل الكتاب في رسالته وتردها على وجوههم .

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبو البشر ، وأن الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان وتمكينه هو وذريته من تسخيرها ، وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب . ومن اصطفاه نوح وجعله أبا البشر الثاني وجعل ذريته هم الباقين . ومن اصطفاه إبراهيم وآله على البشر ، فإن العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك ، فالأولون يفخرون بأنهم من ولد اسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، كما يفخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بني إسرائيل حفيد إبراهيم . فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر الى أنه هو الذي اصطفى هؤلاء بغير مزينة سبقت منهم تقتضى ذلك وتوجبها عليه . فإذا كان الأمر له في اصطفاؤه من يشاء من عباده ، وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم ، فما المانع له من اصطفاؤه محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك ؟ لا مانع من ذلك عند من يعقل ، وهذا بيان لوجه اتصال القصة بما قبلها من أول السورة .

ومن هذا المثل قصة مريم ، فان أمها اذا كانت قد ولدتها وهي عاقر على خلاف المعهود كما نقل . او يقال اذا كان قبول الأنثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله ، فلماذا لا يجوز أن يرسل الله محمدا من غير بنى اسرائيل على خلاف المعهود عندهم ؟ . ومثل هذا يقال في قصة زكريا عليه السلام الآتية ، ومن ذلك كله يعلم أن أعماله تعالى لا تأتي دائما على ما يعهد الناس ويألفون .

المدرسة التي تأثرت بالشيخ محمد عبده في مبدأ الوحدة

في السورة القرآنية

أولا - تلميذه النجيب فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت :

تناول فضيلته تفسير القرآن الكريم بطريقة لم يسبق اليها ، وقد حازت الرضا والاستحسان بين جميع الأوساط المهتمة بالدراسات القرآنية .

وهذا نموذج من تفسيره لسورة البقرة في مجلة رسالة الاسلام :

قال فضيلته : « ان السورة وحدة كاملة عنيت بأمرين اقتضتهما حالة المسلمين في المدينة : الأمر الأول : توجيه الدعوة الى بنى اسرائيل ويبدأ من قوله تعالى : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » .

الأمر الثاني : ما يجب على المسلمين ان يتخذوه أساسا في البر بأنفسهم وأمتهم ومجتمعهم ويبدأ بقوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة
وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى الباساء
والضراء وحين الياس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » •
البقرة/ ١٧٧ •

وشبه السورة بعقد توسطت جانبىه آية البر السابقة •

فالجانب الأول تناول أهل الكتاب وتذكير الله لهم بنعمته
واغراقه فرعون • وتذكيرهم بألوان العناد التى عملوها مثل اعتدائهم
فى السبت • وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله •
وبيان خطئهم فى زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس •

٢ - الجانب الآخر من حبات العقد تصوره آية البر وما بعدها
وهو الجانب الذى اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة عن غيرها
فى عبادتها ومعاملاتها •

فتحدث هذا الجانب عن التشريع الإسلامى الذى ينظم حياة
المسلمين فى المدينة مثل نظام الأسرة والصيام والحج والقصاص
والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا وكتابة الدين •

وقد مهدت السورة أمام هذين الغرضين بأمور ثلاثة :

(أ) بيان طوائف الناس أمام القرآن •

(ب) بيان أصول الدين عند الله •

(ج) قصة الخلق وآدم عليه السلام •

وختمت السورة موضوعيها ببيان الدعوة المحمدية فى قوله
تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن
بالله وملائكته وكتبه ورسمه لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا
سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » •

ويعلق فضيلته على توضيحه هدفى السورة بقوله : « هذه حبات جانبى العقد الذى ينتظم موضوعات سورة البقرة التى جاءت آية البر واسطة لها نسردها على هذا النحو بين يدى تفسيرنا لهذه الآية التى اخترناها لهذا العدد من « رسالة الاسلام » وقد سلطنا بهذا الصنيع سبيلا غير التى ألفها الناس فى التفسير لنضع بين يدى القارئ الموضوعات التى عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية . والموضوعات التى عرضت لها فيما بعدها فى سلك واحد يجمع حبات كل جانب ، ويعطى الناظر اليه صورة كاملة لجميع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة وتعينه على الرجوع بكل مسألة فيها الى نوعها وغرضها التى ترتبط فيه مع زميلاتها .

ثانيا - فضيلة الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز :

كان فضيلته - رحمة الله عليه - مؤمنا بالوحدة المعنوية لكل سورة من سور القرآن . برغم أن السورة كانت تنزل منجمة مقسطة . وفى أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة وبين أجزائها عناصر معنوية مختلفة .

« ومع هذا سبكتها واحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها ان تنال شيئا من استقامة النظم فى السورة المؤلفة على هذا النهج ؟

« أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بل مغمزا لغامز ، لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم . وأما البلغاء من بعدهم فمازلنا نسمعهم يضربون الأمثال فى جودة السبك واحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن الى فن .

« وأما انت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف
بأى يد وضع بنيانه ؟ وعلى أى عين صنع نظامه ؟ حتى كان كما
وصفه الله « قرآنا عربيا غير ذى عوج » (١) اعمد الى سورة من
تلك السور التى تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها فى القرآن،
فبى جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع
البصر كرتين : كيف بدئت ، وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها
وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها
بنتائجها ووطأت أولها لأخرها ؟

وانا لك زعيم بأنك لن تجد البتة فى نظام معانيها أو مبانيها
ما تعرف به اكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى
نجوم شتى .

ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد
نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها
أو جلها نزلت نجوما « (٢) .

ثم يضرب مثلا لذلك باطول سورة فى القرآن وهى سورة
البقرة ليبين أنها وحدة معنوية مرتبط بعضها ببعض فيقول :

« نظام عقد المعانى فى سورة البقرة » .

« اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحداتها من مقدمة
وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب :

(المقدمة) فى التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه

(١) الآية ٢٨ من سورة الزمر .

(٢) النبأ العظيم - للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٧٢ -

من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم .
انما يعرض عنه من لا قلب له ، او من كان في قلبه مرض .

(المقصد الأول) في دعوة الناس كافة الى اعتناق الاسلام .

(المقصد الثاني) في دعوة اهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك
باطلهم والدخول في هذا الدين الحق .

(المقصد الثالث) في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا .

(المقصد الرابع) ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث
على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها .

(الخاتمة) في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة
لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم « (١) » .

ثالثا - فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد محمد المدني .

يرى فضيلته « ان لكل سورة روحا يسرى في آياتها ويسيطر
على مبادئها واحكامها وتوجيهاتها واسلوبها » (٢) .

ونرى من عرضه الاجمالي لسورة النساء أن لها هدفا ترمى
الى تحقيقه وهو « توضيح معالم المجتمع الاسلامي وتبيين الخطوط
المكونة لصورته والميزة للامحة وقسماته على الوجه الذي
يسعده ويرد عنه غوائل الشر وعوامل الفساد » (٣) .

وفي نهاية عرضه الاجمالي للسورة الذي يتبين منه وحدتها
وتناسقها برغم ما يتخلل ذلك من استطراد مناسب يقول : « هذا

(١) النبا العظيم - المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٨٥ .

(٢) المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء - ص ٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .

عرض اجمالاً لما تضمنته سورة النساء من الأحكام والمبادئ،
والوصايا ، وكلها ذات صلة وثيقة بشأن المجتمع ، ووضع الأسس
التي يجب أن يقوم عليها .

ويمكننا أن نرد ذلك - إذا أردنا إيجاز أكبر - إلى الأمور
الآتية :

١ - اعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيداً لإقامة المجتمع
على أساسه .

٢ - حقوق النساء ، واليتامى ، والسفهاء .

٣ - أحكام الموارث .

٤ - أحكام الزوجية وما يتصل بها .

٥ - التضامن الاجتماعي في ظل التوحيد والخلق الكريم .

٦ - أساس الحكومة الإسلامية .

٧ - التحذير من أهل النفاق والكفر ، ومن الأعداء الذين
يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حروباً مادية
ومعنوية .

٨ - إرسال الرسل شأن الهى ، وليس محمد بدعا من
الرسل .

٩ - إقامة الحجة على من يزعمون التثليث ، وإثبات أن الله
واحد ، وأن المسيح ما هو إلا عبد الله .

١٠ - الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة إلى الناس
أجمعين « (١) » .

(١) المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء - ص ٤٢ .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن الأستاذ الامام محمد عبده ،
كان رائدا من رواد النهضة الاسلامية ، وقائد مدرسة اهتمت
بالقرآن الكريم كمصدر اساسي للتوجيه والمعرفة . ورات أن
الوحدة في السورة لا تقل اهمية عن جمع المصحف في كتاب واحد ،
فهذه حفظته من الضياع ، وتلك حمته من هجمات الأعداء ، وبينت
أن للسورة منه روحا عامة تسيطر عليها وترمى من ورائها الى
احياء روح المجتمع الاسلامي واحكام بنائه . كيف لا والقرآن
روح من عند الله ، قال سبحانه : « وكذلك أوحينا اليك روحا
من أمرنا » الشورى/ ٥٢ .

الاساس الثانى عموم القرآن وشموله

١ - « معانى القرآن عامة وشاملة وارشاده مستمر الى يوم القيامة فلا يحمل وعظه ووعدده ووعيده على أشخاص بعينهم . »
وانما نيط وعده ووعيده وتبشيره وانذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التى توجد فى الأمم والشعوب « (١) » . وهذه
ميزة واضحة اختص بها القرآن الكريم من بين الكتب السماوية .
فكل كتاب نزل الى قوم بعينهم ، ولزمن معين ، وشمل التغير والتبدل كثيرا من هذه الكتب .

أما القرآن الكريم فهو كتاب الاسلام . وهو دعوة عامة للناس جميعا « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وهو دستور باق ، وتشريع مستمر باستمرار حاجة الناس الى التشريع . وقد تكفل بحفظه السميع البصير فقال سبحانه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » الحجر/٩ .

وكثيرا ما كان يتوسع الأستاذ الامام فى معنى الآيات او يحمل النظر على النظر ليطبق القرآن على ما هو واقع بين الناس . فهو

(١) تفسير المنار ج١ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

اذ يفسر الآيات الواردة في صفات المنافقين من أول سورة البقرة يطبق هذه الصفات على المنافقين في عصرنا وفي كل عصر « فلا يفترن أحد بقول بعض المفسرين ان هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) فيتوهم انها لا تتناوله وان كانت منطبقة عليه ، لأنه لم يتخذ القرآن اماداً وهادياً . ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له بل اكتفى عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه في كل ما هم فيه » .

٢ - والأستاذ الامام بهذا يريد أن يجعل من القرآن دروساً يحثيها المسلمون وآداباً يترجمونها في أفعالهم وأحوالهم ، فهو يقول في تفسير سورة الشرح عند آية « (ان مع العسر يسراً) » . « وكان هذه الآية عبرة لهذه الأمة وكان عليها ان تعرف ان مع العسر يسراً وأن وعد الله في هذه الآية حق وان تقتدى بنبيها في طلب الوسائل للخلاص مما هي وعندها كتاب الله وحده هداية للمهتدي وقدوة للمقتدي ، ولما كانت القضية موضعاً للريب خصوصاً عند من اخذ الضيق بخناقه أكدت بـ « ان » . ولما كان الشك يزداد بل قد ينتهي الى الإنكار في بعض انواع العسر ، استأنف القضية نفسها واعادها بلفظها فقال « (ان مع العسر يسراً) » ولكن على ان يكون معناها اعم من معنى سابقتها .

ولا يفوت الأستاذ الامام ان يدفع شبهة من اذهان بعض من يسمع هذا الكلام ، فيقول : « قد تقع أهم أو أشخاص في ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق ، ثم يجدون الضعف من همهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه اعقابهم . فأين اليسر الذي يصحب العسر عند هؤلاء ؟ » . ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود كالمرض الطويل المفضي الى الموت ، وكالزمانة التي تصحب الزمن من أول حياته الى

مماثله . فأى يسر جاء مع عسرها ؟ فجاءت هذه الآية المستأنفة
 لرفع هذا الاشتباه في عموم السنة الالهية ، وذلك أن أولئك الذين
 استعملوا ما وهبهم الله من القوى للخلاص مما ينزل بهم إذا كان
 مما يمكن كشفه . لا ريب في كشف العسر عنهم بنوع من أنواع
 اليسر كما وقع للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه . أما الآخرون
 الذين لا بصيرة عندهم في تصريف تلك المواهب الالهية بل يطلبون
 أن ينتهوا الى الغايات بغير بدايات ، وأن يصلوا الى المقصد بغير
 وسيلة فلا يستعملون عقولهم ولا عزائمهم في دفع ما يحل بهم .
 وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليه - هؤلاء يحسون
 بالألم حيناً ثم تخنس نفوسهم وتقع في حجر الاستكانة وتستقر فيها
 طمانينة الرضا بما غمرها من الضر فتسلب الاحساس به ،
 ثم إذا طال بها الزمن تحول فيه الألم الى لذة بالمعتاد ، ولا عجب
 من تحول الألم الى لذة فانك تراه في شارب الدخان ، مثلاً يآلم
 الأول مرة بل قد يأخذه الدوار وأشد آلام الصداغ ثم ما يلبث أن
 يكون عادة مرغوبة يآلم أشد الألم لتركها . ومن هذا نجد الأمم
 التي تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد الفت ذلك حتى صار
 يصعب عليها أن تحتل غيره ، ولا تزال تحن اليه . وكلما طلب
 إبعادها عنه اندفعت بالاقبال عليه فهذا نوع من اليسر ، وإن
 كان أشأم من العسر ، ولكن اليست النفس راضية له مطمئنة
 اليه ؟ أما المرض الطويل الممتد الى الموت والزمانة مما لا يمكن
 كشفه فلك أن تقول انه لا يدخل في أنواع العسر التي شملها استغراق
 العهد فان الاستغراق للعسر والضيق المعهودين ، وهما ما يمر
 بالخاطر إذا وقع الحديث على العسر أو الضيق وذلك هو الأنواع
 التي ذكرناها في تفسير الآية السابقة «**فإن مع العسر يسراً**»
 وبالجمله فالعسر الداخل في الاستغراق هو كل ما تجد النفس ألم
 الوقوع فيه وتنزع الى طلب الخلاص منه بالوسائل التي سننها

الله لذلك الخلاص ، ولا ريب في أن كل عسر من هذا القبيل معه يسر يسوقه الله الى العامل الآمل العاقل ، جزاء عمله لتحقيق امله ، واستعماله لموهبة عقله ، أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخلان في نحو قوله : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وكذلك يقال في عارض يعرض للأمة اذا حم هلاكها كزلزال ونحوه والله اعلم ، وتنكير اليسر لأن الذي يأتي بعد العسر أى نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين ، والتعبير بالمعية لتوثيق الآمل بأنه لابد منه كأنه معه . اذا علمت أن مع العسر يسرا فاعلم أن مع التعب في العمل النافع راحة « فإذا فرغت » من عمل من أعمالك النافعة لك ولأمتك « فانصب » أى خذ في عمل آخر واتعب فيه فانك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل « وإلى ربك فارغب » أى لا ترغب الى أحد في استثمار أعمالك الا الى الله وحده « (١) » .

٣ - والأستاذ الامام يطبق في تفسيره القاعدة المشهورة « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » كلما وجد الى ذلك سبيلا ، ففي تفسيره لقوله تعالى : « فائذتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقي الذي كذب وتولى » ، وسيجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى » .

يرى ان الأشقي جنس عام يشمل كل مذنب احاطت به خطيئته ، وكل مؤمن ضعف ايمانه فارتكب المعاصي التي لا يرتكبها وهو مؤمن . وكذلك يتوسع في معنى الأتقى ليشمل كل أفراد المستقيمين فعلا . أو الراجعين الى الله بعد ذنوب اقلعوا عنها وندموا عليها واستقاموا فعلا على جادة الحق . وبتفسير الأتقى والأشقي

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٧ .

على النحو الذي سمعته تبطل تلك الاشكالات التي أوردتها المفسرون في الحصر - وما أشكل عليهم الا تقيدهم بالعادة في استعمال الفاظ « كذب وتولي » . وتحكيمهم عاداتهم واصطلاحاتهم التي وضعوها من عند انفسهم لأنفسهم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . ثم انهم يوردون هنا اسبابا للنزول ومن الآيات نزلت في سيدنا أبي بكر رضى الله عنه لأنه اشترى من ارقاء المسلمين مائة وعاشقهم من ماله لا يبتغي في ذلك الا وجه الله . ورووا غير ذلك وقالوا ان « الأشقي » هو أمية بن خلف ، وقيل غير ذلك ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع ولكن معنى الآيات لا يزال عاما كما رأيت والله أعلم « (١) » .

والأستاذ الامام بسلوكه هذا المسلك في تفسير القرآن يؤكد معنى العموم والشمول لآيات الله الحكيم . وأنه كتاب البشرية الخالد ومصباح الهداية ومنار الاسترشاد وفيه علاج المجتمع ، وشفاء ورحمة للمؤمنين ، من قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . لم تسمعه الجن حتى قالت : « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشاد فأما به ولن نشارك بربنا احدا » (٢) .

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٧ .
(٢) سورة الجن آية (١) و (٢) .

الأساس الثالث

القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع

ينهج الأستاذ الامام في تفسيره على اعتبار القرآن الكريم الأصل الأول من أصول التشريع . والاعتماد عليه أولا عند تقنين أى حكم من الأحكام .

وهو يتبع بذلك خطة النبي صلى الله عليه وسلم حين أرسل معاذ الى اليمن . وسأله الرسول صلى الله عليه وسلم « ماذا تصنع ان عرض لك قضاء . قال أنظر حكمه في كتاب الله . قال فان لم تجد ؟ قال : أنظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله » (١) .

والأستاذ الامام بهذا يرد للقرآن وضعه الطبيعي في التشريع وينبه المقلدين الى غفلتهم عن مصادر التشريع الأولى وغرقهم في

(١) رواه ابو داود والترمذي والدرامي .

حماة التقليد - حتى كتب أحد شراح الحديث يقول في شرحه : هذا الحديث ليس على مذهب الشافعية . مع أن الشافعي رضى الله عنه يقول : « اذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط » .

ويرى الأستاذ الامام ان الأئمة المجتهدين مأجورون في اجتهادهم ولكن هذا لا يبيح لنا أن نقدم رأيهم على القرآن الكريم . ولذلك نراه يسخر من بعض المفسرين الذين يعتبرون بعض آيات من القرآن مشكلة لأنها لم توافق آراء المذاهب .

وقد اعتمد - رحمه الله - على القرآن وحده في اباحة التيمم للمسافر مع قدرته على استعمال الماء . بخالفا في ذلك جميع المذاهب . واعتمد على قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا جنبا الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفوا غفورا » (١) .

قال الأستاذ الامام - مؤكدا جواز التيمم للمسافر - عند تعليقه على تفسيره هذه الآية : « المعنى أن حكم المريض والمسافر اذا أراد الصلاة حكم المحدث حدثا أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط . هذا ما يفهمه القارئ من الآية نفسها اذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن يجعلها بالتكلف حجة له منطبقة عليه » . وقد طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيراً فلم أجدها فيها غناء . ولا رأيت قولاً يسلم من التكلف ، ثم رجعت الى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحاً

(١) سورة النساء آية ٥٧ .

جليليا ، فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظوره وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية مفرداتها واساليبها الى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظي احكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة الى آخر ما اطال به في الإنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقا ظاهرا سالما من الركاكة « (١) » .

وقد شايعه في طريقته تلميذه السيد الأستاذ رشيد رضا ، فقال معلقا على كلام استاذة « واذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيراً رجاء أن يجد فيها قولا لا تكلف فيه ، فانا لم أراجع عند كتابة تفسيرها الا روح المعاني وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفاً وصاحبه واسع الاطلاع » فاذا به يقول : « الآية من معضلات القرآن » والله ان الآية ليست معضلة ولا مشكلة ، وليس في القرآن معضلات الا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات وعند من اتخذوا المذاهب المحدثه بعد القرآن اصولا للدين يعرضون القرآن عليها عرضا ، فاذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا ، والا عدوها من المشكلات والمعضلات ، على أن القاعدة القطعية المعروفة بمن أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم وعن خلفائه الراشدين رضى الله عنهم أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلتمس فيه أولا فان وجد فيه يؤخذ وعليه يعول ولا يحتاج معه الى مأخذ آخر ، وان لم يوجد التمس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا أقر النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً حين أرسله الى اليمن ، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين ، وقد رأى القارىء أن معنى الآية واضح في نفسه ولا تكلف فيه ولا اشكال والله الحمد .

(١) تفسير المنار - ج ٥ - ص ١١٩ .

سيقول ادعياء العلم من المقلدين : نعم ان الآية واضحة المعنى كاملة البلاغة على الوجه الذي قررتم ، ولكنها تقتضى ان التيمم في السفر جائز ولو مع وجود الماء وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا . فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين ويعقل أن يخالفونا من غير معارض لظاهرها أرجعوها اليه . ولنا ان نقول لمثل هؤلاء - وان كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له - وكيف يعقل أن يكون ابلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلا مشكلا ؟ وأي الأمرين أولى بالترجيح : الطعن ببلاغة القرآن وبيانه لحمله على كلام الفقهاء ام تجويز الخطأ على الفقهاء . لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف وهو الموافق للتميم مع غيره من رخص السفر التي منها قصر الصلاة وجمعها وإباحة الفطر في رمضان . فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء وما دون الصلاة والصيام في نظر الدين ؟

ليس من المجرب أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواحد للماء في هذا الزمان الذي سهلت فيه أسباب السفر في قطارات السكك الحديدية والبواخر ؟ أفلا يتصور المنصف أن المشقة فيها أشد على المسافرين على ظهور الابل في مفاوز الحجاز وجبالها ؟ هل يقول منصف ان صلاة الظهر أو العصر أربعاً في السفر أسهل من الغسل أو الوضوء فيه ؟ السفر مظنة المشقة يشق فيه غالباً كل ما يؤتى في الحضر بسهولة ، واشق ما يشق فيه الغسل والوضوء وان كان الماء حاضراً مستغنى عنه «(١)» .

من هذا العرض يتبين لنا أن الأستاذ الامام يرى أن القرآن

(١) تفسير المنار - الجزء الخامس ص ١٢١ .

الكريم أصل التشريع ويليه السنة المطهرة ، وعليهما المول ان
اختلفت الآراء أو تعددت المذاهب .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول
ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) .

وطاعة الله تكون بتحكيم كتابه ، وطاعة الرسول بالتزام
سنته ، وأولو الأمر هم أصحاب الراى من العلماء والأئمة
المجتهدين .

فان وقع خلاف فلن يكون في امر الله ولا في أمر رسول الله
انما يكون الخلاف في آراء الفقهاء وأقوال العلماء . واذا وقع
الخلاف فلنرده الى الأصلين الثابتين وهما : كتاب الله وسنة رسول
الله . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « تركت
فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وسنتي » .

ومما ينبغى مراعاته في هذا المقام أن الفقه الاسلامى قد مر
بمراحل يمر بها الكائن الحى وهى عصر النشأة . وعصر الشباب .
وعصر النضوج والكمال . واخيرا عصر التقليد .

وفي عصر التقليد التزم الفقهاء مذاهب ائمتهم وتمسكوا بها .
بل حملوا القرآن عليها . فحمل صاحب المنار ومن قبله الأستاذ
الامام على التفاسير السابقة التى تقدم آراء المذاهب على كتاب الله ،
وتريد أن تؤول القرآن بما يوافق آراء شيوخهم وأصحاب مذاهبهم .
وبينا أن القرآن امام غير مأموم ، وحاكم غير محكوم وصدق
الله العظيم : « ومن أصدق من الله قيلا » .

❏ سورة النساء الآية ٩٥ .

الأساس الرابع

مخاربة التقليد

يذم الأستاذ الامام التقليد في تفكير المسلم المتأخر ويوجب الرجوع الى فهم المسلمين الأولين للقرآن .

١ - فلا يترك الأستاذ الامام آية من آيات القرآن تدم اتباع الآباء السابقين من غير تفكير . مثل قوله تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما آلفينا عليه آباءنا » أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » البقرة/ ١٧٠ الا ويلحق بهذا النوع من التقليد العلماء الذين يصرحون بأنهم مقلدون لا يلزمهم النظر في الكتاب والسنة ، بل يعتمدون على ما كتب غيرهم في الفقه ويدينون لكتب المقدمين على تعارضها وتناقضها ، ويكتفون بقولهم وكلهم من رسول الله ملتمس .

وفي تفسيره لقوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » البقرة/ ١١١ .

نراه يستدل بأخر هذه الآية على أن « القرآن علم أهله أن يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة » . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه اليه . وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح . « قالوا بالدليل » وطالبوا بالدليل ونهوا

عن الأخذ بشيء من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد . حتى كأن الاسلام خرج عن حده ، أو انقلب الى ضده ، وصار الذين يعلمون أن الاسلام امتياز عن سائر الأديان بإبطال التقليد ، وبالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم الناس استقلال الفكر ، مع المشاورة في الأمر . يطالبون المسلمين بالرجوع الى الدليل ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل . وياليتهم كان الأخذ بقول الله ، وقيل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الأخذ يقال فلان وقيل عن علان (١) ٥٣ : ٢٣ « ان هي الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٢) النجم / ٢٣ .

٢ - وقد كان الأستاذ الامام متأثرا في ذلك بحالة المسلمين الراهنة وما أصابهم من ضعف سياسي وضعف في الثقافة الاسلامية الموروثة التي أصق بها من عوامل الضعف والتقليد ما جعلها عاجزة عن أن تواجه تيار الحياة المتجدد . وعاجزة عن أن تواجه الحياة الحديثة في أسلوبها وأن تلأثم بين أحداثها وتعاليم الاسلام . بينما كان لطوافه في اوربا واطلاعه على نهضة القوم وإيجابيتهم في الحياة واتباعهم المنهج العلمي الحديث في البحث والمقارنة والاستنتاج أثره في دعوته المسلمين في كل مناسبة الى ترك التقليد واحترام عقولهم والاعتماد عليها في الفهم والاستنتاج والاستنباط . وهو لذلك يدعو العلماء الى الاعتماد على كتب القرون المتوسطة كالقرن الثالث والرابع الهجري .

وعدم الاعتماد على كتب القرون المتأخرة التي الفت في عهد الضعف السياسي والفكري ويضرب مثلا فيقول : « هذا الشوكاني

(١) المنار الجزء الاول ص ٢٢٤ .

(٢) هذه الآية في المنار ج٦ ص ٩٥٢ .

لما كسر قيود التقليد الأعمى . حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفتيا . . ان حالة الفقهاء هي التي ضيقت الدين . ان الناس تعرض لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها في الكتب فهل يوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟

هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الأحكام الشرعية ولجئوا الى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص فاضطر الناس الى الاستدانة من الأجانب بآرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب . والفقهاء هم المسؤولون عند الله عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة للشرعية ، لأنه كان يجب أن يعرفوا حالة العصر والزمان ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (أى كالأحكام الضرورية) لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ويتركون لأجلها كل شيء .

يقرأون الأصول ولا يخطر ببال أحد منهم ان يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله أو يبحث عن دليله . بل لم يخجلوا ان يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر في الكتاب والسنة (١) .

٣ - وقد كان تفسير الأستاذ الامام للقرآن الكريم محاولة موفقة لظهور هذا التراث الاسلامي مساهرا للتطور موافقا لحاجات الناس في كل زمان ومكان .

فالاسلام قد تميز عن الأديان السابقة بأن كل دين كان خاصا بفئة من الناس ، ولادة من الزمن ، أما الاسلام فهو رسالة البشرية

(١) تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده - الجزء الاول الطبعة الاولى - في مطبعة المنار - ص ٩٤٤ و ٩٤٥ .

كافة « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » « وما أرسلناك إلا رحمة للظالمين » .

وهو رسالة خالدة باقية قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وحفظ الكتاب لا يكون حفظ رسمه وآياته . بل من الحفظ أن يحفظ معانيه وأوامره لتناسب حال الناس . ولا يكون ذلك إلا بحسن الفهم له بما يناسب أوامر الله ومصالح المسلمين .

وقد كرر دعوته الى الاجتهاد . ومحاربة التقليد في غير مرة بل بمناسبة وبغير مناسبة فنراه في تفسير آخر سورة « عبس » وتولى « رغم أنه ليس فيها مناسبة للدم التقليد — فقد تحدثت السورة عن صنفين من الناس في يوم القيامة قال تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، وجوه يومئذ عليها غبرة كرهقهة قفرة » يقول الأستاذ الامام معلقا على تفسير هذه الآية :

« فمن كان في هذه الحياة الدنيا طالبا للحق ناظرا في الدليل لا تحجبه عن الاعتبار غفلة ولا تأخذه عن الحق اذا ذكر به انفة ولا تنفره منه عادة ، ولا تباعده عنه ألفة ، فهو لا يعقد لنفسه عقيدة ، الا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ، ليس رأى فلان ، او قيل سابق في زمان . الا قول رسول كريم قامت على عصمته براهن يقبلها العقل السليم ، ويؤيدها الذكر الحكيم . ثم أخذ نفسه بالعمل على ما يطابق عقيدته ، فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق من كان هذا شأنه في حياته هذه فما الذي يلاقيه اذا جاءت الصاخة . . ان وجهه يتهلل ويسفر ويضحك ويستبشر . »

وأما من احتقر عقله ، ورضى جهله وصرفه عن الدليل ما أخذه
عن آبائه ، وتلقاه عن سلفه ورؤسائه .. فإنه يوم القيامة تعلق
وجهه الغبرة وتغشاها الفترة لأنه من الكفرة الفجرة « (١) » .

٤ - وقد حارب الأستاذ الامام هذه الفكرة التي شاعت بين
الناس والوهم الذي انتشر بينهم ، من أن باب الاجتهاد قد أغلق
من قرون واقتصر اجتهاد الفقهاء على ترجيح بعض أقوال السابقين
على بعض فهو اجتهاد مقفل داخل مذهب معين وتفكير معين .

حمل الأستاذ الامام على هذا الوهم حملات متعددة بددت
فيالقه وأضعفت قيمته . وبين أن باب الاجتهاد مفتوح الى يوم
القيامة بشرط أن يتوفر في المجتهد أو المستنبط الشروط التي نص
عليها في كتب الأصول « وآمن الامام بأن للانسان وجودا ذاتيا
وكيانا مستقلا في هذا العالم ويستتبع ايمانه بوجوده الذاتي ،
اقرار امكانه على فهم الكتاب المنزل والتفقه على اساس منه « (٢) » .
ومن أسباب ثورة الأستاذ الامام على التقليد وندائه بضرورة الاجتهاد
« أن الحياة الانسانية للمجتمع الانساني حياة متطورة ويجد فيها
من الأحداث والمعاملات اليوم ما لا يعرفه امس هذه الجماعة .
والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة
وتعاليم الاسلام . ولو وقف الأمر بتعاليم الاسلام عند حد تفقه
الائمة السابقين لسارت الحياة الانسانية في الجماعة الاسلامية في
عزلة عن التوجيه الاسلامي . وبقيت أحداث هذه الحياة في بعد عن
تجديد الاسلام اياها . وهذا الوضع يخرج المسلمين في اسلامهم
كما يخرجهم في حياتهم « (٣) » .

(١) تفسير جزء عم ص ٢٤ .

(٢) الفكر الاسلامي الحديث : للدكتور محمد البهي ص ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٧ .

هـ - على أن الحرب التي شنها الاستاذ الامام على التقليد وترك الاجتهاد لم يكن مبتدعا لها بل كان مسبوقا فيها بأئمة مجددین ودعاة مصلحين هالهم حال العالم الاسلامي وعملوا على النهوض به وتحرير عقول اهله من خرافة قفل باب الاجتهاد .

وكان من هؤلاء ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، اللذان حملا على المذاهب الفقهية حملة شعواء لأنها تدور حول باب مقفل وبينوا أن الاستنباط يجب أن يؤخذ من الكتاب والسنة وما عدا ذلك « فهم رجال ونحن رجال » .

وقد سار على نهجه في حرب التقليد تلميذه المخلص وحامل فكرته من بعده السيد الاستاذ رشيد رضا . فدعا الى الاجتهاد وحارب التقليد في كثير من مواضع تفسيره العظيم . وشبه المقلدين من المسلمين لشييوخهم بالمقلدين من اهل الكتاب لأئمتهم واتباعهم فيما يحلون ويحرمون .

فعند تفسير الجزء الأخير من قوله تعالى : « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله » آل عمران/ ٦٤ .

يقول في تفسيره :

« فالرب هو السيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى : والمراد من له حق التشريع والتحليل والتحريم كما ورد في حديث عدي بن حاتم قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعه يقرأ سورة براءة (٨ : ٣١) « اتخلوا احيارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » : « فقلت : يا رسول لم يكونوا يعبدونهم ، فقال : اليس يحرمون ما أحل الله فيحرمون ؟ ويحلون ما حرم الله

فيحلون ؟ فقلت : بلى « . وسئل حذيفة رضى الله عنه عن الآية
فاجاب بمثل ذلك .

« قال الأستاذ الامام : كان اليهود موحدين ولكن كان عندهم
شئ هو منبع شقائهم في كل حين وهو اتباع رؤساء الدين فيما
يقررونه وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من الله تعالى ، وجرى
النصارى على ذلك وزادوا مسألة الغفران وهي مسألة تفاقم امرها
في بعض الأزمان حتى ابتلعت بها الكنائس أكثر املاك الناس ، ومن
الغلو فيها ولدت مسألة البروتستانت اذ قاموا فقالوا هلم بنا
نترك هؤلاء الأرباب من دون الله وتأخذ الدين من كتابه لا نشرك معه
في ذلك قول أحد .

« قال الفخر الرازى بعد ما نقل حديث عدى في تفسير
الآية :

« قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه
قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من
كتاب الله تعالى في بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك
الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون الى
كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن
الرواية عن سلفنا وردت على خلافها . ولو تأملت حق التأمل وجدت
هذا الداء ساريا في عروق الاكثرين من أهل الدنيا « .

قال السيد رشيد رضا . معلقا عن كلام الفخر الرازى :

« ان شيخه رحمه الله كان مجتهدا بحق ، اما هو فعلى توسعه
في فن الاستدلال يؤمن بالمذهب تارة بالتأويل والجدل ويستقل
بالاستدلال أخرى . وقد جاء بعد شيخه كثير من المجتهدين مثله .
ولكن كثرة المقلدين وتأييد الحكام لهم قد نصر باطلهم على حق أولئك
الائمة . ولولا الحكام الجاهلون والأوقاف التى وقفت على لقبه

المذاهب لم يتفرق المسلمون في دينهم شيئا حتى صدق عليهم ماورد
في اهل الكتاب قبلهم الا من هده الله ووفقه لا يثار كتاب الله
وسنة رسوله على كل شيء « (١) » .

وانت ترى ان الأستاذ الامام جعل من تفسيره للقرآن الكريم
منبرا يدعو فيه احرار العلماء الى اعمال عقولهم والتفكير فيما
يصلح اهل زمانهم ومحاورة التقليد الذي يؤدي بالمسلم الى ان يكون
شخصا سلبيا في الحياة يقوم علمه على ترديد آراء السابقين
وبنتهى مجهوده الى نقل كلام المتقدمين مع ان العلم ليس وقفا على
متقدم ، ولا حبسا على السابقين بل ربما اتى الأواخر بما لم يتهيا
مثله للأوائل .

والقرآن الكريم دستور المسلمين ، وحياتهم متجددة ، وتطرا
في أزمانهم احداث لم تكن عند السابقين « وذلك يوجب على العلماء
ان تكون لهم جمعيات يتدارسون فيها أمور الدين ويعملون أحكامه .
واذا كان بعض الأحكام قد رجع لظروف خاصة فيجب ان
يذكروا ذلك » (٢) .

وفي منظومة فنية تدرس في الأزهر تقرأ هذا البيت :

اذ كل من قلده في التوحيد ايمانه لم يخل من ترديده

٦ - وقد كان الامام مصلحا ومجتهدا . فراعى المصلحة
العامة في تفسيره للقرآن الكريم وفي فتاويه العامة وطالب الحكام
وأولى الأمر والفقهاء برعاية مصالح الناس في أحكامهم وفتاويهم .
وبين لهم أن المصلحة العامة اصل في الأحكام السياسية
والمدنية يرجع اليه في غير تحليل المحرمات أو ابطال الواجبات .

(١) المنار ج ٨ ص ٩١٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ص ٩٤٥ .

وطالب القضاة بأن تكون أحكامهم على وفق المصالح والمنافع
الوجودية .

وقد كان الامام مفتيا للديار المصرية ، ولكنه لم يقبل أن
يعيش بين المحابر والدفاتر فجاب البلاد المصرية ولمس علل الناس
ووصف الداء ، وشخص الدواء .

وطاف الامام بالمحاكم الشرعية ووضع تقريرا عنها نبه فيه
الحكام والقضاة الى تأليف لجنة من العلماء لاستخراج كتاب في
احكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر .
ولاسيما الأحكام التي هي من خصائص المحاكم الشرعية « ولا يعدل
فيه عن مذهب الحنفية الا في الأحكام التي لا تنطبق على مصلحة
الناس في هذا العصر اذا حكم فيها بمذهبهم ، وهذه حالة ضرورة
او حاجة تنزل منزلة الضرورة ، وبهذا الاعتبار يكون من مذهبهم
لأن الحكم الذي تمس اليه الحاجة او يضطر اليه يصير متفقا
عليه » (١) .

فالشريعة الاسلامية عامة باقية الى آخر الزمان ، ومن
لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان ، مهما
تغيرت أساليب العمران ، وشريعة هذا شأنها لا تنحصر جزئيات
أحكامها لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ، ولا يحيط بذلك علما
الا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذي جعل أساسها حفظ الدين
والنفس والعقل والعرض والمال ، اذ مصالح البشر في كل آن مبنية
على هذه الأشياء التي فيها السعادة في المعاش والمعاد . وقد
استخرج الأئمة والفقهاء رضي الله عنهم القواعد الكلية والأحكام

(١) وقد جرت الحكومة المصرية بعد ذلك على هذا الرأي . انظر تاريخ
الامام ١ ص ٦١٧ .

الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الأصول الخمسة ، ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ ، كما مر آنفا . وأن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر إذا ضاق اتسع ، وأن الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام . والضرر الأشد يزال بالأخف وأن الحاجة تنزل منزل الضرورة عامة أو خاصة ، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، وأن التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ، ومن فهم كلام أئمة الفقه حق فهمه الفاء لا يتعدى هذه القواعد « (١) » .

والقرآن الكريم يذكر في كثير من نصوصه أن أساس التشريع رفع الحرج واليسر بالناس قال تعالى :

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوان أن تميلوا ميلا عظيما » .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (٢) .

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .

وبينت الأحاديث الشريفة الأساس العام لرعاية المصلحة ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » « يسروا ولا تعسروا » « ان الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه » .

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج ا ص ٢١٤ .
(٢) سورة النساء : الايات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

« والسلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جروا على مراعاة المصالح فيما لا يحصى من المسائل . »

« ومن ذلك ان ابا بكر رضى الله عنه استخلف عمر مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف . وجمع صحف القرآن المتفرقة ولم يجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجارب ما نعى الزكاة ، ولم يكن لشرب الخمر حد مقدر فجعله اربعين . وعمر رضى الله عنه لم يستخلف كما استخلف ابو بكر وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم في الصدقات ، وهو ثابت بالنص . وأسقط حد السرقة عام المجاعة وهو منصوص . وكان يشاطر من يتهمة من الولاة في ماله لاختلاط أموالهم الخاصة بأموال استفادوها بسلطان الولاية . وقتل الجماعة بالواحد حين اشتركوا في قتله ، وأوقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا حين تتابع الناس فيه وكان يحسب واحدة قبله . وافتنى بتطليق زوجة المفقود بعد أربع سنين من فقده وانقطاع خبره . ومنع بيع أمهات الأولاد وترك التغريب في الزنا حين لحق أحد المغربين بالروم وتنصر ، ونفى ابن حجاج - وكان شابا جميلا - حين سمع بعض النساء يشجب بما يفريه . »

« وعثمان رضى الله عنه جمع المسلمين على مصحف واحد وأحرق ما عداه ، وورث زوجة المطلق الفار منه وتتابع الناس في شرب الخمر في زمنه فاستشار الصحابة في حد الشرب فقال : « من سكر هذى ومن هذى . افترى . فأرى عليه حد المفترين » فاتفقوا على جعله ثمانين . »

« واتفق الخلفاء على تضمين الصناع لتهاونهم فيما بأيديهم وحاجة الناس اليهم ، وقال على : « لا يصلح الناس الا ذاك » ، وغير ذلك كثير « (١) » .

(١) اصول التشريع الاسلامي للاستاذ على حسب الله ص ٨٥ .

وبين الإمام أن واجب الأحكام النظر في أحوال الناس واستنباط الأحكام التي تناسب حياتهم .

فإن لم يفعلوا ذلك قام العلماء بجمع هذه الأحكام وتقديمها للأحكام .

ويقول الإمام : « كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زمان ينبغي لهم لتنبيه على ذلك ، وأن هذا الحكم ليس عاما وإنما سببه كذا ، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان » (١) .

وقد رأى الإمام في رعاية المصلحة العامة تلميذه السيد رشيد رضا فذكر رعاية المصلحة في مواضع كثيرة من تفسير المنار .

يوجز الكلام عنها هنا ويبسط الكلام أحيانا وينقل كلام السابقين في المصالح المرسلة وينقده وينظمه ويعلق عليه .

كتب عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلیم » (٢) .

كتب معلقا على هذه الآية بحثا مستفيضا عن القياس والمصالح المرسلة استغرق ثلاثة وسبعين صفحة (٣) وهو يدل على كثرة

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٦٤٥ .

(٢) المائدة آية ١٠٥ .

(٣) من ص ١٢٠ - ٢٠٢ ج٧ : ومن المؤلف أن ترى في تفسير المنار مباحث قيمة متنوعة تناهز المائة صفحة . وتكاد تكون مستقلة عن التفسير .

المعلومات واستقصاء نقاط البحث والدقة التامة في مواضع معينة والاحاطة بآراء السابقين وافكارهم ومدى تأثير بعضهم في بعض .

وفي نهاية البحث نقل صاحب المنار كلام الشاطبي فقال تحت عنوان : « ما حرره الشاطبي في مسألة المصالح » (١) :

« وأما الشاطبي فانه جعل الباب الثامن من كتابه الاعتصام في التفرقة بين البدع والمصالح المرسله والاستحسان - فاما الاستحسان فاذا لم يرجع الى قياس صحيح او الى رعاية المصلحة فليس بشيء . واما المصالح المرسله فقد وافق الشاطبي الأصوليين على عدّها مما يسمونه المعنى المناسب ووضحها بعشرة امثلة منها :

١ - اتفاق الصحابة على كتابة القرآن في الصحف التي سمي مجموعها المصحف .

٢ - اتفاقهم على جلد شارب الخمر ثمانين جلدة - كذا قال .

٣ - قضاء الخلفاء الراشدين بتضمين الصناع . وقوله على رضى الله عنه في ذلك : لا يصلح الناس الا ذاك .

٤ - ما ذهب اليه بعض العلماء من الضرب في التهم ، وما ذهب اليه مالك من السجن في التهم ، مع ان السجن نوع من العذاب .

٥ - ما قرره ونقل مثله عن الغزالي وابن العربي من جواز وضع الامام العادل ضرائب واعانات مؤقتة عند الضرورة لتكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك ، اذا لم يوجد في بيت المال ما يفي بذلك .

٦ - اختلاف العلماء في العقاب على بعض الجنايات بأخذ المال .

(٢) تفسير المنار : ج ٧ ص ١٩٥ .

٧ - الزيادة على سد الرmq اذا تواتت ضرورة الأكل من المحرم كالميتة في المجاعات ، أو عم الحرام بلدا أو قطرا في جميع الأموال ، فحينئذ لا ينظر الى أصل المال . بل يؤخذ من الوجه الشرعي كما لو كان أصله حلالا . هذا ملخص معنى ما ذكره وعزى القول به الى ابن العربي وأحال في بسطه على الغزالي في الأحياء اى في كتاب الحلال والحرام من الجزء الثاني منه .

٨ - قتل الجماعة بالواحد . قال : والمستند فيه المصلحة المرسلة ، اذ لا نص على عين المسألة ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مذهب مالك والشافعي .

٩ - اقامة امام للمسلمين (خليفة) غير مجتهد في الشرع اذا فقد المجتهد على أن العلماء اتفقوا على أن الامامة الكبرى لا تنعقد الا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علم الشرع ، كما أنهم اتفقوا أو كادوا يتفقون على أن القضاء بين الناس لا يحصل الا لمن رقى في رتبة الاجتهاد . وهذه صحيح على الجملة . « ولكن اذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس وافتقروا الى امام يقدمونه لجريان الأحكام وتسكين ثورة الثائرين والحيطة على دماء المسلمين وأموالهم - فلا بد من اقامة الأمثل ممن ليس بمجتهد » .

ثم بين وجه ذلك وصرح بأنه لا يتجه الا على فرض خلو الزمان عن مجتهد ، وهذه مسألة فيها بحث ، وقد صرح المحققون بأنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد . وليس هذا محل بيان المسألة بل هو لا يتسع لتحقيق مسألة المثال المفروضة أيضا .

١٠ - بيععة من لم تتوفر فيه شروط الامامة ابتداء أو استدامتها بعد وجود الكفو لها كالقرشي المجتهد الخ خوفا من الفتنة وتفرق الكلمة . وقد ذكر من الشواهد على هذا المثال

مبايعة ابن عمر ليزيد ولعبد الملك بن مروان على كونهما من أئمة الجور واخذهما الملك بالسيف لا باختيار الأمة ، ونهى مالك عن الخروج على أبي جعفر المنصور . وفي هذه المسألة أبحاث من وجوه كثيرة فلا تؤخذ على إطلاقها ، وقد سبق في تفسير آية المحاربين (البغاة) قول وجيز فيها ، وإشارة الى بعض مسائلها ، منه أن تحريرها لا يمكن إلا بمصنف خاص ، ومنه أن الرأي الغالب على الأمم في هذا العصر أن المصلحة في الخروج على الملوك المستبدين الجائرين كما فعلت الأمة العثمانية إذ كانت قوة خرجت بنا على سلطانها عبد الحميد فسلبت السلطة منه وخلعت بفتوى من شيخ الاسلام فيها .

« ومن دقق النظر في الأمثلة التي أوردها الشاطبي لمسألة المصالح المرسله تبين له أن بعضها يدل عليه النصوص أو السنة العملية ، ومنها ما يدل عليه القياس . فمن الأول كتابة القرآن في مصحف يجمعه كله . فإن تسمية الله تعالى إياه كتابا يدل على وجوب كتابته ، واتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم الكتاب له يكتبون بأمره كل ما نزل في وقته يدل على ذلك . وسبب عدم جمع النبي صلى الله عليه وسلم له في المصحف ظاهر لا يحتاج الى إطالة الفكرة وهو احتمال المزيد في كل سورة مادام حيا . ولا يمكن أن يتصور أحد ولا أن يجد شبهة على كون كتابته في مصحف متفرقة هو مطلوب الشارع وإنما تلبث أبو بكر رضي الله عنه في الأمر أولا على عادة أهل الرواية في الأمور العظيمة .

وناهيك بأوائل الأعمال التي تعرض على أصحاب المناصب العليا في مناصبهم . ومن الثاني حد السكر قيل أنه قياس على القذف ، وقيل أنه تعزيز لا يجب التزام العدد فيه .

« والحق الجلى الظاهر هو أن مسائل المعاملات التى يرجع فيها الى الأحكام من قضائية وسياسية وحربية ترجع كلها الى الأصل الذى بينه حديث « لا ضرر ولا ضرار » أى رفع الضرر الفردى والمشترك ، ومنه أخذت قاعدة دفع المفسد وحفظ المصالح ، مع مراعاة ما علم من نصوص الشارع ومقاصده ، وأمثلة هذا فى أعمال الخلفاء الراشدين المالية والإدارية والحربية كثيرة جدا ، على أن جماهير الفقهاء يصرحون دائما بإرجاع جميع الأحكام الى القاعدة المذكورة آنفا ، فقواعد العز بن عبد السلام الشافعى المشهود له بالاجتهاد المطلق أكثرها يدل على هذه القاعدة .

« وإنما فر أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريرا صريحا مع اعتبارهم كلهم له — كما قال القرافى — خوفا من اتخاذ إثم الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم وارضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم ، فأروا أن يتقوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام الى النصوص ولو بضرب من الأقيسة الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلّة من أدق مسالك العلة فى القياس ، ولم ينوطوها باجتهاد الأمراء والأحكام . وهذا الخوف فى محله ولكنه لم يق الأمة من أهواء الأحكام كما ينبغى ، إذ كان يوجد فى عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهّد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى .

والطريقة المثلى لحفظ الحق وإقامة ميزان العدل ، هى رفع قواعد الحكم على الأساس الذى شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » لا بإنكار أصل المصالح ، ولا بالتضييق فى تفريع الأحكام عليها . فإذا نيط ذلك بأولى الأمر (أى أهل الحل والعقد) الذين ينصبون الإمام (الخليفة) لا يخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفسد ما يخشى منه فى حال إقرار كل متغلب على

الحكم مع التضييق في مسالك استنباط الأحكام ، الذى جرى عليه جماهير الفقهاء ، وانما مثار المفسد كلها أن يوسد الأمر غير أهله ، وأن يقر على الملك كل متغلب ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذى أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم .

نتيجة ما تقدم :

علم مما تقدم أن المسائل الدينية المحضة وهى العقائد والعبادات تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول أو العمل . على الوجه الذى كان عليه الصدر الأول من الصحابة ، فما اجمعوا عليه فلا عذر لأحد في مخالفته ، وما اختلفوا فيه ينظر في دلائله ويرجح بعضه على بعض ولا يلتفت الى الشذوذ ، ولا يجوز بحال من الأحوال أحداث عبادة جديدة أو الاتيان بعبادة ماثورة على غير الوجه الذى كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أصحابه رضى الله عنهم لا بقياس ، ولا بدعوى اجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة ، ولا بغير ذلك من العلل والنظريات ، لأن الله تعالى قد اكمل الدين اصوله وفروعه بكتابه وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم وأخذنا أن ما سكنت عنه فهو عفو منه سبحانه ، فمن زاد من ذلك شيئاً كان مراغماً لنص القرآن أو طاعناً في بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أو زاعماً أنه اكمل منه علماً وعملاً بالدين .

وأما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة وقضاء وآداب فهى تنقسم بحسب الأدلة الى ستة أقسام :

أولاً - ما فيه نص صريح في الحكم وارد مورد التكليف الشرعى العام ، فالواجب أن يعمل بذلك النص ما لم يعارضه ما هو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه أو العامة كنفى الحرج ونفى الضرر والضرار ، وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله

تعالى : « (الا ما اضطررتم اليه) » وفي هذه الحال يجب على ائمة المسلمين تنفيذه ومؤاخذه من تركه .

ثانيا - ما يدل عليه نص صحيح بعمومه او تعليله او مفهومه دلالة واضحة اجمع عليها اهل الصدر الاول او عمل بها جمهورهم ، وعرف شذوذ من خالف منهم . فالواجب في هذا عين الواجب فيما قبله .

ثالثا - ما ورد فيه نص تكليفي غير صريح . او حديث غير واه ولا صحيح فاختلفت فيه الصحابة او غيرهم من علماء السلف وائمة الفقه ان كان مما وقع في زمنهم - فمثل هذا يعمل فيه كل مكلف باجتهاد نفسه ويعذر كل من خالفه فيما ظهر له انه الحق فلا يعيبه ولا ينتقده ، كما اختلف السلف في بعض احكام الطهارة والنجاسة ولم يعب احدهم مخالفه فيه ولم يمتنع من الصلاة معه لا اماما ولا مقتديا ، وكما فهم بعض الصحابة من آية البقرة في الخمر تحريمها وبعضهم عدم تحريمها فعمل كل بما ظهر له ولم يعترض على غيره .

ومثله ما يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة في كل زمان فمن ظهر له ان ذلك من الدين وان كلام الله تعالى او سنة رسوله صلى الله عليه وسلم دالة عليه عمل به ومن لم يظهر له ذلك فلا يكلفه تقليدا لمن استنبطه ، وقد نقل عن أشهر المجتهدين من الفقهاء أنه لا يجوز لأحد أن يقلدهم وأن يأخذ بشيء من أقوالهم الا اذا عرف مأخذه وظهر له صحة دليله ، وعند ذلك يكون متبعا لما أنزل الله لا آراء الناس ، فلا يكون مخالفا لقوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء » .

واما ما يتعلق بالأمور العامة من هذا القسم كالأحكام القضائية والسياسية فينبغي أن ينظر أولو الأمر ويتشاوروا فيه من

حيث تصحیح النقل ، ومن حيث طريق الدلالة على الحكم ، فاذا ظهر لهم ما يقتضى إلحاقه بأحد الأقسام السابقة الحقوه به فكان له حكمه ، والا كان كالمسكوت عنه .

رابعاً - ما ورد فيه نص من الكتاب أو السنة وارد مورد التكليف كالأحاديث المتعلقة بالعادات من الأكل والشرب والطب ونحو ذلك ، فالأولى والأفضل للمسلم أن يعمل بها ما لم يمنع من ذلك مانع من الشرع أو المصلحة والمنفعة العامة أو الخاصة .

خامساً - ما سكت عنه الشارع فلم يرد فيه عنه ما يقتضى فعلاً ولا تركاً فهو الذى عفا الله تعالى عنه رحمة منه وتخفيفاً على عباده . « فليس لأحد من عباد الله تعالى أن يكلف عبداً من عبده تعالى فعل شيء أو ترك شيء بغير إذن منه سبحانه ، وإن ما أمرنا الله تعالى به من طاعة أولى الأمر منا خاص بأمور الدنيا ومصالحها ومشروط فيه ألا يكون في معصية الله تعالى كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان في الصحيحين وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه : « لا طاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف » وأما أمر الدين فقد تم وكمل ، وهو تعالى شارع الدين كما قال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك » .

وكما قال : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها » والرسول صلى الله عليه وسلم هو مبلغ الدين كما قال تعالى : « إن عليك إلا البلاغ » ومبينه كما قال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (١) .

(١) تفسير المنار ج٧ ص ٢٠١ .

الأساس الخامس

أعمال النظر واستخدام المنهج

العلمي في البحث والاستنباط

هذا المبدأ مرتبط بالمبدأ السابق • فلئن كان ترك التقليد مبدأ سلبيا • فإن البحث وضم المقدمات اليقينية واستنتاج المجهول منها مبدأ ايجابى •

١ - وهذا المبدأ يزعم الغربيون أن الفضل في العمل به يرجع الى العلامة بىكون الفيلسوف الانجليزى ، الذى دعا الى المنهج الحديث الذى يقوم على المشاهدة والتفكير المنظم •

ولكن الأستاذ الأمام بين فى أكثر من موضع أن هذا المنهج قديم جاء به القرآن الكريم • فالقرآن حافل بآيات تدعو الانسان الى النظر فى الكون وتدبر آياته وعجائبه • واعتبار الكون كتابا مفتوحا يقرؤه كل انسان ويتأمل فى خلق الله ليعرف أن لهذه الصنعة البديعة المحكمة وهذا النظام المنسق والخلق الكامل السليم، خالقا مبدع السموات والأرض وممسكا بنظامهما ، ومدبرا لشمسئون الكون العظيم •

قال تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » (١) .

وقال تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب • انه على رجعه لقادر » (٢) .

وقال عز شأنه : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » (٣) .

ويقول الأستاذ الامام عند الكلام على تفسير قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فصواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم » (٤) .

« يصور لنا قوله تعالى : (خلق لكم) قدرته الكاملة ونعمه الشاملة اى قدرة اكبر من قدرة الخالق : و اى نعمة اكمل من جعل كل ما فى الأرض مهياً لنا ومعداً لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالأرض طريقان : (احدهما) الانتفاع باعيانها فى الحياة الجسدية (وثانيهما) النظر والاعتبار بها فى الحياة العقلية ، والأرض هى ما فى الجهة السفلى اى ما تحت ارجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل ما فى الجهة العليا اى فوق رؤوسنا واننا ننتفع بكل ما فى الأرض ، برما وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، وما لا تصل اليه أيدينا ننتفع به بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير يتناول ما فى الأرض من المعادن بالنص الصريح » (٥) .

(١) سورة ق ، آية ٦ .

(٢) سورة الطارق آيات ٥ و ٦ و ٧ و ٨ .

(٣) سورة الروم ٥٠ .

(٤) سورة البقرة ٢٦ .

(٥) تفسير المنار ج ١ ص ٢٤٧ .

٢ - وحسب القرآن الكريم ، وهو كتاب دين ان يوجه الانسان الى هذا الكون واستكناه سره وفهم نظامه ، بل يرشده الى ان الكون قد خلق له وكل شيء مباح في أصله « والأصل في الأشياء الإباحة » .

« بذلك خرج القرآن على تزمّت أهل الأديان السابقين ، وضغطهم على حرية الفكر والبحث . وأمرهم بالتسليم والاذعان من غير نقاش أو فهم .

ان القرآن جدير بأن يسمى كتاب حرية الفكر واحترام العقل وتكوين شخصية الفرد عن طريق بحثه وعلمه واستخدام عقله وفكره « (١) . وهذه الإباحة للنظر والبحث في الكون ، بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس ككون كل ما في الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الإسلام في ترقية الانسان . فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين ان أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على ان العقل والدين ضدان لا يجتمعان . والعلم والدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل .

ولذلك جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي ، والتفكير والتقدير والتدبر والذكر ، فلا تقرا منه قليلا الا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها .

« ١٠ : ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

« ٢٩ - ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢٤٩ .

« ٢٢ : ٤٦ ألقم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » .

« ٨٨ : ١٧ أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » .

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا ، واكثر القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به . ومن فوائد الحث على النظر في الخليفة للوقوف على اسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الانساني الذي خلقت هي لأجله - مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فاودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس ان ينتفعوا به .

« كانت أوروبا المسيحية في غمرة من الجهل ، وظلمات من الفتن تسيل الدماء فيها انهارا لأجل الدين ، وباسم الدين وللأكراه على الدين ، ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبسا من دين الاسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا لنا الحق في ان نتفكر ، وأن نعلم ان نستدل فحاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعد غسل الدماء المسفوكة ، قام منذ مائتي سنة الى اليوم رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على دعائم العلم ، المدنية المسيحية . ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها بعد انهزامها من امام الدين المسيحي لأنها لا تتفق مع العلم وفي مقدمتها الدين الاسلامي ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم ان المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى ، فجهلوا الأرض التي هم عليها ، وضعفوا عن استخراج منافعها فجاء الأجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابتهم قائم على صراطه يصيح بهم « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » « وسخر لكم ما في السموات وما في

الأرض جميعا منه» « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا» الآية . وأمثال ذلك ، ولكنهم «صم بكم عمى فهم لا يعقلون» إلا من رحم الله ، ولو عقلوا لعادوا ، ولو عادوا لاستفادوا وبلغوا ما أرادوا ، وما نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلمهم يرجعون . ولا نبيس من روح الله «انه لا يبيس من روح الله الا القوم الكافرون» (١) .

٣ - والاسلام في مبدئه قائم على الاقتناع والتأمل . قاله تعالى يقول : « لا اكراه في الدين » . وطالما لفت نظر الانسان الى الأدلة على وحدانيته « أفحسبتم انما ختقناكم عبثا » . « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا » .

بل ان القرآن يرفض الاسلام اذا كان قولا باللسان ولم يقتنع به القلب والوجدان . قال تعالى :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » .

والمقلد - في نظر بعض الأئمة - لا يصح أن يدين في مقابر المسلمين .

والأستاذ الامام يهاجم لذلك مذاهب المتكلمين وادلتهم على توحيد الله ، ويبين ان علم الكلام على نحو ما كان متداولاً في الأزهر اذ ذاك - لا يصلح أن يكون وسيلة لتنشئة العقيدة الصحيحة او تدعيم الإيمان بها .

« بل اصلح الوسائل لذلك منهج القرآن نفسه في عرض الدعوة الاسلامية والاستدلال عليها وهو منهج الاقناع القائم على

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢٥١ .

رعاية المظهر العام للطبيعة الانسانية من جانب ، وعلى خصيصة الدين نفسه من جانب آخر ، والطبيعة الانسانية في مظهرها العام تتبع أسلوب الاقتناع اكثر من ان تتبع قياس المنطق الارسطي المستخدم في البرهنة الكلامية والذي هو وقف على الخاصة دون العامة والدين في طبيعته يجب ان يكون للكافة وللكترة من الناس . فأسلوب دعوته يجب ان يبقى في حدود أفهام هذه الكترة ويجب الا يبعد به عن هذه الحدود حتى يكون فهمه وقفا على الخاصة التي تدرجت على منطق عقلي خاص ولون معين من الثقافة (١) .

وقد اتبع الامام هذا المنهج في رسالة التوحيد فكتبها في أسلوب سهل ونظمها وبوبها وبين فيها فوائد الدين ، وتاريخ التوحيد وضرر خلطه بالفلسفة وضرر البحوث التي لا تنشئ عقيدة اسلامية ، ولا يفقهها الا الذي درب على المنطق الارسطي ، فماذا يضير المسلم اذا لقي ربه ولم يعرف هل الصفات هي عين الذات او غير عين الذات .

وتحدث فيها عن مزايا الدين الاسلامي حديثا طيبا فياضا وبين فيها ميزة الاسلام في محاربة التقليد . وحث الانسان على اعمال النظر والفكر ، وان تكون عقيدته عن اقتناع وان الاسلام اهاب بالمسلم ان يستغل الارض ويسيطر على الكون ويحسن الخلافة فيه . ولا يكون ذلك الا بالعلم بجميع أنواعه .

« أمر الاسلام بالتوحيد فأصبح الانسان عبدا لله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه . أنحى الاسلام على التقليد ، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته . وهبت به من نومه .

(١) دكتور محمد البهي : الفكر الاسلامي المعاصر ص ١٢١ (بتصرف) .

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغاة ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام - اعلام الكون ودلائل الحوادث - وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون . صرف القلوب من التعلق بما كان عليه الآباء . وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها اهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطفيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم . » ٦ : ١١ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . »

« وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب . عاب ارباب الأديان في اقتفائهم أثر آباءهم . ووقوفهم عندما اختطه لهم سير أسلافهم وقولهم « ٣١ : ٢١ » بل نسمع ما وجدنا عليه آباءنا ، ٢٣ : ٢٢ آتانا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . »

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده . وخلصه من كل تقليد استعبده ، وردّه الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة . واستقلال الرأي والفكر .

وبهذا كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها « (١) » .

٤ - وقد تأثر الأستاذ الامام في حرية الفكر وابداء الراى مدرسة من طليعة العلماء حملوا راية النهضة ، وظلوا يحققون قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لن تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

ومن أفاضل من تأثروا بالأستاذ الامام ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وسأقل هنا فصلا من كتابه « منهج القرآن في بناء المجتمع » ليتضح لنا اثر الامام فيمن جاء بعده من المفسرين .

قال الشيخ شلتوت :

« الاسلام (٢) وضع للتهذيب الروحي جملة من الوسائل تعمل كلها على تنقية الفطرة من ألوان الشرك وصوره المختلفة التي تطمس في القلب صورة التوحيد الخالص ، الذي فطر عليه الانسان وربطت به سعادته في الدنيا والآخرة .

وان من أول ما عني به الاسلام وارشده اليه التفكير في ملكوت السموات والأرض اذ به تعرف الآثار الدالة على جلال مصدرها وكماله في العلوم والقدرة والسلطان والرحمة . ومن هنا تخضع النفوس عن طريق برهاني عقلي ووجداني ، لارادة مصدرها رب

(١) رسالة التوحيد : تأليف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ١٨١

• ١٨٤

(٢) منهج القرآن في بناء المجتمع لفضيلة الأستاذ محمود شلتوت

ص ٥٢ •

العالمين الرحمن الرحيم ، ويعظم لديها الوعي الدينى الذى يخلق فيها النشاط لطاعته ، وتحرى ما يرضيه فى معاملة النفوس ومعاملة الناس . هذا التفكير الذى دعا اليه الاسلام للحصول على تلك الغاية لم يكن هو ذلك التفكير الجاف الذى يسخره الانسان فى سبيل المادة فقط ، ويستخدم آثاره التى يحصل عليها فى العدوان وتخريب المداين والعمائر وترويع الأمنين والقضاء على نعم الله فى خلقه . كما يدرك ذلك الآن المتحسس لنفسيات العالم فى شرقه وغربه ، وانما هو تفكير يطمئن القلب ويخدمه قبل أن يخدم العقل ودون أن يروع الأمن . تفكير ينزع بالانسان الى جانب الروحية المهدبة التى تدعوه الى استخدام ما يصل اليه عن طريق التفكير فى المحافظة على الانسانية والأخذ بها الى الكمال الذى قدر لها وخلقت لأجله .

وقد كان للقرآن الكريم فى الدعوة الى هذا التفكير اساليب مختلفة من شأنها مضاعفة الرغبة التى تدفع الانسان اليه . فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق السموات والأرض باطلا لا خير فيه ، وانما خلقهما لغاية قضت بها الحكمة الالهية فى خلقهما وخلق الانسان « ربنا ما خلقت هذا بطلا سبجائت » (١) . « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو اردنا أن نتخذ لهم آياتنا من لدنا ان كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيسحقه فاذا هو زاهق » (٢) ولا باطل ولا لعب أكثر ولا أشد من الاعراض عن النظر فيما خلق الله . هذا الاعراض الذى تظل به أسرار الرحمة

(١) آل عمران ١٩١ .

(٢) الانبياء ١٦ - ١٨ .

كأمانة في جوف المخلوقات دون أن تعرف ، ودون أن تظهر بها الرحمة في خلقه ، وكذلك لا باطل ولا لعب بل لا طغيان ولا عدوان أكثر ولا أشد من معترفها والوصول اليها ، ثم استخدامها في التخریب والتدمير والقضاء بها على أخضر العالم ويابسها • انقيادا لشهوة زائفة ، او جبروت كاذب •

ومن أسلوب يعلن أن الله ما خلق العالم على هذا النحو المملوء بالأسرار والسنن التي هي الإنسان للوصول اليها الا لينتفع الإنسان « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » (١) •

وليس من شك في أن الانتفاع بها ينتظم الانتفاع بأعيانها في الحياة المادية وبإدراكها في الحياة العقلية ، وبدلالاتها في الحياة الروحية • والآية ترشد بعد هذا الى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر هذا الكون ، وإنما هي مبثوثة في ظاهره الذي نحصل عليه بمجرد النظر ، وفي باطنه الذي نحتاج الى قوة في اقتحامه وخوض غماره ، وفي هذا إحياء بالبحث عما استقر في باطن الأرض وطبقات الجبال ، وقاع البحار ، وما يحمل الماء والهواء من قوى الانتاج ومواد الصناعة والتعير ، ومن أسلوب يؤكد للإنسان أن الله سخر له هذا الكون وأقدره على استخراج أسرارهِ وجعله في قبضة يده ومتناول عقله « ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (٢) « الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٣) « فسخرنا له الريح تجري بأمره وخساء حيث

(١) البقرة ٢٩ •

(٢) لقمان ٢٠ •

(٣) الجالبه ١٢ •

أصاب» (أ) «وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ» (٢) «وَأَصْلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ» (٣) «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ» (٤) .

ومن أسلوب ينبه احساس الناس الى التطلع نحو بعض المخلوقات ، ذات الشأن في الحياة ، فيندفع الى تلمس ما اشتملت عليه آيات وأسرار ومنافع وآثار وقد استخدم في هذا الأسلوب قسم الله - الغنى عن القسم - بهذه المخلوقات «وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاها وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضُ وَمَا طَعَاهَا وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (٥) .

«وَالْعَادِيَاتُ ضَبَّحًا فَالْمُورِيَّاتُ قَدَحًا فَالْمُغِيرَاتُ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» (٦) .

ومن أسلوب يوجه الأنظار الى أصول جملة من الثروات التي تتكون منها الاقتصاديات الضرورية في حياة الأمم ونهضتها ففي الثروة الحيوانية : «وَالْأَنْعَامُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» (٧) .

وفي الثروات النباتية : «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْسَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ» (٨) وفي الثروات المائية «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ

(١) ص ٣٦ .

(٢) ص ١٠ .

(٣) ص ١٢ .

(٤) الحديد ٢٥ .

(٥) الشمس ١ - ٨ .

(٦) العاديات ١ - ٥ .

(٧) النحل ٥ .

(٨) الأنعام ١٤١ .

البحر أتناكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها» (١) وفي الثروات الجبلية «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود» (٢) . ومن هذه الآيات وغيرها وهو كثير واضح في القرآن الكريم ، يتجلى أن الاسلام قد وجه الانسان الى البحث ، وتعرف خواص الكائنات واسرارها ، والانتفاع بها في بناء الحياة على أساس أنها نعمة من نعم الله ، وآثار رحمته بالشكر والحمد والثناء ، وشكرها الايمان بمصدرها ، واستعمالها فيما ينفع الخلق وعمارة الكون .

وبينما نرى القرآن يدعو الى التفكير على هذا الأساس نراه ينعي خلة الذين فكروا وعرفوا دون أن يتخذوا من تفكيرهم غذاء للقلوب ، مددا للأرواح «وبنعمة الله يكفرون» (٣) . «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها» (٤) . «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون» (٥) وإذا كان هؤلاء مع بحثهم ، وتعرف اسرار الكون ، في منزلة الأنعام ، الذين ليس لأرواحهم حظ فيما يحصلون عليه من المنافع المادية . فما بال قوم الفوا عقولهم وسلبوها الاستعداد الفطري للنظر والبحث ، واكتفوا من النظر بتقليب الوجوه في بناء السماء وزرقتها . والكواكب وكشرتها والجبال وضخامتها والبحار وأمواجها ، وحرموا أنفسهم من التمتع بالمادة التي تبني الحياة وبالعلم الذي يغذى العقل . وبالدلالة التي تغذى

-
- (١) النحل ١٤
 - (٢) قاطر ٢٧
 - (٣) النحل ٧٢
 - (٤) النحل ٨٣
 - (٥) الاعراف ١٧٦

الروح ؟ وكم يضيق الانسان ذرعا حين يرى المسلمين - وتلك
تعاليم كتابهم وارشاداته - في حرمان من اللذات التي ربط الله بها
سعادة الناس وحثهم على تحصيلها والانتفاع بها ، وكم يشتد ضيقه
حين يراهم فيها عالة على غيرهم ، يأخذونها عنهم على انها علومهم
ونتائج بحوثهم ، ويأخذونها بمنهجهم في قطعها عن مصدرها المنعم
بها ، المسخر لها .

وقد كان هذا الموقف من المسلمين ، مما هيا لغيرهم أن يتهموا
الاسلام بالجمود . وأنه دين يعترض التقدم ، ولا يسمح بلذة العلم
ولا بعزة الحياة ، وبذلك اندفعوا الى بلاد الاسلام باسم العمل على
تقدمهم ، يختبرون فيها الجبال والوديان ، ويحصلون على الخير من
بواطنها ويتخذون لذلك فيها المراكز الشرعية التي بها يستعمرون .
الا ان واجب المسلمين اليوم وقد تكشفت نوايا القوم وذاقوا منهم ومن
جهلهم بأسرار الكون ما ذاقوا ، ان يستأنفوا لهم حياة جادة عاملة ،
عمادها البحث والنظر والانتفاع بما سخر لهم في مواد الحياة وبذلك
يستجيبون لله في دعوته ويحفظون لأنفسهم سلطان الدنيا ومكانة
الآخرة .

وانت واجد ان كلا من الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده
وقضيلة الأستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت ، يلتقيان على بيان
عظمة الاسلام وبيان خصائصه وفضائله والاهابة بالمسلمين
للتمسك به وتنفيذ أوامره في البحث والنظر ، والانتفاع بممكثاتهم في
الحياة لتكون لهم العزة والمنعة وليستغنوا عن الدخيل المتلصص عليهم
ويتمكنوا بأنفسهم من استغلال خيرات بلادهم .

حقق الله هذه الاماني والجهود ، اللهم آمين .

الأساس السادس

تحكيم العقل

والاعتماد عليه في فهم القرآن الكريم

ان القرآن قد احترم العقل وناجاء واستشاره ونبيه في كثير من آياته مثل قوله تعالى : « افلا تعقلون » • « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » •

بل انه جعل العقل مصدرا من مصادر التشريع وبين ان اعماله والاهتمام ببديه مما يحقق للانسان الفوز بالجنان والبعد عن النيران ، قال تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير » •

فالوحي والعقل كلاهما اثر من آثار الله في الوجود ، وآثار الله تهدي اليه وتدل عليه ، ولذلك يجب ان ينسجم بعضها مع بعض لما يأتي :

أولا - لأنها آثار الكامل كمالا مطلقا ، وهو الله سبحانه وتعالى ، والعقل البشري يجعل من المحال ان يكون هناك شائبة نقض في آثار الكامل المطلق • وتناقض الآثار أو تعارضها الصادرة من مصدر واحد يدل على عدم الكمال المطلق لهذا المصدر •

ثانياً - أن الوحي مصدر هداية • والعقل الانساني مصدر هداية وكلاهما يهدف الى تحديد الطريق المستقيم في الحياة للانسان والى تحديد غايته الأخيرة في هذا الوجود • وأمران شأنهما ذلك لابد أن يتوافقا في التحديد الاجمالى على الأقل بطريق الانسان في حياته في وجوده • فان بدا أن هناك اختلافا بين تطبيق رسالة الوحي واستخدام العقل كان منشأ هذا الاختلاف اما تحريف رسالة الوحي واما سوء استخدام العقل ، والمحرف للرسالة السماوية هو الانسان هنا وهناك وليس الملك الذى نزل بالوحي ولا الرسول المصطفى لتبليغ الرسالة •

طبيعة الوحي يجب أن توافق طبيعة العقل الانساني اذن ، لأنها مصدر هداية لغاية واحدة من كامل واحد كمالاتها مطلقا ، وهو الله سبحانه وتعالى •

وقد تأثر الأستاذ الامام بالمعتزلة في استخدام العقل بحرية في التاويل والتخييل • وقد سعى المعتزلة في تاريخ الاسلام باهل النظر والفكر واستخدموا التمثيل والتاويل والتخييل في آيات القرآن ليقرّبوا فهمها أو لتوافق مذهبهم •

اما الأستاذ الامام فانه وان وافق المعتزلة في استخدام العقل • الا أن ذلك لم يكن لتأييد مذهب • أو لتاويل الآيات بما يوافق معتقده السابق • فانه حارب ذلك وحذر من الدخول في فهم القرآن بعد اعتناق عقيدة سابقة •

ولكنه استخدم العقل ليقرب الاسلام وافكاره من العلماء المحدثين الذين لا يؤمنون إلا بما تقبله عقولهم وما تسلم به مناهجهم العلمية •

١ - مفهوم الملائكة :

فمن ذلك حديثه عن الملائكة ، وتوضيح مفهومهم ، فعرض في بيان ذلك رأيين سابقين :

الأول - أنهم خلق غيبي لا تعرف حقيقته . وإنما نؤمن بأخبار الله تعالى التي تقف عنده ولا نزيد عليه . والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف وأنواع ولكل صنف وظيفة وعمل . وأن من عمل الملائكة الأمر بالخير والهداية إليه والاعانة عليه (١) .

والثاني - يرويه ناقل أول الأمر . ولكنه يؤيده ويحبذه لأن فيه تقريبا للإيمان بالملائكة من عقول الماديين فيقول : « وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم الملائكة وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من انماء نبات وخلق حيوان وحفظ انسان فهذا ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والانسان ، فكل امر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في ايجاده ، فانما قوامه بروح الهى . سمى في لسان الشرع ملكا ، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية اذا كان لا يعرف من عالم الامكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة . »

والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمرا هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعقل أن ينكره وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود

(١) المنار ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

الملائكة • أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا ، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع — فالحقيقة واحدة والعقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات • فكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله الى ادراك كنهه • وماذا على الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره وإن كنت لا أقدره قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما ورد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟

يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهتم بامر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن هناك تنازعا في نفسه وأن هاتفا يهتف به الخير ، وآخر يدفع به عنه • وهذا الهاتف الداعي الى الخير لا يبعد أن يسميه الله ملكا ، والهاتف بالشر يسمى شيطانا •

والسيد رشيد رضا يبين أن لهذا الرأي أصوله عند الأئمة السابقين فيقول :

« فالامام الغزالي قد سبق الى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقبال انه سمي ملكا ، فانه بعد ما قسم الخواطر الى محمود ومذموم قال :

« ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم ان كل حادث لابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعي الى الخير يسمى ملكا • وسبب الخاطر الداعي الى الشر يسمى شيطانا ، واللفظ الذي يتهيأ به القلب لقبول الباطل الخير يسمى توفيقا ، والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا ، فان المعاني المختلفة تحتاج الى أسماء مختلفة » •

قال الأستاذ الامام : فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية الى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها . وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من انواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به ، خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجمع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض . وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له ، والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه ، لأنه اكمل الموجودات في هذه الأرض . واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بابلوس وهي القوة التي لزاها الله بهذا العالم لزا وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل الى النقص وتعارض في اتباع الحق وتصعد عن عمل الخير وتتنازع الانسان في صرف قواه الى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيوصل الى مراتب الكمال الوجودي الذي خلق مستعدا للوصول اليها .

تلك القوة التي ضلت آثارها قوما فزعموا ان في العالم الها يسمى اله الشر . وما هي باله ولكنها محنة الاله لا يعلم اسرار حكمته الا هو .

قال الأستاذ الامام معلقا : ولو ان نفسا مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما أبصرت من الحق .

وقال تلميذه السيد رشيد رضا : « ان غرض الأستاذ الامام من هذا التأويل الذي عبر عنه بالايماء وبالإشارة اقناع منكر الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتمنى

به كثيرون ، وضل به آخرون فانكروه عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لا تعقل فرد عليهم بأنهم عبيد العادة وأسرى التقليد ، والا فماذا يفهم أحدهم مما يقال لهم « ان الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل » (١) . كيف تكون جسما ، وما معنى نورانيتها ؟ وهل للنور وحده قوام يكون به شخصا ممتازا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عليه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء !

وما معنى قابليته للتشكل ؟ وهل يمكن للشئ الواحد أن ينقلب في اشكال من الصور مختلفة حسبما يريد ؟ . وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع في حيرة ؟ ولو سئل عما يعتقد من ذلك الا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ اليس مثل هذه الحيرة يعد شكاً ؟ فلا يعد صاحبها ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا ؟ .

اليس الوجود الالهى الأعلى من عالم الغيب ، وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟ اليس هو الذى وهب تلك القوى خواصها وقدر لها آثارها ؟ .

لم لا تقول أيها الغافل : انه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ، ولم قصر معنى الحياة على ما تراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع أنك لو سئلت عن هذا الذى تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تعريفا ؟ لم لا تقول كما قال وبه نقول « تسبىح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وأن من شئ الا يسبىح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ؟ .

(١) هذا هو التعريف المشهور فى كتب الكلام وغيرها وأول ما يعترض عليه انه لا يصح ليه معنى الجسم فى اللغة ولكنه صار مألوفا وان لم يكن مألوفا . ا هـ . نقلا من حاشية المنار ص ٢٧ ، ج ١ .

أفلا تزعم أن الله ملائكة في الأرض ، وملائكة في السماء ؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أمكنتها ، ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك ، وإن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك . وبالعبرة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها . أفلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟ . أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسرار الكتاب ؟ فإن لم تجد في نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن تؤمن بالغيب ويفوض في ادراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالاته ، وهم في إيمانهم أعلى منك كعبا ، وأرضى منك بربهم نفسا ، إلا أن مؤمنا لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذي يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة ومن فضل ربه في سعة .

قال السيد رشيد رضا : الأستاذ الامام بهذا أراد أن يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ما جاء به الوحي من طريق علمهم المسلم عندهم . وهو يمثل هذه الأساليب في الاقناع بحقيقة الدين كان حجة الله في العصر حتى قال له أحد نوابغ رجال القضاء الأذكياء : أنك بتفسيرك القرآن بالبيان الذي يقبله العقل ، ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذي يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم .

ذلك وإن ترتيب النظم يلتزم مع التأويل الذي أورده الأستاذ
الامام في السياق فإن هذه المعاني التي وردت بصيغة الحكاية وبرزت
في صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعالى : « هو الذي خلق لكم
ما في الأرض جميعا » (١) .

٢ - وأفضل انتفاع يستفيده الأستاذ الامام من تحكيم العقل
واللجوء اليه في فهم آيات القرآن فهما متسقا مع المنطق الفكري
المنظم هو استغلاله طريقة التمثيل والتخييل في فهم ما أشكل من
آيات القرآن الكريم :

(١) تأويل سجود الملائكة :

فمن ذلك تأويل سجود الملائكة وإباء إبليس بتسخير قوى
الأرض للإنسان الا قوة الاغراء بالشر عند تفسير الآيات التي تناولت
قصة آدم عليه السلام وهي :

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا
اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الاسماء كلها
ثم عرضهم على الملائكة فقال انبثوني باسماء هؤلاء ان كنتم
صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم
الحكيم * قال يا آدم انبثهم باسمائهم فلما انباهم باسمائهم قال
الم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم
تكتُمون * واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس
أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من
الظالمين * فازلهم الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا

(١) المنار ج ١ ص ٢٧٤ وما قبلها .

اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين ﴿١﴾
فقتلني آدم من ربه كنت ذات قتال عليه انه هو اتزأب اترحيم (١) .

قال الأستاذ الامام :

« مجمل هذه الآيات ان هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانساني واقتضت الحكمة الالهية ايجاده واستخلافه في الأرض آذن الله تلك الأرواح المنبثة في الأشياء لتديرها ونظامها بذلك . وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الانسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء حتى أعلمها الله تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها على ان كل صنف من تلك الأرواح الا روحا واحدا هو مبعث الشر وصدور الاغواء فقد ابى الخضوع ، واستكبر عن السجود لما كان في طبيعته من الاستعداد لذلك ، والاستعداد في الشيء انما يظهر بظهور متعلقة .

ثم امر الله آدم وزوجته بسكنى الجنة والتمتع بها ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة واخبرهما ان قربها ظلم . وان الشيطان ازلهما عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم الى ضده ثم ان آدم تاب الى الله من معصيته فقبله . ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع . هدى الله ، وشقاءه بتركه .

وقد سيقت هذه الآيات كلها للاعتبار ببيان الفطرة الالهية التي فطر عليها الملائكة والبشر وتسليية النبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار والكفار ، كانه يقول لا تأس يا محمد على القوم الكافرين ، ولا تبخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . فقد كان الضعف في طباعهم ينتهى اليهم من أول سلف لهم ، تغلب عليهم الوسواس . وتذهب بصبرهم الدسائس ،

(١) الآيات من ٣٠ الى ٣٧ سورة البقرة .

أنظر ما وقع لأدم ، وما كان منه . وسنة الله مع ذلك لا تتبدل ، فقد عوقب آدم على خطيئته بأهباطه مما كان فيه ، وإن كان قد قبل توبته ، وغفر هفوته ، فالمعصية دائماً مجلبة للشقاء ، وقد استقر أمر البشر على أن سعادتهم في اتباع الهداية الإلهية وشقاءهم في الانحراف عن سبيلها (١) .

(ب) تأويل معصية آدم بطريقة التمثيل ، وبيان أنها إشارة إلى أطوار البشرية :

قال الأستاذ الامام : وأما مسألة معصية آدم فالجري على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه ، كسائر ما ورد في القصة مما لا يركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول : أن تلك المخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة . وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً فسمى تفخيماً لأمره عصياناً . والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة ، فإن جعلنا الكلام كله تمثيلاً فحديث الإخلال بالعصمة مما لا يمر بذهن العاقل .

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه : أن القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني ، كقوله تعالى ٥٠ : ٣٠ : « **يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ** » فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه ، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء ٤١ : ١١ : « **فَقَالَ لَهَا** »

(١) المنار ج ١ ص ٢٧٦ .

**وللأرض انتيا طوعا او كرها قائتا آتينا طائعين » والمعنى في التمثيل
ظاهر .**

قال الأستاذ الامام : وتقرير التمثيل في القصة على هذا
المذهب هكذا : ان اخبار الله الملائكة بجعل الانسان خليفته في
الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي
بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به
كمال الوجود في هذه الأرض - وسؤال الملائكة عن جعل خليفة
يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطي استعدادا في العلم
والعمل لا حد لهما : هو تصوير لما في استعداد الانسان لذلك
وتمهيد لبيان انه لا يناق خلافته في الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها
بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في
استثمارها وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في
الجواب ، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من
الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة
لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية
الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك - وإباء ابليس واستكباره
عن السجود تمثيل لهجز الانسان عن اخضاع روح الشر وإبطال
داعية خواطر السيئ التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي
والافساد في الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه
أفراده كالملائكة بل اعظم ، او يخرجون عن كونهم من هذا النوع
البشرى .

واما التمثيل فيما بقى من القصة : فيصح أن يراد بالجنة
الراحة والنعيم . ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة .

فسكنى الجنة ، والاكل من الشجرة ثم الندم والتوبة تمثيل
للأطوار الفطرية للبشر وهي ثلاثة :

طور الطفولة وهو طور نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الانسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشيد والاستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجئ فيه عند الشدة الى القوة القلبية العليا التي منها كل شيء واليها يرجع الامر كله ، فهكذا كان الانسان في افراده مثالا للانسان في مجموعته .

كان تدرج الانسان في حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة ، قويم الوجه ، مقتصر في طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاوناً على دفع ما عساه يعيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبي .

ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض افراده ايديهم الى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلاً مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائماً في نفوس سائرهم فثار النزاع وعظم الخلاف، واستنزف الشقاء ، وهذا هو الطور الثاني وهو معروف في تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر وتحديد حدود للأعمال تنتهي اليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات . . وهو طور التوبة والهداية ان شاء الله (١) .

٣ - مفسرون سابقون يستخدمون التمثيل والتخييل :

وقد كان الشيخ محمد عبده مسبقاً في استغلاله طريقة التمثيل والتخييل في فهم آيات القرآن بمفسرين سابقين :

(١) المنار ج ١ ص ٢٨٤ وما قبلها .

(أ) فمثلا في تفسير قوله تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

نرى القرطبي ينقل في تفسيره عن القفال وغيره : « ان العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع » ثم يقول : « وقال قوم ان الآية من المجاز أي اننا اذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، لرأينا انها لا تطيقها وانها لو تكلمت لأبت واشفقت فعبّر عن هذا المعنى بقوله : (انا عرضنا الأمانة) الآية ، وهذا كما تقول عرضت الحمل على البعير فإياه ، وانت تريد قايست قوته بثقل الحمل فرايتها تقصر عنه (١) » .

(ب) ويذكر الزمخشري في الكشف عند تفسيره لهذه الآية راين :

الأول - ملخصه أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين إلا أن يؤدبها وأبى الانسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤدبها ، فحمل الأمانة بمعنى أنه يحتملها فلا يؤدبها إلى صاحبها .

والرأي الثاني - يخرجها على سبيل التأويل والتمثيل . « وأن ما كلفه الانسان بلغ من عظمته وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه أن يتحمّله ويستثقل به فأبى حمّله والاستقلال به وأشفق منه وحمله الانسان على ضعفه ورخاوة قوته « انه كان ظلوما جهولا » . حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها . ونحو هذا الكلام كثير

(١) ص ٢٥٦ ج٤ من تفسير القرطبي - طبعة دار الكتب المصرية .

في لسان العرب وما جاء القرآن الا على طرقهم واساليبهم ، من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج ، وكم لهم من امثال على السنة البهائم والجمادات . وتصور مقالة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبحه كما ان العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع في نفس السامع وهي به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل حملها والوفاء بها .

(ز فان قلت) قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرايين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى في وجهته ، وكل واحد من المثل به والممثل شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فان عرض الأمانة على الجماد وإباءه واشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صبح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا الا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول (قلت) المثل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض ، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبة وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها واشفقن منها « (١) » .

(ج) وفي قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقاتل لها وبنات أرض ائتميا طوعا أو كرها قاتلا آتينا طائمين » يقول الزمخشري في تأويلها : « ومعنى أمر السماء والأرض بالاتيان

(١) الكشف ج٣ ص ٢٩٤ - ٢٥٠ .

وامتثالها أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما ارادهما
وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع اذا ورد عليه فعل الأمر المطاع
وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل ، ويجوز ان يكون تخيلا ويبني
الأمر فيه على ان الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما اثينا
شئتما ذلك أو أبيئتما فقالتا آتيناه على الطوع لا على الكره ،
والفرض تصوير اثر قدرته في المقدورات من غير أن يحقق شيء من
الخطاب والجواب ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقني
قال الوتد أسأل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي
ورائي « (١) » .

(د) وفي قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل
لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله » .

يقول الزمخشري : « هذا تمثيل وتخييل كما مر في قوله
تعالى « انا عرضنا الامانة » . وقد دل عليه قوله « وتلك الامثال
نضربها للناس » والفرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة
تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قواعده وزواجره « وتلك الامثال »
اشارة الى هذا المثل والى امثاله في مواضع من التنزيل « (٢) » .

(هـ) وفي قوله تعالى : « واذا اخذ ربك من بني آدم من
ظهورهم ذريبتهم واشهادهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى
شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » .

يقول الزمخشري : « ومعنى اخذ ذريبتهم من ظهورهم اخراجهم
من اصلابهم نسلا واشهادهم على انفسهم وقوله « الست بربكم
قالوا بلى شهدنا » من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه

(١) الكشاف ص ٢٨٥ ج ٢ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) الكشاف ص ٨٥ ج ٢ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووجدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال الست بربكم وكانهم قالوا بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا أقررنا بوجدانيتك ، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ونظيره قوله تعالى : « انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول كن فيكون » « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين » وقوله : « اذ قالت الانساع للبطن الحق قالت لها ريج الصبا قرقار » ومعلوم أنه لا قول ثم وانما هو تمثيل وتصوير للمعنى « (١) » .

الفرق بين منهج الامام ومنهج المفسرين

ما نقلناه عن الكشف يتبين لنا ان الشيخ محمد عبده كان متأثرا بالزمخشري في استخدام التمثيل والتأويل في فهم القرآن ، ولكن هناك فارقا واضحا بينهما .

فالزمخشري كان يستغل ذلك ليوافق النص العقل من جهة وليؤيد بتأويله مذهب المعتزلة من جهة أخرى .

اما الأستاذ محمد عبده ، فقد كان يخرج الآيات على سبيل التمثيل أو التأويل ليوافق النص العقل . بينما حارب تأويل القرآن واستخدامه لتأييد المذاهب الكلامية ، وحذر كثيرا من الدخول في بحث القرآن بعد الاعتقاد بعقيدة مذهبية سابقة أو تأويل آياته لتوافق مذهباً معيناً « وتحريف الكتاب المنزل بتخريج نصوصه تخريجا يبعدها عن هدفه تحت التأثير بعوامل شخصية أو مذهب

(١) الكشف ص ١٠٢ ج٢ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

معين عمل من شأنه أن يحول بين انسجام الكتاب المنزل والعقل
السليم للانسان .

« والدخول في بحث الكتاب المنزل والرسالة الالهية بعد
الاعتقاد بمقيدة خاصة أو قبل التخلي عن المؤثرات المفرضة . يجعل
من الصعب أن يوافق مثل هذا العقل الباحث اهداف الكتاب
السماوى ورسالة الله في جماعة الانسان والانسان هو الذى خرج
الكتاب تخريبا فيه بعد أو مجافاة لهدفه . والانسان نفسه هو
الذى مال بالعقل الانسانى نحو عقيدة خاصة أو وجهة معينة
وانحرف به عن أن يكون العقل الخاص الذى فطر الانسان عليه .
وبذلك يكون الانسان نفسه هو الذى حال دون أن يوافق الكتاب
عقله والعقل الكتاب ، وليست طبيعة كل منهما هي التى حالت
دون ذلك » (١) .

٤ - تائر الامام بالمؤلفين الفرنسين :

وقد كان الامام الأستاذ متأثرا في حديثه عن المعجزات والنبوات
بالمؤلفين الفرنسين . فهو يحاول أن يقرب الى الأذهان المعجزات
الالهية ويعلل وقوعها بما يوافق العلم والعقل . ويقربها من خضوع
الاسباب للمسببات فمن ذلك حديثه عن خلق عيسى من غير أب
حيث يقول (٢) ويمكن تقريب هذه الآية الالهية من السنن المعروفة في
نظام الكون بوجهين :

الوجه الأول - أن الاعتقاد القوى الذى يستولى على القلب
وعلى المجموع العصبى يحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على

(١) الدكتور محمد البهى . الفكر الاسلامى المعاصر ، موضوع محمد

عبد .

(٢) ج ٣ ص ٣٠٩ ، تفسير المنار .

خلاف المعتاد . فكم من سليم اعتقد انه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم وصار مريضا ، وكم امرئ سقى الماء القراح أو نحوه فشربه معتقدا انه سم نافع فمات مسموما به ، والحوادث في هذا الباب كثيرة اثبتتها التجارب ، واذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول : ان مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولدا بمحض قدرته ، وهي على ما هي عليه من صحة الايمان وقوة اليقين ، انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعمل في الرحم فعل التلقيح ، كما يفعل الاعتقاد القوى في مزاج السليم فيمرض أو يموت ، وفي مزاج المريض فيبرا وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة اخرى متما لهذا التأثير .

الوجه الثاني - وهو اقرب الى الحق وان كان اخفى وادق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح وهي أن المخلوقات قسمان : أجسام كثيفة وأرواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون من النمو أو يكون النمو منه . فلولاء الهواء لما عاشت هذه الأحياء ، والهواء روح ، ولذلك كان من أسماؤه اذا تحرك الريح ، وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه . والماء الذي منه كل شيء حي من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ولكنه اقرب الى الثاني ، والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعالها في الأشباح فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحا هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون ، حتى أننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا . ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل

أجل وأعظم . فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد ، فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم ؟ .

إذا تمهد هذا فنقول : ان الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحا من عنده الى مريم فتمثل لها بشرا ونفخ فيها فأحدث نفخته التلقيح في رحمها ، فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت اليها تلك النفخة مادة أم لا ؟ الله اعلم ، اما البحث في تمثل هذه الأرواح التي تسمى في لسان الشرع الملائكة (١) ، فسيأتي الكلام عليه في تفسير قوله تعالى ١٩ : ١٧ « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشر سويا » .

إذا انسا الله لنا في الأجل ووفقنا للمضي في هذا العمل . .
وقد انتقل رحمة الله الى جوار ربه قبل أن يصل في تفسيره الى هذا المكان .

وأنت اذا دقت النظر في الموضوع ، رأيته في حقيقته معجزة من الله أراد أن يشبث بها أن أوامره لا تخضع لأسباب الناس وأنه على كل شيء قدير . وأن أمره كن فيكون .

والمعجزة في تعريفها امر خارق للعادة ، والله تعالى قال هذا في كتابه : « أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ونحن اذا استطعنا أن نعلل خلق عيسى بما يقربه من السنن المعروفة في نظام الكون ، فماذا عسى نصنع في تعليل خلق آدم ؟ ألا يكون من الأولى أن نسلم بهذه الأشياء على أنها أثر من قدرة الله وهي فوق القدر ، ومن أرادة الله ، والله فعال لما يريد ،

(١) انظر أوائل الأساس السادس : (تحكيم العقل) نقرة : (مفهوم

الملائكة) .

ومما يعجز العقل عن ادراك سره • وان سلم به وبأثره • والانسان لا يدرك الكهرباء وان أدرك أثرها • فأولى أن يسلم بسر الصنعة الحكيمة الى صانعها •

والاستاذ الامام نفسه ذكر في رسالة التوحيد ان المعجزة لا تخضع لقانون الأسباب والمسببات « والمعجزة ليست من النوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في اليجاد مما لم يتم دليل على استحالة • بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حالة المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف • فان قيل ان ذلك لا بد ان يكون تابعا لناموس آخر طبيعي قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضله على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعا لأي سبب اذا سبق في عمله أنه يحدثه كذلك •

المعجزة لا بد ان تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند اليها في دعواه أنه مبلغ عن الله فأصدر الله لها عند ذلك بعد تأييدا منه له في تلك الدعوى • فمتى ظهرت المعجزة - وهي مما لا يقدر عليه البشر - وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة « (١) •

(١) رسالة التوحيد ص ١٠٠ •

٥ - رأى الامام في القصة :

والاستاذ الامام يخرج القصة احيانا عن مدلولها الحقيقي التاريخي الى مدلول تشريعي وتأويل عقلي ، حتى يقبلها المنكرون ويصدق بها المكذبون .

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى : « واذا قتلتم نفسا فاداراهم فيها الله مخرج ما كنتم تكتمون » فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون » .

قال الامام في تفسيرها (١) « هذا هو اول القصة المحتوية على المخالفة وهي القتل ثم التنازع في القاتل . ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وتشديدهم في السؤال عن اوصافها ، فقوله تعالى : (واذا قتلتم نفسا فاداراهم فيها) اسند فيه القتل الى الامة ، وان كان القاتل واحدا باعتبار ما تقدم من كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع ، فمعناه التدافع وهو يدل على انه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرا عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ واهواء كتموا فيها الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة (والله مخرج ما كنتم تكتمون) اى من الايقاع ببرآة من تتهمونهم بالقتل لاختفاء القاتل لانه لا يخفى عليه مكرهم .

وأما قوله : (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى) فهو بيان لاجراج ما يكتمون . ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة قيل ان المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها . وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وقال : قتلنى اخى او ابن

(١) المنار ج ١ ص ٢٥٠ .

أخى فلان الخ ما قالوا . والآية ليست نصاً في مجمله فكيف بتفصيله . والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أى يحييها بمثل هذه الأحكام . وهذا الاحياء على نحو قوله تعالى ٥ : ٣٢ « وذن أحياءها فكالمأ أحياء الناس جميعاً » وقوله « وتكم في انحصار حياها » فالاحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . ثم قال « ويرىكم آياته » بما يفصل في الخصومات ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى ١٣ : ٥١ « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسوله (لعلمكم تعقلون) أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشرعية ، فلا تتوهموا أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت .

فالاستاذ الامام كما نرى يريد أن يفسر الحياة بأنها حياة معنوية . وفي هذا اخراج للفظ عن مدلوله الظاهر الى معنى متأول والحمل على الحقيقة أولى « ويجب أن نقف عند ما ورد في القرآن الكريم مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وافادتها لواقع هي تعبير صحيح عنه » (١) .

(١) فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت : تفسير سورة البقرة بمجلة رسالة الاسلام .

قال الأستاذ الامام « يقول أهل الشبهات في القرآن : ان بنى اسرائيل لا يعرفون هذه القصة اذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن » (١) ونقول : ان القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بنى اسرائيل المتأخرين : انهم نسوا حظا مما ذكروا به وانهم لم يؤتوا الا نصيبا الا من الكتاب . على ان هذا الحكم منصوص في التوراة وهو انه اذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب ان تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلاو يغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي . ثم يقولون ان أيدينا لم تسفك هذا الدم ، اغفر أشعبك اسرائيل ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين انه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء . فيحتمل ان يكون الحكم هو من بقايا تلك القصة او كانت هي السبب فيه .

وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ، ولا ه ذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه او أضاعوه وأظهروه الله تعالى .

وذكر تلميذه السيد الأستاذ رشيد رضا نص الحكم من التوراة فقال : « ان ما اشار اليه الأستاذ الامام من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

١ - اذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب الهك لتملكها واقعا في الحقل لا تعلم من قتله .

٢ - ويخرج شيوخك وقضااتك ويقيسون الى المدن التي حول القتيل .

(١) تفسير المنار ج١ ص ٢٤٧ .

٣ - فالمدينة القريبى من القتييل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرق عليها لم تجر بالنير .

٤ - وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلا ن لم يحرق فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى .

٥ - ثم يتقدم الكهنة بنى لاوى لانه اياهم اختار الأب الهك لىخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة .

٦ - ويفسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتييل ايديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى .

٧ - ويصرخون ويقولون : ايدينا لم تسفك هذا الدم واعيننا لم تبصره .

٨ - اغفر لشعبك اسرائيل الذى فديت يارب . ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك اسرائيل . فيفقر لهم الدم ا هـ (١) .

رد على الامام :

هذا « و نص ما ورد فى التوراة وهو صريح فى أن هذا التشريع وهو ذبح بفرة من أجل معرفة القتييل المجهول - كان معروفا عند بنى اسرائيل . فلا يمنع أن تكون آية القرآن تشير الى قصة تاريخية كانت أصل هذا التشريع عند بنى اسرائيل . وتعبير الآية نفسه صريح فى أن الاحياء فى قوله تعالى : « كذلك يحيى الله الموتى » احياء حقيقى بعد موت تسلب فيه الروح وليس احياء حكما يحصل بمعرفة القاتل والاقتصاص منه حتى يكون بمثابة « ولكم فى القصاص حياة » كما يريد الشيطان ، ولو كان الأمر

(١) تفسير النار ج١ ص ٢٤٨ .

كما يقرران لما صح تقرير احياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الاحياء الحكمى المجازى . ولو أن قائلا قال : « ان الله يحيى النفوس الجاهلة بالعلم ، وكذلك يحيى الموتى من قبورهم ، لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغا ، وان قوله تعالى « ويرىكم آياته » لوضح فى الاراء البصرية للآيات الكونية لا فى الاراء العقلية للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل « لتحكم بين الناس بما اراك الله » .

وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المبنى التشريعى فهذا الحمل تأويل منها ولكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب .

« والتأويل اذا كان لا يقضى على اصل دينى ولا يمس عقيدة ثابتة وهو فى الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيرا صادقا وكانت اللغة تسمح به فانه يكون مقبولا من الوجهتين الدينية واللغوية . واذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة ، صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض ايضا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلبيس من الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . اما اذا كان يقضى على اصل دينى أو يمس عقيدة فانه يكون مرفوضا ايضا من الوجهة الدينية » (١) .

٦ - رأى الامام فى الجن والسحر وتقديس الاولياء :

والاستاذ الامام مقتنع تماما بأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المستنير لا يجتمعان فى دماغ واحد ، فلا يمكن أن يشتمل القرآن

(١) مجلة رسالة الاسلام ص ٢٢٦ العدد الثالث السنة الاولى موضوع تفسير سورة البقرة للاستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت .

على شيء من الخرافات ولا يمكن أن يتعارض القرآن مع العقل
الرشيد .

ولذلك فانه .هاجم كثيرا من الخرافات الشائعة بين جماهير
العامة من المسلمين : عن الجن والسحر والحسد والشفاعة وكرامات
الاولياء .

وكان متأثرا في ذلك بإبراز الاسلام في صورة جميلة متحضرة
من جهة ونتلاءم مع التفكير الاستشراقي الذي يحترم العقل ويعتمد
عليه ولا يقبل من الأشياء الا ما طابق طرق البحث العلمى من
جهة اخرى :

١ - الجن :

والجن تحدث عنهم القرآن ، ولكن لم يتحدث عنهم بالكثرة
التي تحدث بها عن الانسان . فان القرآن يهدف في حديثه عن
الانسان الى بيان ان الدنيا كلها خلقها الله من اجل الانسان ،
وسخر له كل ما في الكون واقدره على الانتفاع به . وميزه بميزة
العقل والتفكير وجعل طاعة الانسان لله تفضل جميع الطاعات لأنها
صادرة عن عقل و ارادة .

فاذا تحدث القرآن بعد ذلك عن الجن أو الملائكة أو غيرهما
فانه يتحدث عنهم على أنهم شيء ثانوى في هذا الكون .

ولكن الخرافات التي كانت تدور في أذهان العامة عن قدرة الجن
على التلبس بالأشخاص ، والاستعانة بهم في مهام الأمور وفي عقد
المحبة بين الزوجين ، وفي القدرة على عمل غرائب الأشياء جعلت
الزار ينتشر بين جماهير العامة ، فضلا عن الخاصة ، والزار
بدعة تدور على وهم خاطيء واعتقاد أن الجن يتلبسون جسم

المريض ، خصوصا المرضى بالأمراض العصبية ، ولا تخرج الجن
الا بتقديم الضحايا وعمل حفلات اللطيل والرقص وما يتبع ذلك
من مساخر .

وقد كان الأستاذ الامام منهجيا في بيانه لحقيقة الجن :

فهو لم يقل بما قال به بعض المعتزلة من انكارهم للجن
أو انكار أى أثر لهم بالكلية في هذا الكون ، وانما شدد النكير على
الخرافات التى تتصل بالجن . وجوز ان يكون لهم أثر فيما يسمى
بالصرع ، بل انه ذكر اكثر من مرة في تفسيره ان الجن يمكن ان
تطلق على الميكروب الخفى الذى يسبب كثيرا من الأمراض . فعند
تفسيره لقوله تعالى : « ان الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما
يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ، يقول « وأما قيام آكلى
الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس فقد قال ابن عطية
في تفسيره : المراد تشبيه المراهى في الدنيا بالتخبط المصروع كما
يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جن » وهو قول ظاهر في نفسه
فان اولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضربت نفوسهم
بجمعه وجعلوه مقصودا لذاته وتركوا لأجل الكسب به جميع
موارد الكسب الطبيعى أخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر
الناس ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم ، كما نراه في
حركات المونعين بأعمال البورصة والمفرمين بالقمار يزيد فيهم
النشاط والانهماك في أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير
منتظمة . وهذا وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط المسوس ،
فان التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم كخبط العشواء » .

« ثم ان التشبيه مبنى على أن المصروع الذى يعبر عنه
بالمسوس يتخبطه الشيطان أى أنه يصرع بمس الشيطان وهو
ما كان معروفا عند العرب وجاريا في كلامهم مجرى المثل . قال

البيضاوى في التشبيه : وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء ، اهـ . وتبعه ابو السعود كعادته فذكر عبارته بنصها .

فأية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفي ذلك . وفي المسألة خلاف بين العلماء . أنكر المعتزلة وبعض اهل السنة ، أن يكون للشيطان في الانسان غير ما يعبر عنه بالوسوسة ، وقال بعضهم : ان سبب الصرع من الشيطان كما هو ظاهر من التشبيه ، وان لم يكن نصا فيه ، وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التي تعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديث . وقد يعالج بعضها بالأوهام ، وهذا ليس برهانا قطعيا على أن هذه المخلوقات الخفية التي يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع . فتكون من أسبابه في بعض الأحوال . والمتكلمون يقولون ان الجن أجسام حية خفية لا ترى ، وقد قلنا في (المنار) غير مرة : انه يصح أن يقال : ان الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن . وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض ، قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة الى النزاع فيما أثبتته العلم وقرره الأطباء ، أو اضافة شيء اليه مما لا دليل في العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية فنحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم (١) .

(١) تفسير المنار ج٢ ص ٩٦ .

رؤية الجن :

والأستاذ الامام يذهب الى عدم امكان رؤية الجن وهو قول قاله الزمخشري من قبل عند تفسير قوله تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما لانه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » .

يقول : « لا يفتننكم الشيطان » لا يمتحنكم بألا تدخلوا الجنة كما محن ابويكم بأن اخرجنا منها « ينزع عنهما لباسهما » حال : أي اخرجهما نازعا لباسهما بأن كان سببا في أن نزع عنهما « انه يراكم هو » تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجي يكيدكم ويفتالكم من حيث لا تشعرون . وعن ملك بن دينار : ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصم الله « وقبيله » وجنوده من الشياطين وفيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للانس وان اظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم وان زعم من يدعى رؤيتهم زورا ومخرقة « (١) » .

ويعلق أحمد بن المنير على كلام الزمخشري مسفها رأيه مؤيدا رؤية الجن فيقول « أين يذهب به كما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض ابليس رأسهم ومقدمتهم النبي صلى الله عليه وسلم يروم أن يشغله عن صلاته حتى أمكنه الله منه فأخذه عليه الصلاة والسلام، وأراد أن يربطه الى سارية من سوارى المسجد ، يلعب به الصبيان . حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه . واذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كان جائزا لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرامة . لكن الزمخشري يصده عن ذلك

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٩٥ .

جعلده لكرامة الأولياء لأنه عقيدة اخوانه ، اذ الكرامة انما يؤتاها
الولى الصادق فكيف يتاها من يشك فى اسلامه فانهم لفى عذر
من جعلها والتكذيب بها ، رزقنا الله الايمان بالكرامات وان لم
نكن لها اهلا والله الموفق .

وانت ترى ان ابن المنير مبالغ فى حملته على الكشاف . وقد
حملة على ذلك تعصبه لمذهب اهل السنة ضد المعزلة .

ولو انصف لنظر الى الآية وحدها فوجدما صريحة فى ان الجن
لا يرون .

واما الحديث الذى أورده فهو حديث صحيح اخرجـه
البخارى (١) . ولكنه خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم فيقتصر
عليه . والا فهل يلزم من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه
ليلة الاسراء والمعراج ان يراه المسلمون فى هذه الدنيا ؟ .

ان رؤية الجن امر خارق للعادة ، وقد ورد الحديث بحصوله
لنبي صلى الله عليه وسلم فيوقف عنده ولا يتعداه الى غيره
« وان اختلفتم فى شيء ، فردوه الى الله » .

(ب) السحر :

لم يعترف الأستاذ الامام بالسحر على أنه جزء من العقيدة
الدينية . بل صرح بأن السحر من الأمور العادية والعلوم الانسانية،
فهو متروك الى بحوث الناس . وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحاتهم
لحقائمه .

والقرآن الكريم قد ذكر السحر واثره فى قوله تعالى :
« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن

(١) البخارى المعجل فى المجلد رقم ١٠ .

الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنـة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله • ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » •

ولكن ذكر هذه القصة في القرآن لا يقتضى أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحا ، فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم اثبات ما يعتقد الناس منه ، كما أن نسبة الكفر الى سليمان التى علمت من النفى لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذكرها في سياق النفى •

وقد بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وأنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضح العبرة ولا تتجاوز ، وطن الهداية ، ولا بد أن يأتى في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح • وقد يأتى في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة كقوله : « كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (١) وكقوله : « بلغ مطلع الشمس » وهذا الأسلوب مألوف ، فأننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لاسيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ، ولا يعتقد أحد منهم

(١) انظر صفحة ١٠٥ - ١٠٨ من هذا البحث •

شيئا من تلك الخرافات الوثنية . ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء ، ولا يعتقدون ذلك وإنما يعبرون عن المرئي .

جاء ذكر السحر في مواضع متعددة في القرآن وأكثره في قصة موسى وفرعون ، وذكر هنا في الكلام عن اليهود . وإذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا أن السحر عند العرب كل ما لطف مأخذه ودق وخفى وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه وعلله ، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر ، وفي الحديث الصحيح « أن من البيان لسحرا » والسحر بالفتح وبالتحريك الرثة وهي أصل هذه المادة والرثة في الباطن فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدي إليه غير أهله فهو باطن ، ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع في نفس الأمر ، فالواقع باطن خفى ، وتأثير العيون في عشاق الحسان ، والكلام البايخ في عشاق البيان مما يخفى مسلكه ويدق سببه حتى يصير على أكثر الناس الوقوف على العلة في تأثيره .

وقد وصف الله السحر في القرآن بأنه تخيل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائنا ، فقال : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » والكلام في حيل السحرة وعصيمهم ، وفي آية أخرى : « سحرُوا أعين الناس واسترهبوهم » وفي هذه الآية التي تفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك » .

ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يرفها بعض الناس ويجهلها الآخرون

فيسمون العمل بها سحرا لخداع سببه ولطف مأخذه . ويمكن ان يعد منه تأثير النفس الانسانية في نفس اخرى لمثل هذه العلة . وقد قال المؤرخون ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصور الحيات والشعابين وتخيل انها تسعى .

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم واسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن وأنهم يحضرون اذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعي . ولمثل هذا الكلام تأثير في اثاره الوهم عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم ان الشياطين يستجيبون لقارنه ويطيعون امره ، ومنهم من يعتقد ان فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية ، وانما تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير ارادته . وهذا هو السبب في اعتقاد الدهماء ان السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وارواح الكواكب ، وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر وفي احكامه ، وعده بعضهم من خوارق العادات وفرقوا بينه وبين المعجزة ولم يذكروا في فروقهم ان السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو امر عادي قطعاً بخلاف المعجزة (١) .

مناقشة راي الأستاذ الامام في السحر :

يذهب الأستاذ الامام كما شاهدنا الى أن السحر تخيل وخداع للعين واينس حقيقة لقوله تعالى : « سحرُوا أعين الناس » ونقول له اذا جاز على الساحر ان يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به ، مع ان هذا تغيير في احساسهم فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض امراضهم وقواهم

(١) تفسير المنار ج١ ص ٣٩٩ وما بعدها .

وطباعهم ، وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن ؟ فإذا كان احساسه قد تغير حتى يرى الساكن متحركاً ، والمتصل منفصلاً ، والميت حياً ، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب اليه بفيضاً والبيض محبوباً وغير ذلك من التأثيرات . وقد قال تعالى عن سحرة فرعون انهم ٧ : ١١٥ « **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** » وذلك يوضح أن أعينهم سحرت ، وذلك اما ان يكون لتغير حصل في المرئي وهو الحبال والعصى مثل ان يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين ، فظنوا انها تحركت بنفسها . وهذا كما اذا جر من لا تراه حصيراً او بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له ، مع انه هو الذي يجره ، فهكذا حال الحبال والعصى التبستها الشياطين فقلبتا كتقليب الحياة فظن الرائي انها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبونها . واما ان يكون التغيير حدث في الرائي ، حتى رأى الحبال والعصى تتحرك ، وهي ساكنة في انفسها . ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف في نفس الرائي واحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف في المرئي باستعانتهم بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف بها .

وأما قول الأستاذ الامام ، ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصورة الحيات . فانه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً ، بل حركة حقيقية ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحراً بل صناعة من الصناعات المشتركة . وقد قال تعالى : ٢٠ : ٦٦ « **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** » ولو كانت تحركت بنوع حيلة - كما يقول الأستاذ الامام - لم يكن هذا من السحر في شيء .

وايضا لو كان ذلك بحيلة لكان طريق ابطالها اخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال ولم يحتج الى القاء العصا لابتلاعها .

« وايضا فمثل هذه الحيلة لا تحتاج فيها الى الاستعانة بالسحرة بل يكفي فيها حذق الصانع . ولا يحتاج في ذلك الى تعظيم فرعون للسحرة ، وخضوعه لهم ، ووعدهم بالتقريب والجزاء ، وايضا فانه لا يقال في ذلك ٢٠ : ٧١ ٢٦ : ٤٩ » انه لكبيركم الذي علمكم السحر « فان الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها » (١) .

والاستاذ الامام يذهب الى ان السحر لا اثر له في المرض او الحل او العقد ، وانما هو الوهم الذي يحل بالنفوس والاعتقاد الخرافي المنتشر بين العامة في السحرة هو الذي يؤثر فيهم .

ولا انكار على ان الوهم له اثر كبير في المرض والحب والبغض ولكن هذا لا يمنع ان السحر في حد ذاته حقيقة قائمة بذاتها وهو يؤثر - من غير وهم في المرض والثقل والعقد والحب والبغض والنزيف وغير ذلك من الآثار الموجودة والملموسة بالمشاهدة بين الناس .

والله تعالى قال : « ومن شر النفاثات في العقد » وهذا دليل على ان النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل الا بمباشرة البدن ظاهرا ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه (٢) .

(١) تفسير سورة الكافرون والمعونتين للامام ابن القيم بتصرف ص ٥٢ مطبعة السنة المحمدية .

(٢) تفسير سورة الفلق للامام ابن القيم .

رأى الأستاذ الامام في النفاثات في العقد :

يذهب الأستاذ الامام الى تأويل النفاثات في العقد ، بالنمامين والمفسدين بين الناس . كما يذهب الى رفض الحديث الذي يذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام قد سحر . ويؤول السحر بالطرق الخفية التي تفسد بين الزوجين وتفرق بين المتحابين . فيقول : « والمراد (١) بالنفاثات في العقد . النمامون المقطعون لروابط الألفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم . وانما جاءت العبارة بالنفاثات في العقد لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين اذا أرادوا أن يحلوا عقلة المحبة بين المرء وزوجه مثلاً فيما يوهمون به العامة عقدوا عقداً ثم نفثوا فيها وحلوا ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين ، والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خفية كاذبة . والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الفاسق اذا وقب ، ولا يسفل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وانت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول ، واذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه فلا بد لك من قوة اعظم من قوتك تستعين بها عليه وهي قوة الله . وقد رووا ههنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره ليبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء وهو لا يفعله او يأتي شيئاً وهو لا ياتيه وان الله انبأ بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بشر وعوفي صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

(١) تفسير جزء عم تأليف الأستاذ الامام الشفيخ محمد عتيق من ١/١٢ .

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية بل هو ماسر بالعقل آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه « ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً » وليس بالمسحور عندهم الا من خولط في عقله وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع فيخيل إليه أنه يوحى إليه وهو لا يوحى إليه ، وقد قال الكثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها أن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من انكار السحر وقد جاء القرآن بصحة السحر ، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح في نظر المقلد بدعة نعوذ بالله .

يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك مع أن الذي قصده المشركون ظاهر لأنهم كانوا يقولون أن الشيطان يلبسه عليه السلام ، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد فإنه قد خالط عقله وإدراكه في زعمهم . والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به . وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبت به وعدم الاعتقاد بما ينفيه . وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه . وويخيم على زعمهم هذا فاذن ليس النبي بمسحور قطعاً ، وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد الآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد

لا يؤخذ في نفيها عنه الا باليقين . ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والظنون ، على ان الحديث الذي يصل اليها من طريق الأحاد انما يحصل الظن عند من صح عنه اما من قامت له الأدلة على انه غير صحيح فلا تقوم عليه حجة . وعلى أي حال قلنا . بل علينا أن نفرض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا وناخذ بنص الكتاب وبديل العقل ، فإذا اذا خولط النبي كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه والأمر ظاهر لا يحتاج الى بيان . ثم ان نفي السحر عنه لا يستلزم نفي السحر مطلقاً فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه لأن الله عصمه منه ، ما اضر المحب الجاهل وما اشد خطره على من يظن أنه يحبه ، نعوذ بالله من الخذلان . على ان نافي السحر بالمرة لا يجوز أن يكون مبتدعاً لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله : (آمن الرسول) الآية . وفي غيرها من الآيات ، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلماً ، ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على أنه ما يجب الايمان بشبوته أو وقوعه على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون في كل ملة . بل الذي ورد في الصحيح هو ان تعلم السحر كفر ، فقد طلب منا الا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه ، وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع مختلفة ، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ، فان السحر في اللغة معناه صرف الشيء عن حقيقته ، قال الفراء في قوله تعالى « فأتى تسحرون » أي انى تؤفكون وتصرفون . سحره وافكه واحد . وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذي فرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التي تصرف الزوج عن زوجته والزوجة عن زوجها ؟ وهل يبعد أن مثل هذه الطرق ما يتعلم وتطلب له الاساتذة ونحن نرى أن كتباً

الفت ودروساً تلقى لتعليم اساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة في بعض الحكومات ؟ وقد يكون ذكره المرء وزوجه من قبيل التمثيل واطهار الأمر في اقبح صورة أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الافساد أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه . وسياق الآية لا ياباه ، وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الانس المنافقين بالشياطين فقال : « واذا خلوا الى شياطينهم » وقال : « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض » وسحر سحرة فرعون كان ضرباً من الحيلة ، ولذلك قال : « يغفل اليه من سحرهم انها تسعى » وما قال انها تسعى بسحرهم قال يونس تقول العرب ما سحرك عن وجه كذا ، أى ما صرفك عنه . ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ويعرفون من اللغة ما يكفى لعاقل ان يتكلم ما هذروا هذا الهذر ولا وصموا الاسلام بهذه الوصمة . وكيف يصح ان تكون هذه السورة نزلت في سحر النبي صلى الله عليه وسلم مع انها مكية في قول عطاء والحسن وجابر ، وفي رواية كريب عن ابن عباس . وما يزعمونه من السحر انما وقع في المدينة لكن من تعود القول بالمحال ، لا يمكن الكلام معه بحال ، نعوذ بالله من الخيال (١) .

مناقشة رأى الأستاذ الامام في الثغافات في العقد :

رأيت مما نقلته من تفسير الأستاذ الامام للسحر أنه ركز اهتمامه على ثلاثة أشياء هي :

١ - دفع السحر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) تفسير جزء عم ص ١٨٦ .

٢ - التهوين من قيمة الحديث الوارد في سخره صلى الله عليه وسلم والتشكيك في صحته .

٣ - حمل السحر على الأمور المعنوية والافساد بين الناس .
ونحن سنناقش هذه الأمور الثلاثة .

هل سحر النبي صلى الله عليه وسلم :

ونحن معه في أنه صلى الله عليه وسلم لم يسحر السحر الحقيقي الذي يصل به إلى الجنون كما قال الكفار « معلم مجنون » .

ولكننا نرى أنه أصيب بنوع من الهم أو الثقل والكدر امتحانا له عليه السلام . فقد تعرض الأنبياء والمرسلون لكثير من المحن والشدائد ، فقد خرج آدم من الجنة ، ومكث نوح مع قومه مئات السنين ويئس منهم ، وألقى في النار إبراهيم ، وأضجع للذبح إسماعيل ، وأبتلع الحوت يونس ، وأبتلى أيوب وكان رمزا للبلاء والصبر ، وذهب اليهود ليصلبوا المسيح ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

وتعرض النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من البلاء في مكة ، فخنقه عقبه بن أبي معيط . وحوصر في شعب بني هاشم . وذهب إلى الطائف وبها قبائل ثقيف فلقي أشد وأعنت مما لقي من أهل مكة ، ومكر به الذين كفروا ليقتلوه أو يشبهوه أو يخرجوه فنجاه الله بالهجرة . وقد حارب وقاتل وأصيب في أحد . وانتدش شقه ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته وتخضب وجهه الشريف بالدم .

فليس بعيد أن يصيبه بعض الأذى والهم والثقل من صنيع

هؤلاء اليهود امتحانا من الله له ورفعا لدرجاته كما قال عليه الصلاة والسلام « استمدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأئمة فالأئمة » .
يبتلى الرجل على حسب دينه فإذا كان قويا في دينه قوى به البلاء وإذا كان رقيقا في دينه رق به البلاء ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة ، فكانت أصابته من اليهود امتحانا له وابتلاء له عليه السلام وأملاء لأعدائه حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وأما أن القرآن نفى عنه السحر ، فنحن سلمنا مقدما أنه لم يكن سحرا أثر في عقله . وهذا ما نفاه القرآن ولكن نقول أنه أصيب عليه السلام بنوع من المرض ، ولا نقص في ذلك ولا عيب . فإن المرض جائز على الأنبياء وكذلك الأغماء ، فقد أغمى عليه صلى الله عليه وسلم . وأصيب كثير من الأنبياء والمرسلين بالقتل والضرب والشتيم والحبس ، وقال الله تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . فليس ببدع أن يبتلى عليه الصلاة والسلام بنوع السحر لا يؤثر في عقله وإنما يؤثر في بدنه . وهذا هو قول صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى : « وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا » : « سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرلة عنوا أنه بشر لا ملك ويرشحه أن الآية السابقة تقول « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق » أي أنه بشر مثلكم » (١) . فالقرآن نفى عنه أن يكون أصيب بسحر أو جنون يفسد عقله بحيث لا يدري ما يقول ، فأما لو أصيب في بدنه بمرض من أمراض البدن فإن ذلك لا يمنع من اتباعه .

وأعداء الرسل لم يقدفوه بأمراض البدن — وإنما قدفوه بما يحذرون سفهاءهم من اتباعهم ، وهو أنهم مسحورا حتى صاروا

(١) الكشاف ج ٢ ص ٨٩ .

لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى (١٧ : ٤٨) :
« انظر كيف ضربوا الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا »
 مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى ، والمجنون مرة والمسحور أخرى .
 فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقا يسلكه
 فلا يقدر عليه . فانه أى طريق اخذها فهي طريق ضلال وحيرة فهو
 متحير في أمره لا يهتدى سبيلا ، ولا يقدر على سلوكها ، فهكذا
 حال أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، حتى ضربوا له
 أمثالا ، برأه الله منها ، وهو أبعد الناس عنها . وقد علم كل عاقل
 انها كذب وافتراء وبهتان « (١) » .

حديث السحر :

واما الأمر الثانى : الذى أراد الأستاذ الامام أن يشبته ، وهو
 التهوين من قيمة حديث سحره عليه الصلاة والسلام والتشكيك
 فى صحته .

فنحن ننقل ما يثبت صحة الحديث ويؤيد قوته :

١ - روى البخارى - فى باب هل يستخرج السحر - من
 حديث ابن عيينة قال : « اول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى
 آل عروة عن عروة . فسالت هشاما فحدثنا عن أبيه عن عائشة :
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتى
 النساء ولا يأتين . قال شعبان وهذا اشد ما يكون من السحر .
 اذا كان كذا فقال : يا عائشة ، أعلمت ان الله قد افتانى فيما
 استفتيته فيه : أتانى رجلان فقعده أحدهما عند رأسى والآخر عند
 رجلى فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : محبوب
 قال : ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بنى زريق حليف

(١) تفسير سورة الفلق للامام ابن القيم الجوزية .

اليهود وكان منافقا . قال : وفيه ؟ قال : في مشط ومشاقه . قال
وأين ؟ قال : في جف طلع ذكر ، تحت زاعوفة في بئر ذروان .
قال فأتى البئر حتى استخرجه . فقال هذه البئر التي رايتها وكان
ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين . قال :
فاستخرج قالت . فقلت : أفلا - أي تنشرت - ؟ قال : أما الله
فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا .

« هذا هو الحديث الذي رواه البخاري ، وهو ثابت عند أهل
العلم بالحديث لا يختلفون في صحته ، وقد اتفق أصحاب
الصحيحين على تصحيحه . ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث
بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث
والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه » (١) .

٢ - وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا أبو معاوية عن
الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبي
صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما . قال :
فاتاه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لذلك عقدا .
فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاستخرجها فجاء
بها . فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله
صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال فما ذكر ذلك لليهود ،
ولا رآه في وجهه قط » .

٣ - وقال ابن عباس وعائشة : « كان غلام من اليهود يخدم
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدنت إليه اليهود . فلم يزالوا
حتى أخذ مشاط رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان

(١) التفسير القيم لابن القيم - سورة الفلق .

من مشطه . فأعطاهما اليهود فسحروه فيها . وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود ، فنزلت هاتان السورتان فيه » .

قال البغوي : « وقيل كانت مغروزة بالابرة ، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين وهما إحدى عشر آية . سورة الفلق خمس آيات . وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها . فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال » قال وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت الموءذتان .

وأنت ترى أنه لو استمر سحره عليه الصلاة والسلام ستة أشهر لكان ذلك سببا في نفرة الناس وتشهير المشركين به في هذه المدة . حتى يبتعد عنه المسلمون .

وهذا يؤيد أن الذي استمر به بعض الهم الذي يصيب البدن ابتلاء له عليه السلام ورقعا لدرجاته .

وإذا صح الحديث السابق وأنه نزل من أجل تلك العقد إحدى عشرة آية . كان المراد بالنفاثات في العقد الساحرات حقيقة ، فالحمل على الحقيقة أولى من الحمل على المجاز خاصة وأن حديث ابن عباس وعائشة رشح الحمل على الحقيقة وهي أن النفاثات في العقد هن الساحرات .

موافقة رأي الامام الزمخشري :

والزمخشري - من قبل الأستاذ الامام - قد أنكر حقيقة السحر ونفى تأثيره وأول النفاثات في العقد وأجاب عن معنى الاستعاذة منهن بواحد من ثلاثة .

« أحدهما أن يستعاذ من عملهن الذي هو صفة السحر ومن
اثمن في ذلك .

والثاني أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعهم
به من باطلهن .

والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن
ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله أن كيدهن عظيم
تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد أو اللاتي يفتن الرجال
بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك « (١) .

وقد علق على كلامه هذا أحمد بن المنير بقوله : « إن مذهب
المعتزلة انكار حقيقة السحر ، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه
والأمر بالتعوذ منه . وقد سحر صلى الله عليه وسلم في مشط
ومشاة في جف طلعة ذكر والحديث مشهور وإنما الزمخشري
استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويفطى
بوجهه كف الغزالة . ولو فسر غيره النفاثات في العقد بالمتخيلات
من النساء ولسن ساحرات حتى يتم انكار وجود السحر لعد من
بدع التفاسير .

ونستطيع أن نوجز آراء الامام في السحر والنفاثات في العقد
فيما يلي :

١ - السحر ليس جزءا من العقيدة الدينية بل هو من الأمور
العادية والعلوم الانسانية متروك الى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم
عنه وتوضيحهم لحقائقه .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٤٤ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ .

٢ - جاء ذكر السحر في سورة البقرة ولا يستلزم ذلك اثبات ما يعتقد الناس منه . فالقرآن قد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله تعالى : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس » .

٣ - جاء ذكر السحر في القرآن في مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين :

(أ) اما حيلة وشعوذة .

(ب) واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الآخرون فيسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه ولطف مأخذه ويمكن أن يعد منه تأثير نفس في نفس أخرى .

٤ - السحر تخيل وخداع للأعين وليس حقيقة ولذلك قال سبحانه : « يغفل اليه من سحرهم أنها تسعى » .

فسحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخيل أنها تسعى .

٥ - اعتماد من يتخذ السحر وسيلة ان يستعين بأسماء الجان والشياطين فيعتقد الدهماء انه يستعين بهم ويلقى ذلك في روعهم وهذا الوهم يصنع صنع السحر .

ولا يستطيع الساحر ان يؤثر الا في شخص عزيزته هباء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه ، فينتهز ذلك الساحر ليوهمه بما يشاء .

الامام ينفي أن يكون الرسول قد سحر :

وهذا موجد لأدلته :

١ - القرآن نفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم فهو ليس
بمسحور قطعا .

٢ - حديث سحره عليه السلام حديث آحاد والآحاد لا يؤخذ
بها في باب العقائد لأن عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من تأثير
السحر في عقله عقيدة من العقائد ولا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين .
فعلينا أن نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص
الكتاب .

٣ - نافي السحر بالمرّة لا يصح أن يكون مبتدعا لأنه لم يأت
شئ يوجب الايمان بالسحر على الوجه الذي يعتقده الوثنيون
في كل ملة .

٤ - المراد بالنفاثات في العقد نفث المفسدين سمومهم بالكلب
والغيبة والنسيمة وقالة السوء في عقد الصلوات بين الناس حتى
يفكوا عرى الزوجية والمودة والرحمة وغيرها . وشر هذا في الناس
أكثر جدا من شر من يقولون انهم سحرة .

وقد ناقشت رأي الامام في شيئين :

١ - السحر عموما .

٢ - سحر الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصا .

فالامام يريد أن ينفيهما . وقد رأيت ثبوتهما .

(١) ثبوت السحر :

١ - السحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت
به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفقهاء ،
والسحر يؤثر مرضا وثقلا وعقدا وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك

من الآثار الموجودة والتي تعرفها عامة الناس ، وكثير قد علمه ذوقا بما أصيب به .

٢ - بين الامام ان السحر تخيل للعين .

وقلنا في الرد عليه اذا جاز على الساحر ان يسحر جميع عيون الناظرين وبغير احساسهم حتى يروا الساكن متحركا والمتحرك ساكنا جاز ان يغير صفات النفس حتى يجعل المحبوب اليها بغيضا والبغيب محبوبا .

٣ - نقل الامام ان السحرة فعلوا بالحبال ما اوجب حركتها ومشيتها مثل الزئبق وغيره حتى سعت وهذا مردود من وجوه .

(ا) لو كان عمل السحرة ينحصر في دهن الحبال بالزئبق لما احتيج الى القاء العصا لابتلاع الحبال بل كان يكفي اخراج ما في الحبال من الزئبق وغيره . وذلك يكون اوقع في ابطال عمل السحر . وتبين ان عملهم من الوهن والضعف بحيث يكفي لابطاله ان يتقدم اى انسان فيزيله من على الحبال .

(ب) قال تعالى حكاية عن السحرة : « فلما اتقوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » .

فبين سبحانه ان اعينهم سحرت وذلك اما ان يكون لتغيير حصل في المرئى او لتغيير حصل في المرئى .

والساحر يفعل هذا وهذا . فتارة يتصرف في نفس المرئى واحساسه حتى يرى الشئ بخلاف ما هو به . وتارة يتصرف في المرئى باستعانتة بالارواح الشيطانية حتى يتصرف فيها .

(ب) ثبوت سحره عليه افضل الصلاة والسلام :

١ - ثبت سحره عليه الصلاة والسلام بالروايات الصحيحة المتعددة .

٢ - قال الامام ان سحره عليه السلام يخالف القرآن لانه قد نفى عنه السحر . والجواب ان القرآن نفى عنه السحر الذى يصيب عقله بالخيل والجنون . قال الكشاف المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه (٤٤ : ١٥) « معلم مجنون » .

والحديث اثبت السحر الذى يصيب الجسم بنوع من الثقل او المرض بحيث لا يمنع ذلك من اتباعه عليه الصلاة والسلام ، فلا تعارض بينهما .

٣ - قال الامام ان سحر الانبياء ينافى حماية الله لهم .

والجواب انه سبحانه يمتحن عباده واوليائه واصفياءه كما يمتحن انبياءه ورسله بايذاء قومهم لهم بالضرب او القتل او السحر الذى يوهن الجسم . رفعاً للانبياء في درجاتهم واملاء للكفار حتى تمتلئ صاعهم فيستحقوا ما اعد لهم .

ويتضح لك ان الخلاف بيني وبين الامام ليس على سحر الرسول عموماً بل على سحر موجه الى جسم الرسول دون عقله . فبيننا عموم وخصوص مطلق ، فقد اجتمعنا على نفى السحر عن عقل الرسول صلى الله عليه وسلم وانفرد الامام بنفى السحر عن الرسول في بدنه . وانفردت انا باثبات سحر الرسول في بدنه عليه الصلاة والسلام .

٤ - ومذهب الاشعرية ان للسحر تأثيراً حقيقياً وليس كله حيلة ومنه انه اثر في جسم النبي صلى الله عليه وسلم وخیاله دون

عقله وروحه فكان يخیل اليه انه اتى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد(١) .

وذلك ما يعبر عنه في ايماننا بالرباط (وهو عدم القدرة على اتیان النساء) وذلك أمر يتعلق بالجسم والخیال لا بالعقل والروح .

وأرى ان الأستاذ الامام كان متأثرا في نفيه السحر على الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة أمور .

١ . محاولة اظهار الاسلام امام المستشرقين والمتمدینين بمظهر الدين العلمی المنهجی الذي لا يعترف بالسحر ولا بالخرافة .

٢ . وجد الامام في آراء المعتزلة تراثا عقليا وذخيرة فكرية فهم يرفضون الايمان بالسحر والكهانة والشفاعة وكرامات الاولياء .

ويؤولون النصوص الدينية التي تثبتها ، وقد سار الامام على طريقهم .

٣ . لما كان هدف الامام من انكار السحر محاربة الخرافة واظهار الاسلام بأنه دين العقل ، واعترض طريقه حديث صحيح قال انه حديث آحاد « والحديث الذي يصل الينا عن طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به حجة » وعلى فرض صحته يؤول أو يفوض الأمر فيه « (٢) .

» وغره ان المقلدين يسلمون له بالتأويل ولو متكلفا ، ونسى

(١) تفسير المنار ج٩ ص ٥٩ حاشية .

(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤ .

أن أعداء الاسلام ومستقلي الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل
المتكلف الذي لا يطمئن له القلب «(١)» .

سنة حديث السحر :

إذا رجعنا الى كتب الحديث نجد أن حديث السحر الذي
ذكرناه مروي بأصح الأسانيد . فان سننه هشام بن عروة عن أبيه
عن عائشة . وهذا السند من أصح الأسانيد المروية عن عائشة
! رضى الله عنها (ان لم يكن أصحها «(٢)» .

والعلماء يقسمون السنة باعتبار سندها ثلاثة أقسام :

١ - المتواترة :

وهي ما رواه في العصور الثلاثة جمع تحيل العادة تواطؤهم
على الكذب لكثرتهم وتباعد أماكنهم وهذا النوع قطعي الثبوت عن
النبي صلى الله عليه وسلم فيفيد علما يقينا . ويجب العمل به
ويكفر جاحده ومنه كثير من السنن الفعلية : كالذي روى في كيفية
الوضوء والصلاة والصوم والحج وغير ذلك مما يطالع عليه جمهور
الناس فينقله جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب الى أمثالهم ثم ينقله
عن هؤلاء مثليهم ويندر أن يقع هذا في السنن القولية وقد مثلوا له
بقوله صلى الله عليه وسلم (من كذب على متعمدا فليتبوا مقعده
في النار) .

(١) تفسير المنار ج٩ ص ٥٩ حاشية .

(٢) كتاب الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن

كثير ، تحقيق الاستاذ احمد محمد شاكر .

٢ - المشهورة أو المستفيضة :

وهي ما رواه من الصحابة عدد لا يبلغ حد التواتر ثم تواتر في عهد التابعين وتابعيهم ، وهو عند الحنفية يفيد ظنا قريبا من اليقين لأن الأمة تلقته في عهد التابعين بالقبول . فكان قطعي الثبوت عن الصحابي . وإذا لم يكن متواترا في عهد الصحابة فالراجع في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نالوا شرف الصحبة التنزه عن وصمة الكذب . فيجب العمل به ولا يكفر جاحده وبه ينخص عام الكتاب ويقيد مطلقه وهو كثير فمنه حديث « إنما الأعمال بالنيات » . وحديث « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها الخ » . وهو مخصص لعموم قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » .

٣ - خبر الأحاد :

وهو ما رواه عدد لا يبلغ حد التواتر في العصر الأول وغيره . ولا عبرة بما بعد العصور الثلاثة وهو لا يفيد علما بل ظنا ، ويجب العمل به متى تحققت شروط قبوله .

شروط قبول الخبر :

لقبول خبر الأحاد شروط في الراوي وشروط في لفظ الخبر وشروط في معناه .

فيشترط في الراوي لصحة التحمل التمييز والضبط : فلا يصح تحمل الصبي غير المميز ومن في معناه لعدم ضبطه لما يسمع أو يرى .

ويشترط في الراوي لصحة الأداء :

(١) البلوغ .

(ب) الاسلام •

(ج) العدالة •

(د) الضبط •

ويشترط في لفظ الخبر ألا يحذف الراوي منه ما يتوقف تمام المعنى عليه ، ففي مثل حديث عبادة بن الصامت « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب .. إلا سواء بسواء عينا بعين » •

لا يصح للراوي أن يحذف الاستثناء الأخير والا أفسد المعنى •

ويشترط في معنى الخبر ألا يعارضه ما هو أقوى منه من آية أو حديث متواتر أو مشهور • واشترط الكرخي وبعض الحنفية ألا يكون موضوع الحديث مما تعم به البلوى ، إذ لو كان كذلك لذاع واشتهر ، فعدم ذبوعه حينئذ يورث شكاً •

والأكثرون على قبول خبر الواحد ولو كان فيما تعم به البلوى لاطلاق النصوص الدالة على وجوب العمل بالخبر واتفاق الصحابة على العمل به في ذلك (١) •

والاستاذ الامام يعمل بالسنة العملية والمشهورة • ويقبل خبر الأحاد بالشروط السابقة ويضيف إليها أن يكون معناه مما يقبله المجتهد ويرى لنفسه حق الاجتهاد • وحق قبول الخبر ورفضه « (٢) » •

وقد وضحت أن معنى حديث السحر لا يعارض القرآن لأن حديث السحر خاص بالجسم والخيال ، والقرآن بالعقل والروح ،

(١) اصول التشريع الاسلامي ص ٤٢ للاستاذ على حسب الله •

(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤ •

« أو لأن اليهود عملوا سحرا وظنوا انه سيؤثر في عقله وروحه عليه السلام كما يؤثر في سائر البشر ، فلم يؤثر السحر الا في بدنه ، فلا يلزم من صحة الحديث كونه عليه السلام أصيب بالسحر المرادف للجنون » (١) .

وأخيرا نرى ان في موضوع السحر تعبيرات للامام جانبها الصواب :

١ - واذا ثبت ان بعض السحر علم يعتمد على الحقائق ، كان كلام الامام مجانباً للصواب وما بني عليه مجانب للصواب ايضاً » (٢) .

٢ - قال الامام ان تعلم السحر كفر ، والأولى ان يقال ان تعلم السحر للعمل به كفر . أما تعلمه للرد على المبطلين فليس بكفر ، لأن الأعمال بالنيات . ولأن كفر السحرة مصدره اعتقادهم ان النجوم والكواكب او غيرها قادرة على جلب نفع او دفع ضرر . وذلك الاعتقاد هو سبب الكفر لا تعلم السحر في حد ذاته .

ونضرب مثلاً بالسم ، فان تعلم صناعته للدواء حلال ولكن تعلم صناعته لقتل انسان حرام ، كما ان تعلم تركيب السم في حد ذاته مباح ، فالأصل في الأشياء الاباحة .

٣ - قال الامام : ان ذكر القرآن للسحر في سورة البقرة لا يستتبع اعترافه به أو التسليم بأنه علم لا خرافة » فالقرآن

(١) انظر تفسير الجصاص المسمى احكام القرآن عند المكالم على قوله تعالى : واتبعوا الشياطين على ملك سليمان . الآية .

(٢) انظر مجلة الازهر المجك ٢٥ (٤) عدد ربيع الآخر ١٣٧٣ (٨ ديسمبر ١٩٥٢) نفاحات من القرآن سحر هاروت وماروت لفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبيكي عضو جماعة كبار العلماء .

يحكى من عقائد السابقين الحق والباطل ، وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين وان لم تكن صحيحة فى نفسها لقوله تعالى : « كفى يقوم النذى يتخبطه اثنى عشران من المس » (١) .

وعلماء الأصول يقولون : « ان القرآن اذا حكى امرا لا يقره او ذكر شيئا يوهم غير المراد ، فانه يتبعه بما يشير الى بطلانه ، او يأتى بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال . كما فى قوله تعالى : وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمتم ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون » .

((وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم باقواهم)) . ذلك لان الله انزل كتابه لارشاد الناس وسماه فرقانا وهدى ونورا وجعله بيانا وتبيانا وبرهانا . فلا يناسبه - وهذا شأنه - ان يحكى ما ليس بحق ثم لا ينبه عليه ، فان السكوت عنه يعد اقرارا له . ومن هنا نشأت القاعدة الآتية :

قاعدة : ما حكى فى القرآن - اذا ورد معه ما يفيد رده فهو باطل لا يصح الاستنباط منه . واذا لم يرد معه رد له فهو صحيح معتد به (٢) .

فالامام يرى ان ما حكى فى القرآن ولم يرد معه ما يفيد رده لا يلزم ان يكون صحيحا . والقاعدة انه يكون صحيحا معتدا به ، فحكاية القرآن لتعليم السحر ، تفيد ان السحر حقيقة فى هذا ذاتها .

(١) تفسير المنار ج١ ص ٢٩٩ .

(٢) اصول التشريع الاسلامى للاستاذ على حسب الله ص ٢٨ و ٢٩ .

(ج) تقديس الأولياء :

جاهد الأستاذ الامام في تنقية الاسلام من الشوائب التي طرأت عليه . ولذلك حارب النزعات الصوفية المتطرفة . وقد تطور الأستاذ الامام نفسه في موقفه من الصوفية .

فبينما نجده في نشأته صوفيا سلبيا يميل الى كثرة الذكر والعبادة . ويعتمد على بعض اشارات عابرة في توجيهه مثل حكايته عن نفسه حينما كان يدرس في طنطا ، قال : « فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسي اليه قال ذا معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت : وأين الحارثي التي معك ؟ فقال : سبحان الله من جد وجد . ثم انصرف ، فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الى ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا » (١) .

وفي القاهرة اتصل الأستاذ الامام بالسيد جمال الدين . وهو رجل يفهم الاسلام على أنه الرباط الوثيق بين المسلمين ، وأن العمل له والجهاد في سبيله واجب حتى يخلص المسلمون من الذل والاستعمار ويكونون جامعة اسلامية يستردون بها مجدهم القديم وعزهم الغابر .

وقد تأثر الأستاذ الامام بجمال الدين تأثرا بالغا وبدأ ينزع عن التصوف السلبي الى المعاني الأخلاقية والسلوك العلمي والجهاد بلسانه وقلبه في سبيل اصلاح الأمة وتربية أخلاقها وتقويم سلوكها .

وقد تأثر كذلك بابن تيمية وابن القيم وتلميذهما محمد بن

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ٤ ص ٢٤ .

عبد الوهاب في محاربة البدع والخرافات والطقوس الدينية البعيدة
عن الروح الأصيلة للإسلام (١) .

فحمل حملة شعواء على تقديس الأولياء والتضرع اليهم
وسؤالهم قضاء الحاجات ، وحمل على المتصوفة والادعياء الذين
يتكاسلون عن العمل (٢) والانتاج . وذكر انهم من أسباب تأخر
المسلمين وضعفهم ، كما هاجم مذهب الجبريين وبرأ الاسلام منهم
لأن المسلم الجبري عنصر سلبي لا يعمل ولا يدافع ولا يأخذ بأسباب
الحياة ، وبين ان الاسلام دين العمل والجد لا دين الكسل
والتواكل « والاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين .
وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم ، والنهي عليهم فيه .
وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو « لو شاء الله ما اشركنا
ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء » فلا يسوغ لأحد منا وهو يدعى انه
مؤمن بالقرآن ، ان يحتج بما كان يحتج به المشركون . من يزعم
انه متوكل من المتظاهرين بالصلاح فهو كاذب زنديق لأنه انما
يدعى التواكل اذا طولب بأمر فيه مشقة عليه أو يجد في نفسه
عجزا عنه ، ولا سيما اذا كان في مصلحة عامة . فهو يرضى بما يجد ،
فاذا رجع أولئك المتبتلون الى منافعهم الخاصة . لم تجد للتوكل
في نفوسهم أثرا . فهم يفتشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به
يعيشون أو ما به على الناس يظهرون وحينئذ لا يرجعون الى التواكل
فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم . وكفانا قدوة وخير أسوة سيد

(١) مختصر الفتاوى لابن تيمية : تأليف الشيخ بدر الدين محمد بن
على الحنبلي من ص ٢٤٠ - ٢٤٥ وانظر مذاهب التفسير الاسلامي ترجمة
الدكتور عبد الحليم النجار ص ٣٦٣ .

(٢) المنار جزء ١ ص ١٨٨ تفسير آية « فلا تجعلوا لله أندادا وانتم
تعلمون » .

المتوكلين صلى الله عليه وسلم فانه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله جل شانه ، لا يفتر عن العمل في الدعوة الى الحق وحمل الناس عليه .

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله صلى الله عليه وسلم :
لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو
خماصا وتروح بطانا .

« ويفسرون ذلك بأننا لو القينا اثقالنا على الله وتركنا اسباب عيشنا في كسبنا وماكلنا ومطبخنا ومرقدنا لرزقنا كما ترزق الطير ثابت في أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصا وتمسي بطانا . يظنون أن هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل . والكلام في معنى حق التوكل مظنة ترك السعي بالمرء ، وهو خطأ محض . فالمراد من حق التوكل أن يعتمد الانسان على الله سبحانه وتعالى مع اتباع سنته التي سننها في الطلب فيحصل الطالب من اسباب مطلوبة ما جعله الله سببا ويدقق النظر في ذلك ما شاء حسبما طأله الله تعالى به ، ثم بعد أن يستعمل الأسباب ينادى ربه في سره : أن قد أتيت بما في استطاعتي على مقدار ما وهبتي وما بقي مما لا أعلم ولا أملك فهو في يدك فأغني بقدرتك ولا تحرمني من معونتك ، ثم يمضي في عمله . هذا هو حق التوكل . وقد أشار اليه صلى الله عليه وسلم « تغدو خماصا وتروح بطانا » فانه أراد بذلك أن الطير إنما تسير في تحصيل معاشها على الإلهام الذي أودعه الله فيها ، ألهمها معرفة الأماكن التي فيها أقواتها ، كما ألهمها الغدو الى تلك الأماكن لتصيب أقواتها منها ، فهي تعمل بإرادتها على ذلك الشعور الذي منحه الله إياها . فحق التوكل لا يتم لنا إلا بان نجرى في أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الإلهام عند الطير . والذي يقوم عندنا مقام الإلهام هو العقل ، فلا نكون متوكلين حق

التوكل حتى نستعمل عقولنا في الوسائل التي توصلنا الى بلوغ
الغاية من اعمالنا وان نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في
طرق الوصول الى المقصود ، فالاعتماد على الله بهذه الطريقة
كافل لنجاح الأعمال « (١) » .

مفسرون متأثرون بالامام في حربه للبدع وتقديس الاولياء

١ - رشيد رضا :

وقد سار في طريق الاستاذ الامام تلميذه الوفي السيد الاستاذ
محمد رشيد رضا وقد كان اصرح من استاذ محمد عبده ،
اذ وجه اعنف ثوراته من بين جميع انبذع الى هذا القالب من
التقديس الذي هو عريب على روح الاسلام الاول وكان يدمغه دون
انقطاع بأنه وثنية تسربت الى الاسلام . « ولكن وجد ايضا في
مجرى مشروعاته الدينية فرصة للاقتناع بمبلغ النصبوبة في انتزاع
هذه العادة المتأصلة في مجال اوسع كثيرا من دائرة الشعب
الجاهل . واقتلاعها من المحصول الديني عند السذج من المسلمين .
وقد ألقى سلسلة من المحاضرات في مسجد الحسين وتعرض في احدى
محاضراته الى نقد الحديث « لو حسن أحدكم ظنه بهجر لنفعه »
وهو حديث حصل كثيرا الانتفاع به في اثبات جواز تقديس الأشياء
التي يظن بها القداسة . واثبت السيد محمد رشيد رضا حلقة
المستمعين اليه أنه موضوع ، ثم تبع هذه النظرية باستخدام تطبيق
عملي ، ففي فناء هذا المسجد تخص العقيدة الشعبية أحد الأعمدة
المرمية القائمة به بتقديس خاص . اذ يقال ان القطب أي كبر
ديوان الاولياء يظهر عنده في اوقات معلومة ويؤدي الصلاة الى

(١) كتاب الهلال : دروس من القرآن الكريم للاستاذ الامام محمد عبده
العدد ٩٦ - شعبان ١٣٧٨ مارس ١٩٥٩ ص ١٢٥ .

جانبه ، فهذه العلاقة بذلك الشخص الذى يبلغ اسمى مراتب القداسة
والذى يسعى بين أظهر المسلمين دون أن يعرفه أحد تعبر هذا العامود
مكانة من التقديس غير طبيعية تماما وهذه مزية يشترك فيها هذا
العامود مع غيره من الأشياء التى تتعلق بها مثل هذه الخرافة ،
ويعنى الناس أنفسهم بفوز كبير من أجل الصلاة عند هذا العامود
أو التمسح به وهو مثال آخر للعقيدة المنتشرة بما للمسح والتمسح
من قوة سحرية .

وفى جوار هذا الموضع المقدس وجد المحاضر فى نفسه الشجاعة
للقصص الى تعليم الناس أن هذه المادة الحجرية لا تستطيع نفعا
ولا ضرا وان النافع الضار هو الله وحده « ولكنه جعل للنفع
والضر أسبابا ، وهدانا لاجتناب الضار واجتلاب النافع بما وهب
لنا من العقل والحواس والدين ، وعم اللفظ بذلك حتى نصرنا الله
رب العالمين » (١) . وقد عقد السيد رشيد رضا فصلا كاملا عن
الوسيلة عند تفسيره لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
وابتغوا اليه الوسيلة » . وبين أنها العمل الصالح والطرق التى
أمر الدين باتباعها ، ولا يجوز التوسل بالأبدال والأولياء كما
يفعل الناس . فالعمدة فى النجاة والفلاح تزكية النفس بالإيمان
والفضائل والأعمال الصالحة فبذلك تصلح نفوسهم وتكون أهلا
لرضوان الله تعالى . وأما من دنس نفسه بالشرك والفسق والفساد
فى الأرض فلا يكون أهلا لرضا الله ودار كرامته . فلا يقبل منه
فداء ولا تنفعه شفاعة الشافعين » (٢) .

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار ص ٣٦٥
والمنار ج٦ من صفحة ٣٦٨ الى ٣٧٩ .
(٢) المنار ج٦ ص ٣٧٨ .

٢ - عبد الجليل عيسى :

وممن تأثر بالأستاذ الامام في نزعتة السلفية وحربه البدع والخرافات فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى في تفسيره الذى ظهر حديثا (١) . وهو يحيل في مواضع كثيرة من هذا التفسير على كتابه : « صفوة صحيح البخارى » وما حال عليه شرحه للحديث رقم (٦٦) عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فاذا اغتم بها كشفها عن وجهه . فقال وهو كذلك « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا .

وقال الشيخ عبد الجليل عيسى في تعليقه على هذا الحديث : « ومع هذا التحذير الشديد الذى صدر منه صلى الله عليه وسلم في آخر لحظة من حياته الشريفة ولم يشغله عند خطورة مرض ولا سكرات موت فقد وقع كثير من المسلمين فيما حذرهم منه فيا هى ذى المساجد قد اتخذت على القبور في كل بلد ومكان . وها هم اولاء المسلمون قد نصبوا عليها امثال التماثيل من العمام والخمر ، كما وقع كثير من الجهال فيما وقع فيه المشركون قبلهم ، فصاروا يستغيثون بقبور الصالحين ، ويطوفون حولها ، ويتمسحون بها كما يفعل بالكعبة المشرفة ، ويطلبون من اصحابها ما لا يقدر عليه الا الله : كشفاء المريض وقذف المحبة والبغض في القلوب ، وسعة الرزق . وبعضهم يشكو اليهم ظلم الحاكم وجور الوالى ، فيرفع العرائض مكتوبة بالبريد وغير البريد . ومن العار

(١) نجد في هذا التفسير بحوثا كاملة صرح المؤلف بنقلها عن الامام ، انظر تفسيره الاول سورة النساء : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » واسم هذا التفسير ، تفسير التفسير .

والخزى أن يقع هذا كل يوم صباحا ومساء تحت بصر رجال الدين
وسمعهم ، ولا انكار ولا ارشاد ولا حول ولا قوة الا بالله العلى
العظيم « (١) .

ومما تقدم نلاحظ أن هناك نزعة سلفية كانت رد فعل لانتشار
الخرافات والبدع الغريبة عن روح الاسلام فقامت تدعو الى الاسلام
في بساطة وايمان بالله وحده والتوسل اليه بالعمل الصالح ونبذ
الوسائط والشفعاء ، واعتبار ذلك شركا أصغر .

هذه النزعة قادها الامام ابن تيمية وابن القيم ، والحنابلة من
قبلهم ونفذ فكرتها الامام محمد بن عبد الوهاب ودعا اليها الامام
محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا .

ولا يزال أحرار المفكرين والطلبة من الموجهين في العالم
الاسلامى يدينون بهذه العقيدة السلفية .

وقد بالغ قوم في هذه الفكرة فجعلوها محور نشاطهم ، وثبتوا
عليها جهادهم ودعواتهم . مثل جماعة انصار السنة (٢) بمصر التي
تقصر كل نشاطها على حرب البدع والنواحي السلبية غير الايجابية .
وهذا خطأ جسيم لأن الاسلام لا يصلح أن يؤخذ جزء منه ونترك
الاجزاء الباقية ، والقرآن كل يكمل بعضه بعضا ، وقد انزله الله
روحا يحيى به القلوب بعد موتها ، وعاب على أهل الكتاب قائلا :
« افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك
منكم الا خزى في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد
العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

(١) صلوة صحيح البخارى شرح الشيخ عبد الجليل عيسى مطبعة
حجازى عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م الجزء الثانى ص ٢٢ .
(٢) تعمل هذه الجماعة الحكومة السعودية ، وتولى قريبا رئسها
المرحوم الشيخ حامد الفقى .

الأساس السابع

ترك الأطناب في الكلام

عما ورد في القرآن بصورة مبهمة

١ - منهج الامام في تفسير المبهم :

القرآن الكريم كتاب هداية يذكر من الاخبار والحوادث وأحوال السابقين ما يحقق هذه الهداية ويمسك عما لا فائدة من ذكره فالبحث عنه تكلف .

وقد جرت عادة المفسرين ان يطنبوا في الكلام عما ذكره القرآن بصورة دوجزة . ويفيضوا في تفاصيل قصة او حادثة اشار اليها القرآن .

وغالب هذه الافاضة لا تعتمد على طريق موثوق به ، بل تعتمد غالبا على النقل من الاسرائيليات ، وقد امرنا الا نصدق اهل الكتاب والا نكذبهم فيما لا علم عندنا به .

والاستاذ الامام يعتمد على القرآن وحده في فهم القرآن ولا يجاوز في شرحه ما يحتمله مضمون النص . مثال ذلك تحديد القرية الواردة في قوله تعالى : « **واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا** » .

فهو يقول : « ونسكت عن تعيين القرية كما سكت عنها القرآن ، فقد أمر بنو اسرائيل بدخول بلاد كثيرة . وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمتة ونعمه وأفضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا » .

وفي تحديد القرية التي نتق فيها الجبل فوق بنى اسرائيل يقول : « وذهب جمهور المفسرين الى أن تلك القرية ايله وقيل طبرية او حدين وقالوا ان ذلك كان في زمن داود عليه السلام . والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان ، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات . فالحجة فيما ذكر قائمة على بنى اسرائيل ومبنية على أن مجاهدتهم ومعاندتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ليست بدعا من أمرهم ثم انها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ الهه هواه ويعيش عيشة بهيمية » (١) .

وفي تفسيره لقوله تعالى : « فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء » نراه يقول : « ونسكت عن تعيين نوع الرجز كما هو شأننا في كل ما أبهمه القرآن » (٢) .

وفي تفسيره لقوله : « وفاكهة وأبا » يقول الفاكهة ينتفع بها الانسان والأب المرعى الذي ينتفع به الحيوان لأنه يؤب أي يؤم وينتجع . ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه سئل عن الأب فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تغلني اذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به . وعن عمر رضى الله عنه انه قرأ هذه الآية : « كل هذا قد عرفنا فما الأب » ثم رفض عصا كانت بيده أي كسرها غضبا على نفسه وقال : « اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا

(١) المنار ج١ ص ٢٤٤ .

(٢) المنار ج١ ص ٢٢٥ .

فدعوه » ويقول الامام معلقا : « اذا سمعت هذه الروايات فلا تظن ان سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ولكنه يريد أن يعلمك ان الذى عليك من حيث انت مؤمن انما هو فهم جملة المعنى ، فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو ان تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسداها فى نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعا لك ولأنعامك ، فإذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جده المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره . بل الواجب على أهل الجدة والعزيمة أن يعتبروا بتعداد النعم ، وان يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل ، هكذا كان شأن الصحابة رضى الله عنهم . ثم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلا شاغلا لا يهمهم الا التشديق بتصريفها وتأويلها وتحميلها ما لا تحتمله ، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر ، وأعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر .

وقد نهج فى القصة القرآنية منهجه فى تفسير الألفاظ المبهمة فهو يفسر القصة بما يدل عليه ظاهر لفظها ، ولا يخرج عن مدلول اللفظ جريا وراء كلام السابقين . ما دام ذلك لم يرد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، أو ما دام لا يتوقف عليه بيان المعنى .

ففى سورة البقرة أمر الله بنى اسرائيل بذبح بقرة وتشهد بنو اسرائيل فى ذكر صفاتها وماهيتها فشهد عليهم .

« ويذكر المفسرون قصة فى حكمة هذا التشديد وهو المصير الى بقرة معينة لشخص معين كان بارا بوالديه . وقد يكون هذا صحيحا غير أنه لا داعى اليه فى التفسير وبيان المعنى » (١) .

وفى قصة الأخدود التى وردت فى سورة البروج يقول :

(١) المنار ج١ ص ٢٥٠ .

« أما تعيين أصحاب الأخدود واني كانوا ؟ ومن هم أولئك المؤمنون ؟
واين كان منزلهم من الأرض ؟ فقد كثرت فيه الروايات والأشهر أن
المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس
فيه حدث ولا بدعة وان الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين
لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية ، غير أن المؤمن لا يحتاج
في الاعتبار واشعار قلبه الموعظة الى أن يعرف القوم والجهة ،
وخاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص
المشحونة بالمبالغات والأساطير المحشوة بالخرافات وانما الذي عليه
هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا ، ولو علم الله خيرا في أكثر
من ذلك لتفضل علينا به « (١) » .

وفي قصة مريم الواردة في سورة آل عمران يذكر القرآن
الكريم انه : « كلمة دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا
قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء
بغير حساب » . قالوا كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء
وفاكهة الشتاء في الصيف ، والله لم يقل ذلك ولا قاله رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولا هو ما يعرف والتاريخ المعتمد به لم يشبهه .

واسناد الرزق الى الله في الآية لا يدل على انه كان من خوارق
العادات فاسناد المؤمنين الأمر الى الله في مثل هذا المقام معهود في
القديم والحديث .

ثم يقول الأستاذ الامام : « ان القرآن نزل سائغا يسهل على
كل أحد فهمه من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب في الدفاع عن شيء
خلاف الظاهر . فعلينا الا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات
اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل القصة من خوارق العادات .

(١) تفسير جزء عم - سورة طبرق ص ٥٩ .

والبحث عن الرزق ما هو ومن أين جاء ؟ فضول لا يحتاج
إليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة ولو علم الله أن في بيانه خبرا لنا
لبينه » .

٣ - الصراط والميزان والجنة والنار :

وقد ذكر القرآن الكريم أمورا وأشياء تتعلق بعالم الآخرة ،
كالصراط والميزان والجنة والنار والصحف والكتب واللوح المحفوظ
والكرام الكاتبين .

وقد أفاض بعض المفسرين في وصفها وبيان ماهيتها من غير
اعتماد على سند قوى ، وعلى الرغم من افاضتهم لم يصلوا الى
ما يشفى النفس في معرفة حقائق هذه الأشياء .

وكان تفسير الامام لهذه الغيبات مختصرا وواضحا . فهو
يوافق رأى السلف في أن علينا أن نؤمن بما كما وردت ونفوض
معرفة حقيقتها الى الله تعالى .

فالميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة . فمن ثقلت
موازينه دخل الجنة ومن خفت موازينه دخل النار . علينا أن
نؤمن به كما أخبر القرآن .

« أما كيفية تقدير الله للأعمال وما تستحقه من الجزاء في
ذلك اليوم فانما يكون على حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم ،
فعلىنا أن نفوض الأمر فيه اليه سبحانه مع الايمان به ، ومن عجيب
ما قاله بعض المفسرين « أنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات
والأرض ولا يعلم ماهيته الا الله » .

« فماذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم
فيه الى الله ؟ والكلام فيه جراحة على غيب الله بغير نص صريح متواتر

عن المعصوم ، ولم يرد في الكتاب الا كلمة الميزان وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لنتفجع بما نعتقد . وما عدا ذلك فعلمه الى الله سبحانه ، وقد قالوا ان منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر خصوصاً اذا كان القائل به يحدد له لساناً وكفتين ، مع ان البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو آتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون . أفيأبى الحكيم الخبير الا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذي هدى العلم عقول البشر الى ما هو أدق منه ؟ أياأبى عالم الغيب والشهادة ان يستعمل في وزن المعاني والمعقولات الا ذلك الميزان الذي اخترعه بعض البشر قبل ان يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة ؟ على ان جميع ما اخترع البشر وما يبتكرون مهما دق ولطف انما هو معيار للاتقال الجسمانية والأوزان المحسوسة ، وهلا يكون الأليق بالمقام الألهي أن يكون ميزان المعاني المعقولة لديه اسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم ؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه ان يجرؤ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذي تستعمله القبائل التي لم تزل في مهد الانسانية الأولى ، ميزان ضعفاء العقول . قصار الأنظار الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب ولا لحياة العقل من الله واطراقه عن ان ينظر الى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه وتعاضمت قدرته . عليك ايها المؤمن المطمئن الى ما يخبر الله به ان توقن ان الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسئل كيف يزن ولا كيف يقدر ، فهو اعلم بغيبه والله يعلم وانتم لا تعلمون « (١) » .

(١) جزء عم ص ١٣٩ .

والجنة دار النعيم يتمتع بها المؤمنون يوم القيامة • وعلينا
أن نعتقد أن النعيم واللذة فيها اكمل وأوفر من جميع لذائد الدنيا ،
وانها دار خلد وأن من دخلها من أهلها لا يخرج أبدا ولا يجوز لنا
البحث في حقيقتها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع بها فان ذلك
لا يعلمه الا الله (١) •

والنار هي دار العذاب والآخرة يعذب بها اهل الكفر
والظلمان • والواجب علينا الايمان بها والتصديق بأن العذاب فيها
أشد من العذاب في نار الدنيا ، وانها تسعر وتوقد على المعنى الذى
يريد الله •

اما كون الايقاد بالحطب أو الفحم الحجرى أو الخشبى
أو ما أشبه ذلك مما هو معروف في حياتنا هذه ، فذلك غير واجب
أن نعتقد به (٢) •

والصحف التى تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف
الأعمال والذى يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة
مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت
والبيان بنشر صحف الأعمال • اما كون الصحف على مثال الأوراق
التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك
ما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل علمنا اليه
ولن يصل اليه بمجرد العقل ، ولم يرد عن المعصوم صلى الله
عليه وسلم فيه نص قاطع (٣) •

وكتابة الله واحصاؤه لأعمال الانسان هي كتابة على النحو

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٩ •

(٢) جزء عم ص ١٤٠ •

(٣) جزء عم ص ٢٧ •

الذى يليق بتنزيه الله تعالى . وهى أعلى من كتابتنا التى نعرفها
وأشد منها ضبطاً لكننا لا نكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به
ونكل علم حقيقته الى الله (١) .

والروح المحفوظ شئ أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا
حقيقته فعلياً أن نؤمن بأنه شئ موجود وأن الله قد حفظ فيه
كتاباً إيماناً بالغيب ، وأما دعوى أنه جرم مخصوص فى سماء معينة
ووصفه بما جاء فى روايات مختلفة فهو لم يثبت عن المعصوم
صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغى أن يدخل فى عقائد أهل
اليقين من المؤمنين (٢) .

والكرام الكاتبون : ملائكة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات ،
وعلياً أن نؤمن بهم وأنهم مطهرون عن الغرض والنسيان ، ولكن
ليس علياً أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن أى شئ خلقوا وما هو
عملهم فى حفظهم وكتابتهم ، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود
عندنا وهو ما يبعد فيه ، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال
وهل الحروف والصور التى ترسم هى على نحو ما نعهد أو إنما
هى أرواح تتجلى لنا الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القراطيس ،
الى أن يبعث الله الناس ، كل ذلك لا نكلف العلم به وإنما نكلف
الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر فى معناه الى الله ، والذى
يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل فى عملنا هو أن أعمالنا تحفظ
وتحصى لا يضيع منها نقيير ولا قطير (٣) .

وأحياناً يعرض الأستاذ الامام أكثر من رأى فى تفسيره لغيبيات
القرآن مثل قوله تعالى « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » . ويقول ،

(١) جزء عم ص ٦ .

(٢) جزء عم ص ٦١ .

(٣) جزء عم ص ٣٦ .

أما اسناد المجيء في هذه الآية ففيه رأى السلف رضى الله عنهم، وهو أن ذلك مجيء يؤمن به ولا نطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الإلهي في ذلك اليوم وهو الأفضل .

وفيه مذنب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك أو أنه من قبيل التمثيل لتجلى السطوة الإلهية على القلوب ، كما تتجلى آية الملك للأعين إذا جاء في جيوشه ومواكبه والله المثل الأعلى (١) .

وإذا قارنا هذا المنهج الروحي العملي ، بما ورد في بعض كتب التفسير في مثل هذه المواضع تجلى لنا أن الأستاذ الإمام سلك سبيلا مستقيما وحفظ على القرآن قداسه وعلى الغيب حرمة . ورد التهجم على الغيب من غير دليل . وأبعد عن التفسير آثار المجسمة والمشبهة ، ونقاه من الروايات المسأورة التي لا تستند إلى دليل علمي أو سند سليم .

مقارنة بين المفسرين :

مثال لمقارنة رأى الإمام في الغيبيات بأراء المفسرين السابقين :

جاء في تفسير الجلالين لقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا » (جاء ربك) أى جاء أمره (والملك) أى الملائكة (صفا صفا) حال أى مصطفين أو ذوى صفوف كثيرة .

وهذا تفسير مختصر وواضح وكان الإمام يعتمد عليه وإن خالفه ونقده في كثير من المواضع .

ولكن إذا نظرنا إلى تعليق سليمان بن عمر العجلي الشهير بالجمل في حاشيته « الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية » رأيناه يعلق على تفسير الجلالين للآية بقوله :

(١) جزء عم ص ٨٤ .

« قوله أى جاء أمره » أى حصل تجليه على الخلائق وظهر سلطان من آثار هيئته وسياسته . أهـ (قوله صفا صفا) أى تنزل ملائكة كل سماء صفا على حدة فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والانس فيكزنون سبع صفوف أهـ خازن . وفى تذكرة القرطبي ما نصه وذكر أبو حامد فى كتاب كشف علوم الآخرة عن ابن عباس والضحاك فقال : ان الخلائق اذا اجتمعوا فى صعيد واحد الأولين والآخرين أسر الجليل جل جلاله بملائكة سماء الدنيا ان يتولواهم فيأخذ كل واحد منهم انسانا وشخصا فى المبعوثين انسا وجنا ووحشا وطيرا وحوالواهم الى الأرض الثانية أى التى تبدل وهى أرض بيضاء من فضة نورانية ، وصارت الملائكة من وراء الخلق حلقة واحدة ، فاذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات . ثم تنزل ملائكة السماء الثانية فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فاذا هم مثلهم ضعفا . ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فيكونون أكثر منهم بثلاثين ضعفا . ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فيكونون أكثر منهم بأربعين ضعفا . ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة . ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستون مرة . ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعون مرة . والخلق تتداخل وتندمج حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام ويخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفة الى الأذقان والصدور والى الحقوين والى الركبتين ومنهم من يصيبه الرشع اليسير كالقاعد فى الحمام ، ومنهم من يصيبه البلة يكسر الموحدة وتشديد اللام كالعاطش اذا شرب الماء وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو مد أحدهم يده لنالها وتضاعف حرها سبعين

مرة . وقال بعض السلف ولو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لاحتقرت الأرض وذاب الصخر ونشفت الأنهار . فبينما الخلائق يموجون في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله حيث يقول : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » الخ .

الى غير ذلك مما لا يصدق العقل ، ولم يصح به النقل فان كثرة الملائكة الى هذا الحد وتحديد صفوفهم وغير ذلك من احوال الموقف اما ان يكون من اختراع الخيال أو نقلا عن الاسرائيليات . وبذا يتضح لنا صواب موقف الامام من هذه الغيبيات وطلبه الايمان بها كما وردت وتفويض حقيقتها الى الله تعالى .

٣ - القضاء والقدر :

وقد سلك الأستاذ الامام هذا المسلك الروحي العملي في تفسيره للقضاء والقدر . فقد شغلت مسألة القضاء والقدر حيزا كبيرا من كتب التفسير المذهبية . مثل كتاب الكشف للزمخشري الذي يمثل منهج المعتزلة . وكتاب الفخر الرازي الذي يمثل مذهب أهل السنة ويهتم كثيرا بعرض آراء المعتزلة مفصلة والرد عليهم بقوة في الخصومة واهتمام بالدليل والحجة .

ولكن الأستاذ الامام يصرح في تفسيره لسورة العصر « بان مسائل علم الله وقضائه السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هي من سر القدر الذي لا تكاد العقول ان تصل اليه .

فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذي يعلمه . وبأنه يجب عليه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة اليه ، وأن يعمل بما أمره به ويتجنب ما نهاه عنه وذلك باستعمال تلك الحرية التي يجدها من نفسه . وليس على المسلم بعد هذا أن يبحث فيما وراء ذلك . وقد نهى القرآن والحديث عن الخوض

والجدال في القدر لما فيه من جسيم الخطر . على أن الإيمان ليس بحاجة الى بحث هذه المشكلة الغامضة . وانما التطلع الى حلها هو شره العقول في طلب رفع الأستار عن الأسرار . وليس في مقدور العامة ان تنفذ بصائرهما الى اسرار الحرية والقدر فذلك شأن من شئون القليلين من أهل الولاية والصفاء (١) .

وقد رفض الأستاذ الامام مذهب الجبر الذي يذهب الى ان الانسان مجبور في عمله كالريشة في مهب الرياح . وحارب المتواكلين من الصوفية ونبههم الى الأخذ بالأسباب وطرح التواكل والكسل وبين أن عمل الانسان مناط ثوابه وعقابه . وان إيماننا بالقضاء والقدر لنستمد من الله العون ولناخذ بأسباب الحياة واثقين أن قدرة الله فوق قدرتنا ، فنستمد منه التوفيق والهداية والعون والمساعدة .

« والاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة ويسهل على من له فكرة ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه في الزمان . وانه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان نكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم » .

وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا اثر من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكرة والارادة ما لا ينكره أبله ، فضلا عن عاقل ، وان مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة انما هو بيد مديبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته

(١) رسالة التوحيد ص ٧٠ .

وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له ، خصوصا في العالم الانساني .

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود اله صانع للعالم فليس في امكانه أن يتخلص من الاعتراف بتأثير العوامل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية .

فهل يستطيع انسان أن يخرج عن هذه السنة التي سننها الله في خلقه ، هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق ، فضلا عن الواصلين ، الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة . ويبعث على اقتحام المهالك التي ترتجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمر (هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثقة والثبات واحتمال المكاره ومقاومة الأهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول والأشياء بيد الله كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ؟ والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشبيد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضله في قوله الحق: «الذين قال لهم إناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشسوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم «

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يفتش بها القضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء . فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم .

واندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم الى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات . دمروا بلادا ودكدكوا أطوادا وأرجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فريضة وما كان قائدهم وسائقهم فى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة . هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم ، كأنما يسبرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة . وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساءؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفرق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ولا تغشى الأولاد مهابة .

هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف فى قلوب أعدائهم فيهزمون بجيوش الرهبة قبل أن يشيخوا

بروق سيوفهم ولحمان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم
أطراف جحافلهم « (١) .

٤ - الأسباب التي دعت الامام الى هذا التفسير للقضاء والقدر :
لقد كان الأستاذ الامام مدفوعا الى هذا التفسير العملي
بعوامل عدة :

أولا - حسن فهمه لطبيعة الاسلام وأنه يدعو الى الايمان
بالله والاعتقاد بقدرته وعلمه الازلي القديم وأن الله بكل شيء
عليم .

وهذا الاعتقاد يجب ان يكون دافعا قويا للانسان نحو العمل،
مع ثقته بالقوة العليا التي منحتة العقل والتفكير والارادة والاختيار .
فلا تناقض بين الايمان بالتضياء والقدر والاعتقاد بحرية الكسب
والاختيار ولا تخالف بينهما في الحقيقة : فالله فاعل من حيث العبد
فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل ، والوجود في جميع مراتبه
مختار (٢) .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فرفع
يده اليمنى وقال : هؤلاء اصحاب اهل الجنة باسمائهم واسماء
آبائهم وأمهاتهم لا يزيدون ولا ينقصون . ورفع يده اليسرى وقال :
هؤلاء اصحاب اهل النار باسمائهم واسماء آبائهم وأمهاتهم لا يزيدون
ولا ينقصون . وان الرجل من اهل الجنة ليعمل بعمل اهل النار

(١) تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثاني ص ٢٦٤ نقلا عن جريدة العروة
الوثقى - العدد الخامس الذي نشر في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٠١ هـ ، ١٠
ابريل ١٨٨٤ م .

(٢) الأستاذ الامام محمد عبده : رسالة الواردات ص ٢١ .

حتى اذا لم يبق بينه وبين النار الا مقدار فواق ناقة يسبق عليه
القضاء ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وان الرجل من
أهل النار ليعمل بعمل أهل الجنة حتى اذا لم يبق بينه وبين الجنة
الا مقدار فواق ناقة يسبق عليه القضاء فيعمل بعمل أهل النار
فيدخل النار .

قالوا أفلا نتكل يا رسول الله ؟ قال لا . اعملوا فكل ميسر
لما خلق له ، ان الله عز وجل يقول : « فاما من اعطى واتقى وصدق
بالحسنى فسنيسره لليسرى . واما من بغل واستغنى وكذب
بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

وهكذا يجمع الاسلام بين الايمان بالقدر والدعوة الى العمل
فيقف موقفا وسطا بين الجبر المطلق ، والحرية المطلقة .

ثاني - رده على المستشرقين والمستعمرين الذين يزعمون أن
سبب تأخر المسلمين هو شيوع الايمان بالقضاء والقدر ، واعتقادهم
أن العبد مسير غير مخير ، وأن عقيدة الجبرية التي تزعم أن العبد
مجبور في جميع أعماله كالريشة في مهب الرياح مما يدين بها
المسلمون ، وهي السبب في تخلفهم وعجزهم .

وقد نبض الأستاذ الامام للرد على هانوتو - وزير خارجية
فرنسا سابقا - « الذي ادعى أن مسافة الخلف بين الاسلام
والنصرانية واسعة . من حيث البحث في القدرة الالهية والحرية
الانسانية وان الاسلام بتمسكه بعقيدة القضاء والقدر ، انما ينحط
بالانسان الى الدرك الأسفل ، ويرفع الاله عنه في علاء لا نهاية
له ، في حين ان عقائد المسيحية ترتفع بمعتقداتها الى أعلى مراتب
الكمال الانسانية » (١) .

(١) دكتور عثمان أمين - رائد الفكر المصري الامام محمد عبده ص
١٠٧ - وتاريخ الأستاذ الامام ج ٢ ص ٤٢٠ و ٤٢١ .

على ذلك الادعاء اجاب الأستاذ الامام :

« هل نسي مسيو هانوتو أن البحث في القدر لم يختص بملة من الملل وأن منشأ الكلام فيه هو الاعتقاد بإحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن ؟ وهل نسي أن الخلاف في المسألة قد عظم بين المسيحيين أنفسهم قبل الاسلام . واستمر الى هذه الأيام ، ان أتباع « القديس توما » وان « الدمينيكيين » وان في خطب « لوثر » و « كلفان » ما يثبت قول المسيحيين بالقدر ونزوعهم اليه « (١) » .

ويذكر الأستاذ الامام أن « بوسويه » حين اتخذ موقفا وسطا بين الجبر المطلق والحرية الخاصة لم يصنع أكثر من اتخاذه موقفا اسلاميا في صميمه (٢) .

ونشر الامام بالعروة الوثقى مقالا وضع فيه أن الاسلام يدعو المسلم الى الانشاء والعمل ويحفزه الى البناء والانتاج ويفهمه أن له حرية واختيارا وفرق الامام بين القضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين : « اعتقد الافرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين القائلين بأن الانسان مجبور جبرا محضا في جميع افعاله . وتوهموا أن المسلمين يعقبة القضاء والقدر يرون أنفسهم كالريشة في الهواء تقلبها الريح كيفما تعمل ، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة . فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم الفناء » .

(١) تاريخ الاستاذ الامام للسيد رشيد رضا ج ٧ ص ٤٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠ .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج - وذهب مذهبها كثيرون من
ضعاف العقول في الشرق . ولست أخشى أن أقول كذب الظان
واخطأ الواهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا .
لا يوجد مسلم من سني وشيعي واسماعيلي وزيدى ووهابى وخارجى
يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه
بالمرة . بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا
اختياريا في أعمالهم . ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب
عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء
الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية والنواهي
الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح . وأن هذا
النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى ، وبه تتم الحكمة
والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن
الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار وزعمت
أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن
يتحرك بفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده
المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا
المذهب في أواخر القرن الرابع الهجرى ولم يبق لهم أثر ، وليس
الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات
ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون (١) .

ويتضح لنا مما سبق أن الأستاذ الامام تأثر بعصره واعتبر
نفسه لسان الاسلام والمبعوث للدفاع عنه وتنبيه الغافلين من أمته
الى محاسن الاسلام ، وتحذيرهم كيد أعدائهم وتربيتهم تربية

(١) العروة الوثقى عدد ٤ رجب سنة ١٣٠١ اول مايو ١٨٨٤ - وتاريخ
الامام ص ٢٦١ ج ٢ .

اسلامية صحيحة تؤمن بالفرد وممكناته وتؤمن بالله لتستمد منه التوفيق واليدى والعون السداد .

٥ - القضاء والقدر في التفاسير السابقة :

شغلت مباحث القضاء والقدر الفرق الاسلامية زمنا طويلا ، والاسلام في طبيعته قائم على البحث والنظر الى درجة انه يكاد يجعل هذا النظر العقلى فرض كفاية ، والقرآن حافل بالنصوص التى تحفز العقل الى الفكر والاستدلال على وجود الله .

ولكنه حارب الجدل العقيم الذى يتعصب للرأى ولا يبحث عن الحق . فعن أبى امامة الباهلى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فى شىء من امر الدين ، فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله . ثم قال : « يا امة محمد ذروا المراء فان المراء لا يأتى بخير ، ذروا المراء فان المراء قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى اثما الا تزان محاربا ، ذروا المراء فان اول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء . ذروا المراء فانا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة فى رياضها ووسطها واعلاها لمن ترك المراء وان كان محقا » .

وقد أدى الخلاف السياسى بين المسلمين فى القرن الأول اى فى عهد الأمويين الى نشأة فرق لجأت الى الدين تستمد منه حججها ، وكان ذلك نذيرا بالخلاف بينهم فى فهم النصوص الدينية . وانتهى ذلك الى نشأة طائفتين دينيتين كبيرتين . وهما طائفة السلف التى تريد الوقوف عند ظاهر النصوص وطائفة المعتزلة التى مجدت العقل وأوجبت التأويل .

وامتد الخلاف الى تفسير القرآن الكريم كل يحاول أن يؤيد رايه به ويؤول آياته ما يوافق مذهبه وتحولت كتب التفسير الى

نقاش جدلى طويل : الغرض منه الانتصار للمذهب قبل تفهم كتاب الله .

وسنعرض نموذجا من تفسير « مفاتيح الغيب » للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وتفسير « الكشاف » للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

(ا) الفخر الرازى :

فى تفسير قوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب » . قال الفخر الرازى :

« فى هذه الآية دلالة على أن الهدى والضلال من قبلة تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء . »

وفى هذه الآية اختلف كلام أهل السنة وكلام المعتزلة .
أما كلام أهل السنة فظاهر وذلك لأن القلب صالح لأن يميل الى الايمان وصالح لأن يميل الى الكفر ، ويمتنع أن يميل الى أحد الجانبين الا عند حدوث داعية وارادة يحدثها الله تعالى فان كانت تلك الداعية داعية الكفر فهي الخذلان والازاغة والصد والختم والطبع والرین والقسوة والوخز والكتمان وغيرها من الالفاظ الواردة فى القرآن الكريم . وان كانت الداعية داعية الايمان فهي التوفيق والرشاد والهداية والتسديد والتثبيت والعصمة وغيرها من الالفاظ الواردة فى القرآن . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » ، والمراد من هاتين الاصبعين الداعيتان ، فكما أن الشيء الذى يكون بين اصبعي الانسان ينقلب كما يقلبه الانسان بواسطة تلك الاصبعين فكذلك القلب لكونه بين الداعيتين يتقلب كما يقلبه الحق بواسطة تلك

الداعيتين . ومن انصف ولم يتعسف وجرب نفسه وجدا هذا المعنى كالشيء المحسوس ، ولوجوز حدوث احدي الداعيتين من غير محدث وهـثر لزمه نفى الصانع ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك » . ومعناه ما ذكرنا . فلما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات ، وتضرعوا اليه سبحانه وتعالى في ألا يجعل قلوبهم مائلة الى الباطل بعد أن جعلها مائلة الى الحق ، فهذا كلام برهاني متأكد بتحقيق قرآني .

وأما المعتزلة فقد قالوا لما دلت الدلائل على أن الزينغ لا يجوز أن يكون بفعل الله تعالى وجب صرف هذه الآية الى التأويل ، فأما دلائلهم فقوله تعالى : « فلما زاعقوا أزعج الله قلوبهم » وهو صريح في أن ابتداء الزينغ منهم ، ولهم أدلة أخرى ، أما تأويلاتهم في هذه الآية فمن وجوه ، الأول وهو الذي قاله الجبائي واختاره القاضي أن المراد بقوله : « لا تزغ قلوبنا » يعني لا تمنعها اللطاف التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان . وذلك لأنه تعالى لما منعهم الطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال أزعجهم ويدل على هذا قوله تعالى : « فلما زاعقوا أزعج الله قلوبهم » . والثاني قال الأصم : لا تبلنا بيلوى تزينغ عندها قلوبنا . فهو كقوله : « ولما أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . وقوله : « لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سفلا من فضة » والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزينغ ، وقد يقول القائل لا تحملني على اينائك أي لا تفعل معي من الأفعال ما أكون معه مؤذيا .

واستمر الفخر الرازي في تخريج الآية على رأي المعتزلة على ستة وجوه ثم تعقبها بالرد عليها واحدا واحدا .

فلما انتقل الى تفسير المقطع الثانى فى الآية وهو : « بعد اذ هديتنا » قال : اى بعد ان جعلتنا مهتدين ، وهذا ايضا صريح فى ان حصول الهداية فى القلب بتخليق الله تعالى . ثم قال : « وهب لنا من لدنك رحمة » . واعلم ان تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويره بما ينبغى ، فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولا الا يجعل قلوبهم مائلة الى الباطل والعقائد الفاسدة ، ثم انهم اتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم ان ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزيينة الطاعة ، وانما قال رحمه ليكون ذلك شاملا لجميع انواع الرحمة .

فأولها - ان يحصل فى القلب نور الايمان والتوحيد والمعرفة .

وثانيها - ان يحصل فى الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية والخدمة .

وثالثها - ان يحصل فى الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية .

ورابعها - ان يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت .

وخامسها - ان يحصل فى القبر سهولة سؤال القبر وسهولة ظلمة القبر .

وسادسها - ان يحصل فى القيامة سهولة العقاب والخطاب وغفران السيئات وترجيح الحسنات .

فقوله من لدنك رحمة يتناول جميع هذه الأقسام ، ولما ثبت بالبراهين انه لا رحيم الا هو ، ولا كريم الا هو ، لا جرم أكد ذلك بقوله : « من لدنك » تنبيها للعقل والقلب والروح ان هذا المقصود

لا يحصل الا منه ، ولما كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنسبة للعبد ذكرها على سبيل التنكير كأنه يقول أطلب رحمة وأى رحمة اطلب ، رحمة من لدنك وتليق بك ولك يوجب غاية العظمة « انت الكوهاب » أى المعطى وهو تعليل للسؤال أو الاعطاء المسئول . وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى ، وانه متفضل به على عباده من غير أن يجب عليه شيء (١) .

وايضاً يقول الفخر الرازى عند تفسيره لقوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الألباب » .

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى وذلك لأن الحكمة ان فسرناها بالعلم لم تكن مفسرة بالعلوم الضرورية لأنها حاصلة للبهائم والمجانين والأطفال وهذه الأشياء لا توصف بأنها حكم فهي مفسرة بالعلوم النظرية ، وان فسرناها بالأفعال الحسية فالأمر ظاهر وعلى التقديرين فيلزم أن يكون حصول العلوم الفطرية والأفعال الحسية ثابتاً من غيرهم وبتقدير مقدر غيرهم وذلك الغير ليس الا الله تعالى بالاتفاق ، فدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى فان قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الحكمة النبوة والقرآن . أو قوة الفهم والحسبة ؟ على ما هو قول الربيع ابن أنس . قلنا : الدليل الذى ذكرناه يدفع هذه الاحتمالات وذلك لأنه بالنقل المتواتر ثبت انه يستعمل لفظ الحكيم في غير الأنبياء فتكون الحكمة مغايرة للنبوة والقرآن . بل هي مفسرة اما بمعرفة حقائق الأشياء أو بالاقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعلى التقديرين فالمقصود حاصل فان حاولت المعتزلة

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢ ص ٦٠٥ .

حمل الايتاء على التوفيق والاعانة والالطاف ، قلنا كل ما فعله من هذا الجنس في حق المؤمنين ، قد فعل مثله في حق الكفار ومع أن هذا المدح العظيم المذكور في هذه الآية لا يتناولهم . فعلمنا أن الحكمة المذكورة في هذه الآية شيء آخر سوى فعل الالطاف والله أعلم (١) .

قدمت لك تفسير آيتين فقط للفخر الرازي ، وقد رأيت من تفسيرهما أنه كان مهتما بعرض آراء أهل السنة في القضاء والقدر ، وتأکید أن الهدى والضلال منه سبحانه ، وأن فعل العبد مخلوق له تعالى ، وفي ثانيا هذا التفسير الكبير نجد الامام الرازي مهتما بتفنيد جميع آراء المعتزلة والرد عليها في اسهاب وتطويل : مثل أن الايمان غير العمل (٢) ، لا كما يزعم المعتزلة أن الايمان هو التصديق والعمل . وأن الانسان اما مؤمن واما كافر ، وليس هناك منزلة بين المنزلتين (٣) وأن ليس في الدين تكليف بما لا يطاق (٤) .

وأن افعاله سبحانه منزّهة عن العلة لا كما يقول المعتزلة من أن افعال الحكيم لا تخلو من الحكمة (٥) . وأن عذاب القبر ونعيمه (٦) حق وثابت . وأن الخلود في النار هو المكث الطويل لا المكث الدائم (٧) ، وأن اثابة الطائع غير واجبة عليه سبحانه بل تفضل منه وكرم وأنه اذا شاء أخلف وعيد العاصي ففعا عنه وصفيح .

-
- (١) تفسير الفخر الرازي ج٢ ص ٥١٦ .
 - (٢) تفسير الفخر الرازي ج٢ ص ١٨ و ج٢ ص ٢٥٤ .
 - (٣) المصدر السابق ج٢ ص ٢١ .
 - (٤) المصدر السابق ج٢ ص ٢٤ .
 - (٥) المصدر السابق ج٢ ص ٥ .
 - (٦) المصدر السابق ج٢ ص ٥٢ .
 - (٧) المصدر السابق ج٢ ص ٥٣ ، ج٢ ص ١٧٩ .

لا كما يقول المعتزلة ، من انه يجب عليه سبحانه اثابة الطائع ، وتعذيب العاصي(١) . وان جميع أفعال العبد بإرادته وخلقه ، لا كما يقول المعتزلة ان الله لا يريد الظلم ولا القبائح ولا يخلق الشرور والمعاصي(٢) وان صاحب الكبيرة مؤمن في المشيئة(٣) .

وان الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة . لا كما يقول المعتزلة ان الطاعة موافقة الإرادة(٤) .

(ب) تفسير محمود بن عمر الزمخشري في كتاب الكشاف
للآيتين السابقتين :

قال في تفسير قوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا .. » .

« ربنا لا تزغ قلوبنا » أى لا تبلىنا ببلايا تزغ فيها قلوبنا .
« بعد اذ هديتنا » وأرشدتنا أديناك ، او لا تمنعنا الطافك
بعد اذ لطفت بنا(٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يؤت الحكمة من يشاء .. » .
« يؤت » يوفق للعلم والعمل به ، والحكيم عند الله هو
العالم العامل(٦) .

ويعلق أحمد بن المنير في حاشيته على الكشاف مبينا ان الهدى خلق الله بقوله: « قال أحمد » المعتقد الصحيح ان الله هو الذى

(١) تفسير الفخر الرازى ج٢ ص ٦٠٨ و ج٢ ص ١١٢ .

(٢) المصدر السابق ج٢ ص ٢٤ ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ج٢ ص ١٧٧ .

(٤) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٧ .

(٥) الكشاف ج١ ص ١٧٦ .

(٦) الكشاف ج١ ص ١٦٢ .

يخلق الهدى لمن يشاء هداه وذلك هو اللطف لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه فهو مؤول على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه إن هذا إلا اختلاق وهذه النزعة من توابع معتقدهم السييء في خلق الأفعال وليس علينا هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وهو المستول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا .

« ومثل هذا التفسير من الزمخشري ، ورجع الجدل الذي يشهده ابن المنير عليه يواجهنا على طول نصوص القرآن كلما جرى الحديث عن هداية العباد وضلالهم .

هكذا في الآيتين ١٢٥ - ١٢٦ من سورة الأنعام « فمن يرد الله أن يهديه » أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف « يشرح صدره للإسلام » يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه « ومن يرد أن يضله » أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذي لا لطف له « يجعل صدره ضيقا حرجا » بمنعه الطافة حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق ، وينسد فلا يدخله الإيمان .

« وهذا صراط ربك مستقيما » وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعاداته في التوفيق والخذلان « (١) » .

بمثل هذا التأويل يخضع الزمخشري مواضع القرآن المستعصية لنير الاعتزال ويعلو تهليل الشراح السنيين من نشوة الفرح عند موضع كالأية ٤١ من سورة المائدة « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فهي تقرر في صراحة

(١) الكشف ج ١ ص ٣١١ .

لا يختلف فيها الفهم أن الله (سبحانه) يريد فتنة العصاة ولا يريد أن يظير قلوبهم • وأنهم عصاة بإرادة الله وتقديره •

ولا يدع الزمخشري لهذا القول الفصل ، الذي هو ظاهري عنده فحسب سبيلا للتأثير عليه • فهو يقول : « ومن يرد الله فتنته » تركه مفتونا وخذلانه (فالفتنة نفسيا غير صادرة عن الله) • « أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم » أن يمنحهم من الطافه ما يظهر به قلوبهم •

ونموذج تفسير الآيات التي يجرى فيها الحديث عن الأكنة التي يجعلها الله على القلوب والوقر الذي يجعله في الأذان • كما في قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا » (١) •

فيقول الكشاف في تفسيرهما : « هذا تمثيل لنبو قلوب الضالين ومسامعهم • وما يظهر من اسناد الفعل الى ذاته (تعالى) فوجهه أن ذلك للدلالة على أنه أمر ثابت لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه » (٢) •

وايضا قد جاء في القرآن على لسان اليهود اعتذارهم لتسويغ كفرهم : « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » (٣) • وفي التعبير : « قلوبنا غلف » وان جرى على لسان الكفار يشم المعتزلى شهادة بإمكان أن تكون طبيعة قلوبهم هي المانع من قبول الاسلام ، على معنى أن الله هو الذي يخلقها للكفر ، ومن ناحية أخرى أن الارادة الطيبة أمر لا قدرة عليه ،

(١) سورة الانعام آية ٢٥ •

(٢) الكشاف ج١ ص ٢٧٦ •

(٣) البقرة آية ٨٨ •

فينبغي استبعاد مثل هذا الافتراض الذي يفهم من الآية بتغيير يسير للنص فقرأوا بدلا من « غلف » بسكون اللام (جمع اغلف كأنه مغطى بغلاف) : غلف باقحام ضمة أخرى على اللام ، على أنه جمع غلاف أى وعاء ، وعلى ذلك بدا كلام اليهود لا على أنه اعتذار بل افتخار : أى قلوبنا أوعية « للعلم » وهذا الوجه قد يجيء أيضا مع الاحتفاظ بالقراءة المعروفة « غلف » طبقا للتفسير النحوى بأنه تخفيف : غلف بضم اللام واستعمال العربية لا ينأى هذا القياس (١) .

مقارنة :

وبعد ، فقد رأيت هذا الجدل الطويل والتحمل اللفظي من أجل تأييد مذهب ، أو الانتصار لطائفة .

واذا فزونا الشرح السابق ، بشرح الأستاذ الامام للقضاء والقدر ، الشرح الروحي المسمى الذى يصرح مبدئيا بأن مسألة علم الله ، مسائلته السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هى من سر القدر ، لا تكاد العقول تصل اليه (٢) . نرى أن الأستاذ الامام كان حكيما فى دعوته المسلمين أن يكفوا عن هذا الجدل العقيم الذى استمرت ناره بينهم زمانا طويلا وملئت كتب الكلام والتفسير بمناقشات طويلة عن أفعال الرب وأفعال العباد . وهى مناقشات فارغة جوفاء لا تنشئ عقيدة ولا تزيد فى ايمان مؤمن ، ولا يفهمها الا فئة خاصة من الناس . وما أجدر بنا أن نستجيب لدعوة القرآن وأن نحمل التشابه على الحكم وأن نقول « آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب » .

(١) مذاهب التفسير الاسلامى : ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ،

ص ١٩٦ - ١٧٦ .

(٢) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٧ .

الأساس الثامن

التحفظ في الأخذ بما سمي بالتفسير المأثور

والتحذير من الأسرانيات

١ - أسباب ضعف التفسير بالمأثور :

نزل القرآن الكريم بالعربية الفصحى « لسانا عربيا غير ذي عوج » ، وكان القرآن يخاطب عربا خلصا يفهمون القرآن ويتسابقون الى الامتثال والتنفيذ لأوامره . ويرون القرآن مشروحا شرحا عمليا في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وعاداته ومعاملاته . فيغنيهم ذلك عن طلب التفسير .

ومع هذا فربما استشكل على أحدهم معنى من القرآن فيسال عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي يجيبه تحقيقا لقوله تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

ومن ذلك ما روى انه لما نزل قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأينا لم يلبس ايمانه بظلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ليس كما تظنون وانما هو الشرك

الم تسمعوا الى ما قال لقمان : « ان الشرك لظلم عظيم » ، فطابت
أنفسهم (١) .

وأحيانا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفل بتوضيح معنى
الآية من القرآن ابتداء من غير سؤال كما روى أنه عليه الصلاة
والسلام قال يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة
العصر » .

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان المسلمون يلجئون
الى علماء الصحابة بالتفسير مثل : عبد الله بن عباس ، وعلى بن أبي
طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وأبي
موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير .

وقد جعلهم اهلا للتفسير ما كان لهم من سعة المعرفة بمفردات
اللغة وأساليبها والاتصال بالرسول صلى الله عليه وسلم والاطلاع
على أسباب النزول وعدم التخرج من الاجتهاد في الفهم .

وفي عهد التابعين كثر التفسير النقلي ولجأ المسلمون الى من
أسلم من اليهود والنصارى يسألونهم ويأخذون عنهم مع أن النبي
صلى الله عليه وسلم نبي عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم .

ومما زاد ثقة المسلمين بهم أن بعض أجلاء الصحابة كان
يجالسهم مثل عبد الله بن عباس الذي روى أنه كثيرا ما كان يجالس
كعب الأحبار ويأخذ عنه .

وكان يطل الرواية فيما يتصل باليهود من الآيات - وهب بن
منبه - وهو ممن أسلم من اليهود ، وبطلها فيما يتصل بالنصارى
من الآيات - ابن جريج ، وهو نصراني الأصل لأنه رومي - ويقال

(١) فتح الباري ج ١ ص ٦٦ .

انه من الوضاح ، وليذا كان النقل عن اهل الكتاب من أسباب ضعف التفسير بالرواية .

قال ابن خلدون في التفسير النقلي : « وقد جمع المتقدمون في ذلك وأرغوا الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود . والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة والامية ، واذا تشوفوا الى معرفة شيء مما تشوف اليه النفوس البشرية من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فانما يسألون عنه اهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم وهم اهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم . ولا يعرفون من ذلك الا ما ترفه العامة من اهل الكتاب . ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحداث والملاحم وأمثال ذلك . وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووعب بن منبه ، وعبد الله بن سلام وأمثالهم . فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض بأخبار موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع الى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل . فتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، وأصلها كما قلنا من اهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلون من ذلك الا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة ، فتلفت بالقبول من يومئذ » (١) .

وهذا النوع من التفسير المعتمد على نقل الرواية عن الرسول أو اصحابه أو التابعين كثير ، ولكن الصحيح منه قليل . ويظهر

(١) ص ٤٨١ : المقدمة .

أن القصاص والوضاع أدخلوا فيه كثيرا مما ليس منه لأغراض مختلفة حتى قال الامام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي » (١) .

ولهذا الضعف في المروى من التفسير لم يقف المشتغلون به عند حد الرواية ، بل كان منهم من يدلي برأيه وما اداه اليه اجتهاده بعد أن يحكى ما أثر بالرواية مثل ابن جرير الطبري .

وانصراف الجهود الى تفضيل رواية او ترجيح أخرى تشتيت للفكر وصرف للجهد « الى خدمة هذه الروايات نفسها والى التفكير في نطاقها . والغرض أن التفكير كان يجب أن يسير في نطاق التفسير وأن الجهد يجب أن يوفر لفهم كلام الله تعالى لا لفهم كلام الناس في تفسيره » (٢) .

٢ - رأى الامام في المأثور ، والمتواتر :

ولذلك يوجه الامام نصيحته الى المهتمين بالروايات ونقل ما قاله العلماء في كتب التفسير فيقول : « ان الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن اقوال الناس وما فهموه ، وانما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لارشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذي بين ما نزل اليه ، يسألنا هل بلغتم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بلغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم » (٣) .

وقد يرفض الأستاذ الامام التفسير بالمأثور لما فيه من

-
- (١) الأستاذ على حسب الله : القرآن الكريم ص ٥٩ .
(٢) فضيلة الأستاذ احمد محمد الدني : المجتمع الاسلامي فيما تنظمه سورة النساء ص ١١ .
(٣) الأستاذ الامام ، تفسير سورة الفاتحة ص ٢٠ - ٢١ .

الفساد وتناقض الروايات في الآية الواحدة وعن الصحابي الواحد .
 مثل تفسير « الفجر » في قوله تعالى : « وَالْفَجْرُ أَيْالَ عَشْرٍ » . عن
 ابن عباس الفجر النيران كله . وعن ابن عباس أنه فجر أول يوم من
 المحرم منه تنفجر السنة . وعنه أيضا صلاة الصبح . وعن
 ابن عباس أنه فجر يوم النحر وعن الضحاك فجر أول يوم من
 ذي الحجة لأن الله قرن الأيام به فقال وليال عشر أي من ذي الحجة .
 وعن ابن عباس هي العشر الأواخر من رمضان . وعنه أنها العشر
 الأول من المحرم أي قرطبي « (١) » . ولهذا الاضطراب الذي شاهده
 يتبدى، الإمام تفسيره لسورة الفجر بقوله : « كثر خلاف المفسرين
 والرواة في معنى كل من الفجر وليال عشر إلى آخر ما أقسم به
 وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى . ثم يأتي في الليالي العشر
 بما لا يلائمه ، وغالب ذلك يجري على خلاف ما عودنا الله من نسق
 كتابه الكريم » (٢) .

والأستاذ الإمام بهذا يريد أن نرجع في تفسير القرآن إلى
 الفهم السليم والعقل الرشيد والقلب المفتوح وذلك فضل من الله
 يعطيه من يشاء من عباده وليس مقصورا على السابقين ولا محجوبا
 عن اللاحقين .

أخرج البخاري في صحيحه « أن عليا بن أبي طالب سئل
 هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من دون المسلمين ،
 قال : لا ، إلا فهما يؤتيه الله لرجل في كتاب الله تعالى » .

وليس معنى ما تقدم أن الأستاذ الإمام يرفض التفسير
 المأثور جملة ولكنه يقبل منه ما قامت الأدلة على صحته وقوة
 متنه وسلامة سنده وأصبح خيرا قطعيا يوجب اليقين .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٨ .

(٢) تفسير جزء عم ص ٧٧ .

« وحده التواتر هو ما نراه في القرآن تعرفه طبقة عن طبقة
يؤمن من تواطؤ كل منها على الكذب الى أن وصل اليك • لا تنكره
فرقة من فرق المسلمين قاطبة » (١) •

فمثلا يرى بعض المفسرين أن لفظ « الكوثر » الوارد في سورة
« الكوثر » هو اسم لنهر في الجنة وأن الله منح النبي ذلك النهر
لكن الأستاذ الامام ينكر ذلك ويرى أن الكوثر هنا إنما يفيد ذلك
الخبر الذي افاضه الله على الانسانية ، وهو الرسالة • أما أحاديث
النهر فانها وإن كثرت لا ترتفع الى مرتبة اليقين « فلا يصدق
عليها اسم التواتر ، خصوصا وأنه يظن بالرواة سهولة التصديق
في مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف ،
فيسهل على كل راو الميل الى تصديق ما يقال له • وهذا يخل
بشرط التواتر لأن أول شرط فيه ألا يكون في الطبقات رائحة التشيع
للمروى ذلك أن شرط صحة الخبر هو ألا يتضمن شيئا يمس
التنزيه » (٢) •

٣ - تأثير الامام بابن خلدون :

وقد تأثر الأستاذ الامام بابن خلدون • فالمعروف ان الامام
شرح مقدمته لطلبة دار العلوم ، ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم
الاجتماع الذي تأثر به الامام في تفسير آيات كثيرة من القرآن تشير
الى اسباب قيام الدول وانحطاطها وأن ذلك خاضع لظواهر
اجتماعية لا تقل في نظامها وانضباطها عن الظواهر الكونية •

كما تأثر بمنهجه في التاريخ الذي يقوم على نقد الأخبار

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٧ •

(٢) رسالة التوحيد ص ١٦٨ •

وتمحيصها وعرضها على القوانين الصحيحة للتاريخ قبل التسليم بها فان للتاريخ قوانين يخضع لها في روايته وأخباره .

وابن خلدون يذكر في أول مقدمته بهذا العذر ان (المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذعبه والامتناع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من اسبابها) . ثم يقول : وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا أو سميئا . لم يعرضوها على اصولها ، ولا قاسوها بأشباهها . ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط (١) .

ويكتب ابن خلدون فصلا عن أوهام المؤرخين وأخطائهم ثم ينتقل الى اخطاء المفسرين فيقول ناقدنا تباونهم في قبول الأفاصيل الموضوعة :

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة « والفجر » في قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد » .

فيجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين . وينقلون انه كان لعاد بن عرص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ، ودانت له ملوكهم ، وسمع وصف ذكر الجنة فقال لأبنين مثلها ، فبنى مدينة ارم في صحارى عدن في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من

(١) مقدمة ابن خلدون : تعليق الدكتور على عبد الواحد والى ص ٢٩١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر والأنهار المطردة ولما
تم بناؤها سار اليها أهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة
يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر
ذلك الطبرى والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين . وينقلون
عن عبد الله بن قلابة من الصحابة انه خرج في طلب ابل له فوق
عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية ، فأحضره وقص
عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي ارم ذات
العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير
على حاجبه خال وعلى عنقه خال . يخرج في طلب ابل له ، ثم التفت
فابصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل .

ويعلق ابن خلدون على كلام المفسرين السابق فينقده قائلا :
وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ ، في شيء من بقاع الأرض
وصحارى عدن التى زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن ،
ومازال عمرائه متعاقبا والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ، ولم
ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من
الأمم . ولو قالوا أنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه .
الا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة ، وبعضهم يقول انها دمشق ، بناء
على أن قوم عاد ملكوها . وقد ينتهى الهذيان ببعضهم الى أنها غائبة
وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه
بالخرافات ، ويسلل ابن خلدون وقوع المفسرين في هذا الخطأ
بقوله :

والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في
لفظة ذات العماد أنها صفة ارم ، وحملوا العماد على الأساطين ،
فتعين ان يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير بعاد ارم على
الاضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هي أشبه

بالأقاصيص الموضوعة ، والتي هي أقرب الى الكذب ، المنقولة في عدد المضحكات . والا فالعماد الآخبية بل الخيام ، وان أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء واساطين على العموم . بما اشتهر من قوتيم ، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة او غيرها . وان أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى اضافة الفصيطة الى القبيلة ، كما تقول قريش كنانة ؛ والياس مضر وربيعه نزار . وأى ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه امثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها نبعدها عن الصحة «(١)» .

ولكلام ابن خلدون المتقدم اثره الواضح في تفسير الأستاذ الامام لقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد » اذ ينبه الى خطأ المفسرين في حكاية القصص السابق بقوله : « وقد يروى المفسرون هنا حكايات في تصوير ارم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله فاذا وقع اليك شيء من كتبهم ونظرت في هذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده في وصف ارم واياك ان تنظر فيه » (٢) .

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور وافي ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير جزء عم ص ٧٩ .

الأساس التاسع

اهتمامه بتنظيم الحياة الاجتماعية

على أسس من هدى القرآن

إذا أمعنا النظر في تاريخ الأديان السماوية وجدناها جميعا من هدى الله . جاءت لتنظيم المجتمع من ناحية وتصحيح العقيدة من ناحية أخرى .

وكل نبي كان يعالج الأخطاء الشائعة في مجتمعه . على نحو ما فعل شعيب في محاربته لتطيف الكيل والميزان . وما فعله لوط في حربه للأشذوذ الجنسي وهكذا .

حتى إذا جاء الإسلام كان دينا عاما لجميع الناس : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

دينا خائدا يحمل بين طياته عوامل بقائه ومقومات خلوده : « انا نحن نزلنا الفكر وانا له لحافظون » .

ولقد جاء الإسلام ، والمجتمع العربي بل والانسان كله في دمار وانهار . العرب يئدون البنات ، ويقىمون الحروب لأتفه الأسباب وينهبون تجارة القوافل السائرة في الصحراء .

والنمرس يعبدون النار ، وتنتشر بينهم المذاهب الفاسدة كالزندقية والمناوية التي تزعم اباحة النساء والأموال للناس جميعا .

والروم فى حرب طاحنة حول طبيعة المسيح . والمذاهب المسيحية ، وهى حرب امتد لهابها الى مصر ، فكان هناك صراع رهيب بين اتباع المذهب الملكاني والمذهب اليعقوبى . وكان الاول مذهب الهيئة الحاكمة ، والثانى مذهب سواد الشعب .

فى وسط هذه الظلمات الحاكمة انبثق نور الاسلام من بلاد العرب وهاجر النبى (صلى الله عليه وسلم) من مكة الى المدينة .

وعنى القرآن المدنى بتنظيم المجتمع الاسلامى تنظيميا شاملا حتى يضمن استقرار الأسرة وترباط الأفراد والجماعات ، وقرر القرآن المدنى ايضا حق الفقير والمحتاج واليتيم والقريب ووضع حق الزوج والزوجة ، ورسم لهما سبيل الحياة الهنيئة السعيدة . ووضع القواعد لاصلاح ما عساه ينشب بينهما من نزاع . ورسم نظام المواريث وأمر باتباعه وحذر من الخروج عليه .

وبالجملة فان التنظيم الاسلامى الجديد حول العرب من مجموعة متدابرة متناثرة الى قوة متحدة متعاونة متضامنة .

وحمل الاسلام معه هذا الاصلاح الاجتماعى الى كل البلاد انلى فتحها فى فارس والروم ومصر وغيرها .

ولكن اهمال هذه التعاليم ، وضعف المسلمين فى عصورهم المتخلفة ، وتفوق غيرهم عليهم جعلهم يشكون فى نظم الاسلام وقدرتها على تنظيم المجتمع الحديث .

والمغلوب دائما مولع بتقليد الغالب .

وهنا نهض الاستاذ الامام ووضح ان القرآن جامع لأصول

العبران وسنن الاجتماع وبوافق المصلحة الناس في كل زمان
ومكان .

١ - تنظيم المجتمع الاسلامي :

ان واجبنا ان ننظم مجتمعا على اساس متين من هدى القرآن
مع تطوير اوامره بما يناسب الحياة الحديثة . ويتفق مع المصلحة
العامة . فاذا دعا القرآن الى اتفاق المال في سبيل الله ، فان
ذلك يعم انشاء الجمعيات الخيرية ، والمؤسسات التعليمية والملاجئ
والمستشفيات ، وكث ما من شأنه ان ينجز بالاجتماع لان صلاح
المجتمع في ذلك العصر لا يتم الا بهذا التنظيم . وما لا يتم الواجب
الا به فهو واجب .

وفي تفسير الامام لقوله تعالى : « فاما اليتيم فلا تقهر »
يقول : اي لا تذله بل ارفع نفسه بالادب وهذب بكماله الاخلاق ،
ليكون عضوا في جباةك ينفعها وينتفع به ولا يفسده التدليل
والهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى اذاها الى كل من يخالطها
من امته . ولو علم الناس ما في اهمال قربة الايتام من الفساد
في الامة لقدروا عناية الله بامرهم في كتابه قدرها . وليذلوا من
سعيهم ومن ماله في اصلاح حال الايتام كل ما استطاعوا . ولو
احس كل واحد بان الموت قريب منه وانه حدف لنيله لا يدري حتى
ياخذه عن وئده فيتركه اما غنيا ياكل امواله الاوصياء ، او فقيرا
يستذله الاذنفاء ، لتسابقوا الى تقويم امر اليتيم ، تسابقهم الى
اللذة والنعيم (١) .

وقد اوصت الآيات الاولى من سورة النساء باليتيم وحذرت
الوصى من اتلاف ماله . والاستاذ الامام يعلق على هذه الآيات

(١) تفسير جزء عم ص ١٢٢ .

يقوله : « وكان هؤلاء الأوصياء الجبناء الذين نعرغهم لم يسمعوا قول الله في ذلك قط ، فقد كثرت فيهم وفي غيرهم الخيانة وأكل أموال اليتامى والسفهاء والأوقاف بالحيل حتى أنه يمكنني أن أقول أنه لا يوجد في القطر المصري عشرة أشخاص يصلحون للوصاية على اليتيم أو السفية أو الوقف . وقد نص الفقهاء على أن النظر على الوقف كالوصاية على اليتيم . فانظروا الى هذه الدقة في الآية الكريمة من الأمر باختبار اليتيم ودفع ماله اليه عند بلوغه رشده . ومن النهي عن أكل شيء منه بطرق الإسراف ومبادرة كبره ، ومن الأمر بالإشهاد عليه عند الدفع ثم التنبيه الى مراقبة الله تعالى التي تتناول جميع ذلك (١) . »

٢ - حق الفرد والمجتمع :

وقد اهتم الأستاذ الامام كثيرا في تفسيره بأشعار البرد بحق المجتمع عليه ، وأن الانسان لا يكون انسانا الا بانسه بالآخرين واهتمامه بمصالحهم والعمل على تخفيف حدة التوتر بين الأغنياء والفقراء وأن يكون المسلم حسن المعاملة مع أهله وجيرانه وذوى رحمه وقرباته .

قال في تفسير قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما منكتم ايما نكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (٢) .

إذا قام الانسان بحقوق الله تعالى فضحت عقيدته ، وصلحت أعماله ، وقام بحقوق الوالدين فصلح حالهما وحاله . تتكون بذلك

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٩١ .

(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد ، وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة . لماذا عاون اهله البيوت الأخرى التى تنسب الى هذا البيت بالقرابة وعاونته هى أيضا بكون لكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه ان يحسن بها الى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مثونة الحاجة الى الناس الذين لا يجتمعهم بهم النسيب وهم الذين عطفهم على ذوى القرى : « واليتامى والمساكين » فان الله تعالى يوصى باليتامى فى مثل هذا المقام لان اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوى الفيور وهم الأب . او تكون تربيته ناقصة بالجهل الذى هو جناية على العقل . او نساد الاخلاق الذى هو جناية على النفس . وهو بجهله ونساده اخلاقه يكون شرا على اولاد الناس يعاشرهم فيسرى اليهم فساده وقلما تستطيع الام ان تربي اولادها تربية كاملة مهما اتسمت معارفها . و كذلك المساكين لا تنتظم الهيئة الاجتماعية الا بالعناية بهم وصلاح حالهم ، فان اهل أمرهم الاغنياء كانوا بلاء وببلاء على الناس . وقلما ينظر الناس فى المسكنة الى غير العدم وصغر الكف ، والمهم معرفة سبب ذلك فان من الناس من يكون سبب عدمه وعوزة ضعفه وعجزه عن التكسب . او نزول الجوائح السماوية التى تذهب بماله من غير تقصير منه وهذا هو المسكين الحقيقى الذى تجب مواساته بالمال الذى يقع موقعا من كفايته ، ومنهم العادم الذى ما عدم المال الا بالاسراف والتبذير والمخيلة والفخفة الباطلة . ومنهم العادم الذى ما عدم المال الا لكسبه واهماله للكسب طمعا فيما فى ايدى الناس واتكالا عليهم . او بساوكة فيه مسلك القش والخيانة حتى يفضح سره ويظهر أمره فيحبط عمله .

فالمسكين على ضربين : ممكن معذور يساعد
بالمال ينفقه أو يساعد على تحصيله بكسبه ان كان قادرا على
ذلك .

وممكن غير معذور يرشد الى تقصيره ولا يساعد على
اسرافه وتبذيره ، بل يدل على طرق الكسب فان اتعظ وقبل
النصح ، والا ترك امره الى اولى الامر والله بصير بالعباد (١) .

وواضح ان الامام يدعو الى تنظيم الاحسان حتى يثمر الثمرة
المرجوة اما الكسالى والمسرغفون فالاحسان اليهم تعطيل
لمواهبهم وشل لعناصر الانتاج في الأمة . ولذا يجب توجيههم
ليكونوا مصدر خير واسعاد لا مصدر تأخر وكساد .

٣ - الحكمة من تشريع العبادات :

وبين الاستاذ الامام ان الحكمة من تشريع العبادات في
الاسلام هي تهذيب الروح وتربية الضمير وتقويم الخلق واصلاح
السلوك الانساني ليكون المسلم سلما لأخيه المسلم . فيفدو وقد
سلم الناس من لسانه وبده ، ويكون المؤمن آمينا على اموال الناس
واعراضهم .

وكل عبادة لا يحقق الغرض منها فهي مردودة ، لانها فقدت
حياتها وقوامها ، والثمره المرجوة منها .

قال معلقا على تفسير قوله تعالى : « فويل للمصلين الذين
هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراعون ويمنعون الماعون »
الماعون كل ما يستعان به . فاولئك الذين يصلون ولا يأتون
من الاعمال الا ما يرى الناس ما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم

(١) تفسير النار ج ٥ ص ٩١ .

ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم أو نقصا يلم بجاههم ثم ينفمون الناس دعوتهم ولا ينفضون يباعث الرحمة الى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم . أولئك لا تنفعهم صلاتهم ولا تخرجهم من حد المنذرين بالدين ، لا فرق في ذلك بين من وسسوا أنفسهم بسبب الاسلام او غيره . فان حكم الله واحد لا محاباة فيه للأسماء المنقطلة التي لا قيمة لها الا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع ، وخاصة المصدق بالدين التي تميزه عن سواه من المكذبين هي العدل والرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التي يمتاز بها عن المصدقين هي احتقار حقوق الضعفاء وثقة الاحتمام بمن تلدغهم آلام الحاجة وحب الأثرة بالمال والتميز بالقوة ومنع المعروف عن يستحقه من الناس ، فيؤثر تعدد نصا اصرح من هذا في تعريف التصديق بالدين وبيان الصفات التي يعرف بها ونفى شرح التكذيب بالدين وتقصيل لوازمه وبما يتميز به عن التصديق ؟ . فهل للمسلمين أي الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبما جاء به ان يقيسوا احوالهم وبما يجدونه من انفسهم بما يقلونه في هذه السورة الشريفة ليصرفوا هل هم من قسم المكذبين او المصدقين وليقلعوا عن الفرور برسم هذه الصلاة الذي لا اثر له الا في ظواهر اعضائهم . وبهذا الجوع الذي يسببونه صياما ولا اثر له الا في عبوس وجوهمهم ، وبذاءة المسكنتهم ، وضرباع اوقاتهم في اللهو والبطالة . وليرجسوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصلاة ويحيوا مسورتها بالخشوع وتطامن القوى الانسانية لقوة المعلى الأعلى فلا يخرجون من الصلاة الا وهم ذاكرون انهم عبيد له ياتمسكون رضاه ، في رعاية حقوق برأياه ، ويجعلوا

من الصوم ، ودبا للشهوة ومهذبا للرغبة ورادعا للنفس عن الأثرة . فلا يكون في صومهم الا الخير لأنفسهم ولقومهم . ثم يؤدوا الزكاة المفروضة ولا يخلوا فيما ينفع الخاصة والعامة : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ، أفلا ينظرون الى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلبت الأهم عليهم وانتادتها أرضهم من كل جانب ، فعلموا ان هذا هو عقاب الله عقاب الله للمكذبين . فيطلبوا النجاة من هذا كله يأخذ سبيل المتصدقين وينزعوا عن الانخداع بما سولاه لهم أو هام بعض من يدعى العلم منهم . فان العيان قد كذبهم وأظهر ان سنة الله في الخلق لا تتبدل ، وان صورة الانتساب الى دين لا تغنى عن اتباع هديه الصحيح الذى يدل عليه النص بعد التواتر فى النقل ، وجادة التدبر من العقل (١) .

٤ - تقوية شخصية المسلم :

ولم يكن الاستاذ الامام يسير فى تفسيره فى دائرة مقفلة بعيدا عن عصره وأحداث الحياة فى زمنه . بل انه تجاوب مع عصره فقد خب فى الحياة الاجتماعية ووضع . فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية ، وأذكى نار الثورة العرابية ، ورأس تحرير الوقائع المصرية .

فلا بد ان يكون تفسيره للقرآن متأثرا برغبته فى الإصلاح الاجتماعى ومحاربته لعيوب الامة التى خلفها الاستعمار من الخنوع والتواكل والكسل والنفاق وحب النفس والأنانية ، محاولا فى نفس الوقت تقوية شخصية المسلم وامدادها بما يؤكد ذاته وينمى مواهبه من حرية الفكر وسعة الأفق والاهتمام

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٧ .

بالوطن . ومساعدة المحتاج وكرد الاحتلال وتوحيد الشعوب
بين الأمة الإسلامية .

فى سورة العاديات « يقسم الله بالخيل التى تعدو ويشند
عدوها حتى يخرج الشرر من حواشرها لتجسم على عدو وقت
الصباح لتأخذه على غرة » .

وعند تفسير الأستاذ الامام لهذه السورة ينتهز الفرصة لبيان
ما لئن ركوب الخيل من شأن فى الاسلام . لا باعتباره من قبيل
الفنون الرياضية ، بل كاعداد حربي نافع للدفاع الوطنى .

وبعد أن ذكر الامام قوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم
من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وأشار
الى ما ورد من احاديث نبوية فى دعوة المسلمين الى ان يكونوا
فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل وأن يتنافسوا
فى قنية عقائلها . قال : من اعجب العجب ان ترى أما هذا كتابها ،
قد اهلكت شأن الخيل والفروسية ، الى ان صار يشار
الى راكبها منهم بالهزء والسخرية ، واخذت كرام الخيل تهجر
بلادهم الى بلاد اخرى ، ليس من أغرب ما يستغرب ان اناسا
يزعمون ان هذا الكتاب كتابهم يكون طلاب العلوم الدينية منهم
اشد الناس رهبة من ركوب الخيل ، وأبعدهم عن صفات الرجولية
حتى كان من أحد اساتذتهم المشهور اليهم بالبنان — عندما كنت
اكتبه فى منافع بعض العلوم وعوائدها فى علم الدين ان قال :
« اذا كان كل ما يفيد فى الدين نعلمه لطلبة العلم كان علينا ان
نعلمهم ركوب الخيل » قال ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على .
كان تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغي لطلبة العلم وهم
يقولون ان انعلماء ورثة الانبياء فهل هذه الأعمال وهذه العقائد
تتفق مع الايمان بهذا الكتاب (١) .

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٥ - الدعوة الى التعليم :

وحض الامام على التعليم ودعا اليه في كثير من مواضع تفسيره باعتباره من أهم الوسائل لاصلاح المجتمع المصري .
وبين أن التعليم يعود على المجتمع بالتماسك والترابط .
ويحقق انروح الجماعية بين الافراد ويرفع المستوى الثقافى والفكرى ، وبالتالي يعود على الوطن بالعز والارتقاء .

(١) وقد ذكر القرآن العلم في أكثر من موضع . وحث النبى (صلى الله عليه وسلم) على طلب العلم . بل ان اول آية نزلت من القرآن تناولت شأن العلم . ولذلك نجد الامام عند تفسيره لهذه الآيات الأولى من سورة اقرأ وهى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خالق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » يبين الامام في تفسيره فضل العلم ويوضح أنه « لا يوجد بيان ابرع ولا دليل اقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع انواعه من افتتاح الله كتابه ، وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات . فان لم يهتد المسلمون بهذا الهدى . ولم ينبههم النظر فيه الى النهوض الى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن ابصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات من الجهل ، وان لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين . ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع . فلا ارشدهم الله ابدا (١) .

(ب) وبين الامام أن التعليم ليس مجرد حشو الذهن بالمعلومات ولكنه الاهتمام بالشخصية وتربيتها وتهذيبها حتى

(١) تفسير جزء عم ص ١٢٦ .

تكون لبنة صالحة في صرح الوطن . وبالتالي يؤدي التعليم الى خلق المواطن الصالح . غيبق الامام وزارة التربية والتعليم بخمسين عاما حيث يقول : « ان الانسان لا يكون انسانا حقيقيا الا بالتربية . وليست هي الا عبارة عن اتباع الاصول التي جاء بها الانبياء والمرسلون من الاحكام والحكم والتعاليم . . تعلم الانسان الصدق ، والابانة . ومحبة نفسه . فاذا تربى الانسان احب نفسه لاجل ان يحب غيره . واحب غيره لاجل ان يحب نفسه .

اذا تربى الانسان احس في نفسه انه سعيد بوجود الآخر معه . ولكن نحن في وسط لا يحس احدنا الا بانه شقي بوجود غيره . وقد ذهبت الثقة بيننا ادراج الرياح وخافها الشكوك والريب والظنون الاثيمة . المولدة للوساوس والاوهام . ولا شقاء للمراء اعظم من وجود خبيثه في هذا الشقاء .

ولو كنا متربين لا نبت فينا احساس واحد ، يؤلف بين شعورنا وحاجتنا ، وجبئذ يحس كل فرد غينا بان عليه وظيفه يؤديها لنفسه وغيره .

« ان العلم الحقيقي هو الذي يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من افراد جماعته . فهو اذا يعلم الانسان : من هو ؟ ومن معه ؟ فيكون من ذلك شعور واحد . وروابط واحدة ، هي مسيرته بالاتحاد .

الا ان الابتعاد ثمره تفسيد ذات غرور واوراق وجذوع وجذور ، وهي الاخلاق الفاضلة بمرتبها من غلى المبادئ ان يربوا انفسهم تربية اسلامية حقيقية، ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل امل باطل وكى الامانى احلام واوعام . وكل احتجاج بغير معنى عجز . الناس في كل الامم اكفاء في التمثيل ولا نقص في

الدنيا الا من جهة العقول والاخلاق ، وهى لا تكمل الا بالتربية .
وما وراء ذلك من العلوم لا يبيث فيها غير اللقطة والهديان (١) » .

« والسبب فى فقر البلاد عدم سريان روح التربية الشرعية
الفعلية ، التى تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه
بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته .
ان لم نقل تجعل الاحساس الاول اقوى من الثانى ، وتزيد فى
احساس الانسان بمنفعه ومضاره (٢) .

« وطالما تشوغت النفوس لان تكون التربية فى المدارس على
هذا النمط المفيد الذى عول عليه جميع الامم المتقدمة فى مبادئ
تعاليمهم . فان من تتبع قوانين التعليم فى الممالك الاوروبية ،
راها بأسرها موجهة للابتداء ، بالتعاليم الدينية ، والاستمرار عليها
الى ما يزيد على ست سنوات تقريبا (٣) » .

(ج) ودعا الامام الى اصلاح برامج التعليم والعناية بالتعليم
الدينى ، وبين أنه لا يكفى فى التعليم الدينى الاستظهار والحفظ
لآيات القرآن بل لابد من العناية اولا بتوضيح العقيدة الاسلامية ،
وتحبيبها الى النفوس حتى ينشأ المسلم محبا لربه مقتنعا بفضائل
دينه ولا يتم ذلك الا عن طريق القدوة الحسنة ، والسلوك العملى
السليم ، الذى يتفق مع هدى القرآن والسنة وأعمال الصحابة .
ولذلك وضع الامام « أن اصلاح الجداول — فى التعليم — لا يتم
بان يشرح فى غنون المدارس الاسلامية بعض الكتب الفقهية ، مع
بقاء التعليم على طريقه المعهودة فى المحلجد ، وفى دروس بعض

(١) تاريخ الامام . ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٨١ .

العلماء . فان العلوم العملية اذا لم تبين على عقائد صحيحة وايمان صادق ، لا تثبت أن تـضمحل ولئن ثبتت فانما تسوق الى اعمال خالية من النيات ، وخاوية من سر الاخلاص . فتكون أشبه شيء بالباطلة ، في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها ، كما قدمنا .

فلا بد أن يوجه النظر الى من تقوى به العقيدة ، ويستحكم سلطانها على العقول ؛ ثم الى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن . فيكون التذكـار مستحفظا لما يصل اليها منه ، ثم الى من اتقه الباطني — الى من الضمير — وهو ما تعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك منها : كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن ، وسائر الرذائل ، والمنجى منها : كالصدق والأمانة والرضا والشجاعة ، وسائر الفضائل ، ويضم الى ذلك باقى علم الحلال والحرام ، على ما هو مذكور فى الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الإسلامية ، ثم الى تربية تحفظ ذلك وتروض على العمل بما تعمل به .

« ثم يكون التعليم فى هذه الفنون المذكورة ، والتربية ، على وجه يتفق مع قواعدنا ، مستنديا الى الشرع الشريف ، بحيث نذكر مأخذها من القرآن والسنة الصحيحة وما صح أثره ومن أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن هذا حظهم ، كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله .

فالمقصد بالذات علمان (علم الظاهر ، وعلم الباطن) وهما أصلان ومجموعهما ركن الاصلاح ، والركن الآخر « التربية » بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة . تصدر عنها

الأفعال بلا تعبد ، ثم يتبعها فن آخر يقوى على الغرض منها هو
فن التاريخ الدينى خصوصا سيرة النبی (صلى الله عليه وسلم)
وسيرة أصحابه ، والخلفاء الراشدين (١) .

(د) وكان الأستاذ الامام من أشد الناس حرصا على
تثقيف الفتیات المسلمات تثقيفا يعينهن على أداء رسالتهن فى
نهضة البلاد الإسلامية (٢) .

وكان يرى أن الأم الجاعلة عاجزة عن تربية ابنائها ، وعن
بث خصال الخير والفضيلة فيهم . « وأنهما حين تقول لابنها خذ
هذا الشيء وأخذه من الأمين ، تعلمه الأنانية . وقد تقول له إذا
سألك أخوك فلا تخبره أنك أخذت شيئا ، فتعلمه أخس خصال
الرجال وهو الكذب (٣) » .

ولذلك دعا الى تعليم البنات ووضح أن القرآن والسنة دعوا
الى تعليم المرأة لأن العلم محدود فى ذاته ولأنه وسيلة الى الكمال ،
ولتستطيع المرأة المسلمة أن تشرح أهداف الإسلام وآدابه .
وتدافع عن عقائده ومثله فى المجال الدولية والمؤتمرات العالمية .
ولتستطيع اقتناع الخصوم ومناظرة أعداء الإسلام . كما
قال تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل
تعالوا نذع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونسאתكم وأنفسنا وأنفسكم ،
ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٤) » .

(١) تاريخ الامام ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤١١ .

(٢) عثمان أمين - رائد الفكر العربى ص ٢٠٧ .

(٣) دكتور محمد الدينى محاضرات عن فلسفة محمد عبده لطلبة ليسانص
دار العلوم عام ١٩٥٥ .

(٤) سورة آل عمران آية ٦١ .

وقد تأثر بدعوة الإمام إلى تطعيم المرأة كثيرون - وان
انحرف بعضهم بها .

وفي مقدمة من سار في طريق الإمام السيد رشيد رضا
حيث يقول معلقا على تفسير الإمام لآية البقرة :

« وفي الآية ما ترى من الحكم بمشاركة النساء في الاجتماع
للمباراة القومية والمناضلة الدينية . وهو مبني على اعتبار المرأة
كالرجل حتى في الأمور العامة إلا ما استثني منها ككونها
لا تبأشـر الحرب بنفسها بل يكون حظها من الجهاد خدمة
المحاربين كمداداة الجرحى . وقد علمنا مما تقدم أن الحكمة في
الدعوة إلى المباحاة على اظهار الثقة بالاعتقاد واليقين فيه ، فلو
لم يعلم الله أن المؤمنات على يقين في اعتقادهن كالمؤمنين لما
أشـركهن معهم في هذا الحكم فأين هذا من حال نسائنا
اليوم . ومن اعتقاد جمهورنا فيها ونبتني أن يكن عليه ؟ لا علم
لهن بحقائق الدين ولا بما بيننا وبين غبرنا من الخلاف والوفاق
ولا مشاركة الرجال في عمل الأعيال الدينية ولا الاجتماعية
فهل فرض الإسلام على نساء الأغنياء ولا سبيها في المدن
إلا بعزم غير التطرس والتطريز والتورن (١) . وعلى نساء
الفقراء ، ولا سبيها القرى والبيوادي ، أن يكن كالاتن الحاملة
والبقر المأبلة ؟ وهل حرم على هؤلاء وأولئك علم الدنيا والدين .
والاشـتراك في شيء من شأنون العالمين ؟ كلا بل غسق
الرجال عن أمر ربهم فوضعوها النساء في هذا الموضع
بحكم قوتهم فصـغرت نفوسهن وعزلت آدابهن وفـسدت
ديانتهم ونحفت انسانيتهن وصـرن كالدواجن في البيوت

(١) التطرس : التطريق في الطعام والشراب . والتطريز في اللباس تدهي
الفاخر النفيس منه . والتورن : المبالغة في التطيب والتنعم .

أو السوائم في الصحراء . أو السوائى على السواقي والآبار أو ذوات الحرث في الحقول والغيطان ، غسست تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعى من الأفراد الى الجماعات نعم الأسر والعشائر والشعوب والقبائل ، ولبت المسلمون على هذا الجهل الغاضح أحقابا . حتى قام فيهم من يميزهم باحتقار النساء واستعبادهن ويطالبونهم بتحريرهن ويشاركتهن في العلم والأدب وشئون الحياة . منهم من يطالب بهذا اتباعا لهدى الإسلام وما جاء به من الإصلاح ، ومنهم من يطالب به تقليدا لمدنية أوروبا . وقد استحسنّت الدعوة الأولى بالقول دون العمل وأجيبّت الدعوة الأخرى بالعمل ، على ذم الأكثرين لها بالقول . فأنشأ المسلمون يعلمون بناتهم القراءة والكتابة وبعض اللغات الأوروبية والعزف آلات الآلهو وبعض أعمال اليد كالخطابة والتطريز ، ولكن هذا التعليم لا يصحبه شيء من التربية الدينية ولا من إصلاح الأخلاق والعادات ، بل هو من عوامل الانقلاب الاجتماعى الذى تجهل عاقبته .

٦ - محاربة الترف :

وحارب الاستاذ الامام الترف والذخ والاسراف الذى كان متفشيا في بلاط الحاكم ووجوه البلاد . وبين أهذية المال ، وأنه قوام الدولة ، وشيئنا على علماء المساجد تزهيدهم الناس في الدنيا حتى اخلدوا الى الأرض وانقطع جدهم ومجدهم . وفى تفسير قوله تعالى : « **وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم** » يقول : وإنما قال أموالكم ولم يقل أموالهم مع أن الخطاب للأولياء والمال للسفهاء الذين في ولايتهم للتنبيه على أن التكافل في الأمة واعتبار مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين . كما قلنا في آيات أخرى .

« التي جعل الله لكم قواما » . وفى هذه الجملة من الآية تحريض على حفظ المال وتعريف بقيمته . فلا يجوز للمسلم أن يبذر أمواله ، وكان السلف من أشد الناس محافظة على ما فى أيديهم وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال ، فإين هذا مما نسمعه من خطباء مساجدنا من ترهيد الناس وغل أيديهم واغرائهم بالكسل والخمول . حتى صار المسلم يعدل عن الكسب الشريف الى الكسب المردول ، من الغش والحيلة والخداع . ذاك ان الانسان ببإل بطبعه الى الراحة . ثم انه لابد له من الكسب فيختار أقله سعيا وأخفه مشقة ، وهو أخسه وأبعده عن الشرف . على أن هذا الترهيد فى الدنيا من هؤلاء لم يأت بها يساق لأجله من الترغيب فى الآخرة والاستعداد لها . بل ان خطباءنا ووعاظنا قد زهدوا الناس وقطعواهم من الآخرة فحسروا الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين . وما ذلك الا لجبنهم وعدم عملهم بها يعطون به غيرهم ، والواجب على المسلم العارف بالاسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة (١) .

(١) وانت تشاهد أن الامام يدعو أئمة المساجد أن يتجهوا اتجاهها عليا اجتماعيا فى خطبهم ووعظهم . وأن يكون الدين وسيلة للنهوض بالمجتمع . ودعوة لبذل الجهد وزيادة الانتاج . وتلاحظ الآن أن نفمة الزهد فى الدنيا والبعد عنها بدأت تنحسر من خطب الأئمة ونرى أن خطب المسلمين تعالج اخص احوال المسلمين ، وتلك بغضل توجيهات الامام وتلاميذه الذين حملوا فكرته وتأثروا بها ودعوا الناس اليها .

(١) تفسير المنار ج٤ ص ٢٨٤ .

(ب) وممن تأثر بالامام ، السيد رشيد رضا ، حيث يقول معلقا على الآية السابقة : « ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما » : ومعنى جعل الاموال قياما للناس ان تقوم وتثبت بها منافعهم ومرافقهم ولا يمكن ان يوجد في الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة ويبلغ ما تصل اليه من البلاغة في الحث على الاقتصاد وبيان فائده ومنفعته ، والتنفير من الاسراف والتبذير الذي هو شأن السفهاء وبيان غائلته وسوء مضته . وكأنه قال : ان منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة لاتزال قائمة ثابتة مادامت اموالكم في ايدي الراشدين المقتصدين منكم الذين يحسنون تثميرها وتوزيعها ولا يتجاوزون حدود المصلحة في انفاق ما ينفقونه منها . فاذا وقعت في ايدي السفهاء المسرعين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع سالما ، ويسقط ما كان من تلك المصالح قائما . فهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال في الاموال كالآلور كلها . ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله ٢٥ : ٦٧ « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوايا » . وقد نهانا الله عن التبذير حتى في مقام الانفاق وجعل الميزر كالشيطان مبالغا في الكفر

وفي الاحاديث النبوية مثل ذلك فمنها « ما عال من التصد » (١) « والاقتصاد في النفقة نصف المعيشة والتودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم » (٢) . « ومن فقه

(١) مسند الامام احمد .

(٢) الطبراني والبيهقي .

الرجل رفقه في مبيشته (١) « . « ومن اقتصد أغناه الله . ومن بذر
أفقره الله . (٢) « . « ونعم المال الصالح للدين الصالح (٣) » .

(ج) ومن تأثر بالامام ايضا المرحوم الدكتور محمد عبدالله
دراز حيث يقول (٤) في تفسير قوله تعالى : « ولا تؤتوا
السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » . لا تؤتوا السفهاء
أموالكم . هذه الآية دستور عام ليس خاصا بالنوحى أو الولي
كانها تقول ان المال وان كان منك لزبد أو عجزو ، إلا انه حق
للدولة ، فالجماعة مسئولة عن انصاف هذه الأموال . فالأمر
عام ينادى — أيها الولي على الدولة لا تول رئيسا ثمالية يبدد
الأموال .

أيها الرجل لا تدفع مالك الى مبدد مبدد . الخ . . فالمجموع
موزع على المجموع والغرض منه الوحدة والتكافل .

« التي جعل الله لكم قياما » . هذه الجملة من أعجب الأوامر
التي تأتي في دستور روى . فالل مال مع الحياة لانه قوام
الحياة . فهذه أعظم وصية لتشهير المال ومراعاة قيمته لانه يقوم
الحياة .

وليس ذلك شيئا غريبا عن روح القرآن . فأطول آية منه
جمعت بين الكتابة والشهادة والصادر والوارد في قوله تعالى :

(١) احمد والطبراني .

(٢) البرار .

(٣) الامام احمد .

(٤) من محاضرات الدكتور محمد عبد الله دراز لطلبة الليسانس بكلية
دار العلوم في تفسير سورة النساء عام ١٩٥٥ .

« يا أيها الذين آمنوا إذا تدايتمت بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان هـن ترضون من الشهداء ان تضل احداها فتذكر احداها الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسئموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها . واشهدوا اذا تباعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم (١) » .

٧ - اضرار تعدد الزوجات :

وبين الأستاذ الامام مفسد تعدد الزوجات وضراره بالمجتمع نرى عـصـرنا ، وان اباحة تعدد الزوجات مضيقة قد اشترط فيها ما يصعب تحقيقه فكأنه نهى عن كثرة الأزواج .

وذلك عند تفسير قوله تعالى : « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعدلوا (٢) » .

ويعلق الأستاذ الامام على تفسير هذه الآية بقوله : جاء ذكر تعدد الزوجات في سياق الكلام عن اليتامى والنهى عن اكل أموالهم ولو بواسطة الزوجية فقال ان أحسستم من أنفسكم

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) سورة النساء الآية ٣ .

الخوف من أن كل مال الزوجة اليتيمة فعليكم إلا تتزوجوا بها فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بها بإباحه لكم من الزواج بغيرهن أنى أربع نسوة ولكن أن خفتن إلا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزوا واحدة فقط والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك بل يصدق بتوهمه أيضا ، ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذى يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفا (١) .

(أ) فالأستاذ الامام يزعم الى أن الأصل فى الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تكون سكنا وامنا ويترتب على ذلك الثقة والاطمئنان المتبادل .

وان التعدد ضرورة يلجأ اليها من خاف الجور على اليتيمة من الأوصياء . أى ان الآية صرفت نظرهم عن ظلم اليتيمة بالتوسيع عليهم فيها أحل الله من النساء مثنى وثلاث ورباع .

واذا خاف الانسان الجور أو الظلم وجب أن يقتصر على الواحدة ولما قال الله : « فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة » علقه بقوله « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب من عدم الجور والظلم فجعل البعد عن الجور سببا فى التشريع وهذا يؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ومنبه الى أن العدل عزيز . وقد قال تعالى فى آية أخرى من هذه السورة : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وقد يحمل هذا على العدل فى ميل القلب ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدد بوجه ما ، ولما كان يظهر وجه قوله بعدما تقدم من الآية : « فلا

(١) المنار ج ٤ ص ٢٤٨ .

تميلوا كل الليل فتثروها كالمعلقة » والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه . وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يميل في آخر عهده الى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصصها بشيء دونهن أى بغير رضاهن وأذنهن وكان يقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك (أى ميل القلب) (١) .

(ب) ويرى الأستاذ الامام ان التعدد وان كانت له محاسنه في عصر السلف حيث النفوس سليمة والقلوب نظيفة والجميع يمثلون امر الدين ويتقون رب العالمين . فان التعدد له مساوئه في زمننا لكثرة مساويء الناس ، وضعف أخلاقهم . بل ان أكثر المعددين لزوجاتهم لا هم لهم الا قضاء الشهوة والمتعة المؤقتة . والله لا يحب الذواقين ولا الذواقات .

فواجب العلماء النظر في هذه المسألة من جديد ووضع رقابة على المعددين لتفأكد من تنفيذهم لما أوجبه الله من العدل . والبعد عن الجور أو الاقتصار على الواحدة . قال رحمه الله « كان للتعدد في صدر الاسلام فوائد أهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبيّة ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن لأن الدين كان متبكنا في نفوس النساء والرجال وكان اذى الضرة لا يتجاوز ضررتها . اما اليوم فالضرر ينتقل من كل ضرة الى ولدها والى والده والى سائر اقاربه ، فهي تفرى بينهم العداوة والبغضاء : تفرى ولدها بعداوة اخوته وتفرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها وهو بحماقته بطيح ادب نسائه اليه غيبب النساء في العائلة كلها . ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

لأنيت بما تقتضيه من جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكنب والخيانة والجبن والتزوير بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد واده ، والزوجة زوجها والزوج زوجته . كل ذلك واقع ثابت في المحاكم ، وناهيك بتربية المرأة التي لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد وهي جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه الا خرافات وضلالات تفتتها من أمثالها يتبرا منها كل كتاب منزل وكل نبي مرسل . فلو تربي النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هناك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وانما كان يكون ضرره مقضورا عليهن في الغالب . أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها . فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين يبيدوا الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين انزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فماذا ترتب على شيء منفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله . فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة : يعنى على قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح . قال الامام وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعاً عند الخوف من عدم العدل (١) .

(ج) وأنت ترى اهتمام الامام بالاصلاح الاجتماعى . وراه يثخص الداء ويصف الدواء ولا يتخرج من الاجتهاد فرسم بذلك طريق الاصلاح والاجتهاد لمن جاء بعده ، وترى ذلك جيداً

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٢٥٠ .

فى علاج السيد رشيد رضا لموضوع التعدد ودفاعه من
وجهة النظر الاسلامية (١) .

وفى كلام المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، حيث يخبرنا
ان النساء فى الدنيا يطالبن بتطبيق الشريعة الاسلامية فى
التعدد للنقص الشديد فى الرجال بعد الحرب . بل ويطلب
البعض برأى غريب هو ان المرأة لا تمكث مع زوجها أكثر من عام
ثم تتركه لتتال حظها منه مواطنة اخرى فى عام ثان وهكذا .

وبين حكمة الاسلام « فان أوروبا لا تبيع تعدد الزوجات
بينما تبيع تعدد الخليلات ولكن القرآن حارب هذه العشرة
الا بين الزوج وزوجته » (محرمات غير مباحات ولا متغللات
أخلاق) (٢) .

الا ما اعدل حكم الله ، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون .
ويرى فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد محمد المدنى عميد
كلية الشريعة الاسلامية ان التعدد انما ابيح فى مثل حالة
الوصى على اليتامى حيث يكون مضطرا للدخول عليهم ومراعاة
شئونهم ونبيهم من تصالح للزواج . وهو يخشى على نفسه
الفتنة . والمؤمن لا يرضى ان يكون فاتنا او مفتونا . فباح الله
للرجل فى مثل ذلك الظرف ان يكون له أكثر من واحدة اذا امن
الجور ، وبذلك يجمع بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه
المطلوب وبين وقاية نفسه ووقاية غيره من عوامل السوء
والفتنة . وبعد ان وضح هذا الراى وبينه تبينا كاملا قل :

(١) تفسير المنار ج٤ ص ٢٥١ وما بعدها .

(٢) محاضرات فى تفسير سورة النساء لطلبة ليسانس دار العلوم عام

١٩٥٥ للفضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

وبذلك يتبين :

١ - أن تعدد الزوجات إنما تُـرـع لمثل هذه الغاية التي هي الرغبة في القيام لليتامى بالقسط تحقيقا لأمر الله ورعاية لمصلحة اليتامى أنفسهم . وأنه ليس مشروعاً لمجرد ارضاء النفس وتحقيق الرغبة في النساء .

٢ - وأنه بهذا التفسير ليس غريباً عن موضوع اليتامى ، ولا دخيلاً في أحكامهم فإنه ذكر حلاً لمشكلة من مشكلاتهم في المجتمع حيث تقضى المصلحة بأن يقوم عليهم وصى بالقسط ، وتقضى الآداب الإسلامية بأن يتخرج الرجل من الالتقاء بمن هن أجنيات منه .

٣ - وأنه يمكن القياس على هذا الغرض بأن يباح التعدد إذا دعا داع إليه وأن يقيد التعدد إذا لم يكن له داع يشبه ما ذكره القرآن الكريم من « إقامة القسط في شأن اليتامى » .

٤ - وأن هذا كله مشروط - مع توخي الغاية الشريفة - بأن يأمن الزوج عدم الجور . لماذا خاف الجور . وجب عليه ألا يعدد (١) .

وليس في الشريعة ما يمنع أن يعهد بتقدير ظروف الناس في التعدد إلى هيئة رسمية اجتماعية أو قضائية ، وأن يقيد الناس في التعدد بحكم هذه الهيئة جوازا أو منعا .

فإن التعدد مباح بشرطين : أن يكون له مبرر وداع شريف معترف به شرعاً . وشرط آخر هو ألا يؤدي إلى الجور وعدم العدل .

(١) كتاب المجتمع الاسلامي كما تنقله سورة النساء لفضيلة الاستاذ محمد المنى ص ٢٧٢ .

موقف هذه الهيئة التاكيد من تحقق الشرطين السابقين حتى لا يقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به (١) .

وانت تشاهد ان التفسير بعد الاستاذ الامام نهج منها اجتماعيا يتخذ من القرآن اسسلا لاصلاح المجتمع . فكانت سنة حسنة سنها الامام فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة .

٨ - آداب السلوك :

واخيرا فقد رأيت ناشر الامام في تفسيره للقرآن الكريم برفقته الصادقة في اصلاح المجتمع وانقاذ المجتمع المصري المعاصر له من الهوة السحيقة التي كان يتردى فيها .

فربط الامام تفسيره للقرآن بآداب السلوك والحياة الاجتماعية ، حتى لتخال وانت تقرا تفسيره انك امام مدرس لعلم الاجتماع . وحين كان يفسر آيات تتناول الصلاة والزكاة والعبادات لا يفسرها تفسيراً لغوياً جافاً . بل يوضح جيداً صلة هذه الاوامر بالمجتمع . والقيمة الخلقية والاجتماعية والنفعية التي تعود على الناس من اتباعها . والاضرار التي تترتب على اهمالها . والطريقة التي اتبعها الاستاذ الامام هي عين ما ينادى به اساتذة التربية وعلم النفس حين يقولون ان احكم خطة للتربية الدينية ربطها بالمجتمع . والمقارنة بين السلوك السيئ وما يترتب عليه من الآثار المؤلمة لاصحابه في نفسه

(١) كتاب المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء للفضيلة الاستاذ محمد محمد المنشي .

وبين من يحيطون به . والسلوك الحميد وما يترتب عليه من
الفوائد العظيمة لصاحبه عند الناس وعند رب الناس (١) .

ونى آخر سورة الفجر ذكر القرآن أهل السوء ثم قفى
بذكر أهل الخير فى قوله تعالى : « يا أيها اتنفس المطمئنة ارجعى
الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

وقد قارن الامام بين السلوكين . وبين اضرار السلوك
السيئ وقيمة السلوك السوى لصاحبه وللمجتمع الذى
يحيط به فقال : « بعد ان ذكر حال الانسان . وقد خلى وطبعه
وحرصه وجشعه ، واستولت عليه رغبات جسده ،
وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه . ثم ذكر عاقبته
وما يصير اليه فى الحياة الأخرى . انتقل بنا الى ذكر الانسان
اذا ارتقى عن ذلك الطبع ، وترفع عن مواقع الحيوانية . واستعلى
برغائبه الى المطامح الروحانية . فكان فى الفنى شاكرا لا
يتناول الا الحق ولا يمنع صاحب الحق حقا . ولا يترك العناية
بأمر اليتيم ، ويطعم المسكين ، ويحمل غيره على الاقتداء به
فيما هو خير له ولمن حوله ، وكان فى الفقر صابرا لا يمد يده
الى ما ليس من حقه ولا يأتى الدنيئة ولا يطلب لغيره الرزية ،
ولا يغفل شأن اليتيم ولا يغفل عما يالم له المسكين . فاذا لم
تمكنه المعونة بالمال أمكنه المساعدة بالمقال . وبهذا يستحق وصف
المطمئن نائه راكن الى ربه فى جميع أمره ، واقف عند شرعه
ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك فى سبيله لا تزعزعه
الشهوات ، ولا تضطرب به الرغبات . ويستحق أن
يخاطب باسم النفس التى هى روح تنزع الى ما يليق بالروح

(١) التربية الدينية فى المرحلة الابتدائية ، صحيفة التربية ، عدد مايو

ولا ينادى باسم الانسان الذى يشير الى ما لى تكوينه من
النزعة الحيوانية لانه لم يسلطها عليه بل استخدمها لتكميل
نفسه وارجاعها الى معهدا المقدس فكانت جديرة بجوار ربها
وهي راضية بعملها فى الدنيا وبمرجعها فى الآخرة لأنها لم
تكن قط ساقطة . لا هي تسخط عملها فى غناها ، ولا تسخط
حالتها فى فقرها ، ولا تسخط صنيع ربها بها ، وهي مرضية
لأن من كانوا معها فى الدنيا راضون عنها لحسن صنعها والله
راض عنها لصالح عملها (١) .



(١) تفسير جزء عم ص ٨٦ .

الباب الثالث

مدرسة الأستاذ الإمام في التفسير

مدرسة الأستاذ الإمام في التفسير

تمهيد :

كان الأستاذ الإمام صاحب مدرسة في الإصلاح الديني هو ما وفي تفسير القرآن على وجه الخصوص . واستطاع الإمام محمد عبده أن يجرد تفسير القرآن عن كثير من الشوائب التي علقّت به فكان تفسيره فتحاً جديداً في عالم التفسير ومرحلة من مراحل تطوره استطاع الإمام أن يرسى قواعدها وأن يضع أساسها ويثبت مفاهيمها في نفوس أتباعه ومريديه .

وحمل لواء النهضة في التفسير تلاميذه من بعده . وفي مقدمتهم السيد رشيد رضا صاحب المنار . وفي هذا الباب من الرسالة تحاول أن نقتبع الأثر الذي تركه الإمام في تفسير القرآن . وأن نقارن بين تفسير المنار للشيخ محمد عبده ، وتفسير المنار لتلميذه السيد رشيد رضا .

فقد فسر الإمام في المنار سورة البقرة وآل عمران وجزءاً من سورة النساء ثم أكمل السيد رشيد رضا تفسير المنار لأثنى عشر جزءاً من القرآن الكريم .

وكثير من الناس يلتبس عليهم الأمر فيسندون تفسير المنار جميعه للشيخ محمد عبده .

بل ان هذا الخطأ قد وقع فيه أساتذة متخصصون من العرب
ووقع فيه أيضا المستشرق الكبير جولد تسيهر في كتابه مذاهب
التفسير الاسلامي حيث أسند الى الامام محمد عبده كلام تلميذه
السيد رشيد رضا .

ونحن نلتبس له العذر لأن لغته غير عربية فاشتبه عليه
كلام الأستاذ بكلام تلميذه لأن الاثنين من مدرسة واحدة ويحسن
بنا أن ننقل بين يدي هذا البحث جزءا من مقدمة تفسير المنار التي
كتبها السيد رشيد رضا . لأنها تلقى ضوءا على تاريخ تفسير
المنار وتوضح كلام الامام من كلام تلميذه .

قال السيد رشيد رضا في مقدمة المنار :

« كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير
يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايتة السامية فمنها
ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ونكت المعاني
ومصطلحات البيان .

ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين ،
واستنباط الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب
الفرق والمذاهب ، بعضها على بعض ، وبعضها يلفتة عنه
بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات . . وقد
زاد الفخر الرازي صارما آخر عن القرآن هو ما يورده في
تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم
الحادثة في الملة على ما كانت عليه في هذه كالهئية الفلكية
اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من
علوم هذا العصر وممنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيها
يسميه تفسير الآية فصولا طويلة — بمخاسبة كلمة ماردة

كالسما والأرض - فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير توجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح وهو ما نرى تفصيل الكلام عليه فى المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه .

ثم إلى العناية إلى مقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ومراعاة ألهام صنوف القارئ . وكثفت شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، إلى غير ذلك مما نراه قريباً وهو ما يسره الله بفضل له لهذا العاجز وهالك موجزاً من نبا تيسيره له .

وإذا قرأنا هذا الموجز الذى كتبه السيد رشيد رضا اتضحت أمامنا سلسلة الإصلاح الدينى على هذا النحو :

١ - كان السيد جمال الدين الأفغانى أساس النهضة الإسلامية الحديثة ورجل الإصلاح الذى نفخ فى هذا الشرق من روحه الفياضة فنبت فيه الحياة وعادت إليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق .

٢ - حمل راية الإصلاح تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده وكان إصلاحه دينياً اجتماعياً ، واهتم لذلك بتفسير القرآن الكريم وجعله أساساً لتربيته ونهضته الاجتماعية وإنكاره التربوية للنهوض بالامة المصرية والإسلامية .

٣ - كان السيد رشيد رضا صوفياً ناشئاً بقرية القلمون بطرابلس الشام وقرأ العروة الوثقى فتحول تصوفه السلبي إلى رغبة فى الجهاد ، وانتقل من رجل صالح إلى عالم صالح . وحضر إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده ملازمة التلميذ المخلص

واتخذ الشيخ أخا ورفيقا ومقررا لدروسه وترجمانا لنشر
عمله .

{ — خالف السيد رشيد رضا منهج امامه وأستاذه بيد أنها
مخالفة في طريقة عرض الفكرة وليست في أساس الفكرة أو
المنهج وصرح بذلك السيد رشيد رضا في مقدمته المنار فقال :

« هذا واننى لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه
رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة
سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها ، وفي تحقيق بعض المفردات
أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء . وفي الاكثار
من شواهد الآيات في السور المختلفة وفي بعض
الاستطرادات لتحقيق مسائل نشئت حاجة المسلمين الى
تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر أو يقوى حججهم
على خصومهم من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات
التي أعاها حلها بما يطمئن به القلب وتتمكن اليه النفس . .
وأستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة
وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن
والاهتداء به في نفسه وفي النهوض باصلاح أمته وتجديد شباب
ملته » .

وإذا كان الباب السابق قد بين منهج الامام محمد عبده في
تفسير القرآن الكريم . فان هذا الباب سيوضح منهج
تلميذه السيد رشيد رضا ، ويبين مدى التطور الذي طرأ على
تفسير المنار بعد وفاة الاستاذ الامام .

خصائص تفسير المنار

للسيد رشيد رضا

- الخاصة الأولى : التحقيق العلمى .
- الخاصة الثانية : تأثر صاحب المنار بأبن كثير .
- الخاصة الثالثة : تأثر صاحب المنار بالغزالي .
- الخاصة الرابعة : التوسع والاطالة .
- الخاصة الخامسة : بيان السنن الاجتماعية وأسباب التطورات التاريخية واستنباط ذلك من آيات القرآن الكريم .

للمفصلة الاولى :

التحقيق العلمى

تميز السيد رشيد رضا بالعلم الغزير والمعرفة المتنوعة ويعتبر حجة فى البحوث الفقهية والتشريعية وأصول الفقه ومعرفة رجال الحديث وأقوال المفسرين وعلوم القرآن .

« وكان الذى يدهش فى الشيخ رشيد رضا رسوخ قدمه فى مختلف العلوم حتى اذا نظرت اليه فى علم منها وعلمت مبلغ احاطته فيه ظننته متخصصا فى ذلك العلم وحده كأنه انفرد به .

والحال أن له فى سائر العلوم الملكة نفسها فكان اذا أمسك القلم تدفق نحوه وصرفا ولغة وبيانا وبديعا وفقها وحديثا وتفسيرا وتوحيدا وأصولا وكل ذلك فى نسق واحد .

هو وإن كان لا يسامى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى العلوم العقلية فقد سبقهما فى مزية الكتابة وفيض القلم إذ كانا يؤثران تنبيه العقول ، وإيقاظ الهمم من طريق الخطابة والمحاضرة وكانت مجالس جمال الدين لا يمر منها مجلس الا كان أشبه بمحاضرة تاريخية تسجل الفاظها وتحفظ جوامع كلماتها .

وكانت مجالس محمد عبده يقدر السامع أن يكتبها بأسرها
لا يزيد منها حرفاً من شدة احكامها وكانما هي فصول مكتوبة يقرأها
قارئ • وكانما هي نقثات سحر في استيلائها على الأفكار وطالما
خرج السامعون منها نشاوى تترنح أعطافهم • فأما السيد رشيد
فانصرف بكلية الى أعمال القلم وصار يكتب في الساعات مالا
يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع حتى لو قيل أن محصول قلمه
قد يتوزع على عشرة لكتاب كبار ويصيب كلا منهم نصيب واقر لم
يكن في ذلك أدنى غلو • لأن سهولة الكتابة التي كانت عند صاحب
المنار بما أوتي من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة • وانتظام
المنتين المطبوع والمسموع كانت آية باهرة لا يتمارى فيها الا حاسد
أو معاند •

وتفسير السيد رشيد رضا للقرآن الكريم هو وحده كاف
ليخلده بين علماء هذه الأمة « (١) » •

لقد كان الأستاذ محمد عبده مفسراً للقرآن ولكن روح الاصلاح
والرغبة فيه كانت مسيطرة على تفسيره •

ولعل كثرة مشاغل الامام وتنوع خدماته لم تهين له الاستقرار
الملازم للتعمق في البحث والتبحر في التأليف •

بينما كان السيد رشيد رضا عالماً مستقراً مؤلفاً بطبعه متنوع
الثقافة يغلب على تأليفه الطابع العملي والبحث العميق وقد حنق
من التأليف وأجاده ونوع في تصانيفه بها جعلها شائعة محببة •

واذا نظرنا الى الزمن الذي عاش فيه السيد رضا رأينا أن

(١) رشيد رضا أو اخاء اربعين سنة — مكتب ارسلان مطبعة ابن زيدون
دمشق — سنة ١٩٢٧م — ص ٢٥٥ •

العلوم والترجمة قد ازدهرت فيه واثرت في كل وجوه النشاط ،
وظهر النقد الأدبي بأصوله وقواعده .

واستفاد السيد رشيد من العلوم الجديدة في عهده ونهل منها
وانطلق ذلك على أطراف قلمه وظهر في طريف بحوثه .

وترى السيد رشيد يروى آراء الأستاذ الامام ويكرر اعجابه
بها ولكن امانة العلم ورسوخ القدم في علوم الشريعة جعلت السيد
رشيد ينقد آراء الامام نقد الصيرف الخبير بالدراهم وهذه امثلة
توضح ذلك النقد .

١ - رأى الشيخ محمد عبده أن سورة الفاتحة هي أول
ما نزل من القرآن على الاطلاق . ولم يستثن قوله تعالى : ((اقرأ
باسم ربك الذي خلق)) واستدل على ذلك بأن مقتضى السنة الالهية
في هذا الكون أن يظهر سبحانه الشيء مجملا ثم يتبعه التفصيل
بعد ذلك تدريجيا .

وما مثل الهداية الالهية الا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهي
في بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع اصولها ثم تنمو بالتدريج
حتى تنشق فروعها بعد أن تعظم دوحاتها ثم تجود عليك بثمرها
والفاتحة مشتملة على مجمل القرآن وبيان ذلك أن القرآن ما نزل
الا لأجل هذه الأمور :

اولا : التوحيد .

ثانيا : وعد المتقين ووعد العصاة والمخالفين .

ثالثا : العبادة التي تحدى التوحيد في القلب وتثبته .

رابعا : بيان طريق السعادة الموصل الى نعيم الدنيا
والآخرة .

خامساً : قصص السابقين للعظة والاعتبار .

والفاتحة مشتملة على هذه الخمسة اجمالاً بغير ما شك
ولا ريب فكان نزولها أولاً موافقاً لسنة الله في الابداع جديرة بأن
تسمى أم الكتاب .

كما تقول ان النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة
النخلة كلها حقيقة .

والسيد رشيد ينقل من الاتقان آراء عن أول ما نزل من
القرآن .

أحدها : اقرا باسم ربك ، رواه الشيخان وغيرهما .

ثانيهما : يا أيها المدثر ، رواه الشيخان وغيرهما .

ثالثها : سورة الفاتحة .

ثم ينقل ترجيح الامام لهذا الرأي الأخير وتبينه الحكمة الالهية
في اجمال الفاتحة أولاً ثم تفصيل القرآن بعدها .

ويعلق السيد رشيد على ما رآه الامام فيقول : « ان نزول
أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بينها الامام
لأنه تمهيد للوحي المجمل والمفصل خاص بحال النبي (صلى الله
عليه وسلم) واعلام له بان يكون — وهو أمي — قارئاً بعناية الله
ومخرجاً للأميين من أميتهم الى العلم بالقلم أي الكتابة وفي ذلك
استجابة لدعوة ابراهيم ٢ : ١٢٨ « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم
يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

فسر الأستاذ الامام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحة أول

سورة نزلت كاملة وأمر النبي بجعلها أول القرآن وانتقد على ذلك
الاجماع (١) .

ونلاحظ أن رأى السيد رشيد أقوى موافقته لكتب السنة
الصحيحة ، أما رأى الامام فقد اعتمد فيه على بيان الحكمة الالهية
في الاجمال ثم التفصيل وهو منزع غريب في ترتيب السور كما قال
السيد رشيد رضا .

٢ - كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا في حديث رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) رواية ودراية وكان متأثرا بابن كثير في
ايراد الأحاديث المتعلقة بالآية والآيات المتعلقة بها وربما رفض
تفسير الامام للآية بناء على ما صح عنده من الحديث .

ان هذا التلميذ النابه مع اعجابه بامامه وقوة صداقته له الى
حد منقطع النظير ، لم يمنعه ذلك من ترجيح الحق حيثما كان ،
وذلك دليل على خصوبة الفكر وقوة الشخصية .

قال السيد رشيد رضا في مقدمته لكتابه « تاريخ الأستاذ
الامام ، فاذا رأى القارئ أنني على اعجابي بسعة علومه ورسومه
في معارفه التي كان بها جديرا بلقب الأستاذ الامام . الذي قبله
وأجازه المراءى العام ، اثبت أنه كان مقصرا في علوم الحديث من
حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الأزهر .

واننى على اعجابي بأخلاقه التي كان بها حقيقا بزعامة
الاصلاح والتجديد للأمة والملة ، صرحت بأنه كان كأستاذ لا يخلو
من الحدة ، وما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة والمبالغة في
الورع المخريتين لصاحبهما ، بإيثارهما على المصلحة العامة .
واننى على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبدده ومحافظته على تهجده ،

(١) تفسير المنار ج١ ص ٢٤ - ٢٨ .

فصرحت بأنه كان يجتمع بين الصلّاتين في الحضر أحياناً ترخصاً
اجتهادياً خالف فيه المذاهب الأربعة ، وإنّكه وافق حديثاً صحيحاً
أخذ به غيرهم من الأئمة .

إذا رأى القارئ هذا أو ذاك أيقن أنّي لم أكن محايداً له في هذا
التاريخ ولا سالكا فيه مسالك الشعراء ولا أنصار المذاهب حين
يرسمون لزعمائهم صوراً مكبرة مزينة مجملّة بما يظهر محاسنهم
ويخفي مساوئهم أو يبدل سيئاتهم حسنات .

وعلم أنّ كل ما انتقد يصح أن يقال فيه : « حسنات الأبرار
سيئات المقربين » .

وانني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة
ولا الورع والشرف ، ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد فهو
أكمل من عرفت من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وعلماً وعملاً
وصديقاً وإخلاصاً (١) .

٣ - وتميز السيد رشيد رضا . في تعليقه على آراء الإمام
بالأدب الجم واللباقة في التعبير حين يرفض رأي الإمام أو يرجح
رأياً مرجوحاً عنده أو العكس .

في تفسير قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين » .

قال الأستاذ الإمام في تفسيرها : « نطقت كتب السير بـأن
بعض الذين كانوا يدخلون الإسلام كان يقع منهم قبل الاطمئنان
بالإيمان اغترار بعزة الكافرين وقوتهم وشوكتهم فيؤالونهم ويركنون
اليهم وهذا أمر طبيعي في البشر .. قال الإمام وذكرنا في سبب

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٦ .

نُزول الآية أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وقصته معروفة .
وقبل أنها نزلت في ابن أبي سلول «زعيم المنافقين» وقيل في جماعة
من الصحابة كانوا يوالون اليهود . ومهما كان السبب في نزولها
فانا نعلم أن من طبيعة الاجتماع في كل دعوة أن يوجد في المستجيبين
لها القوي والضعيف على أن مظاهر القوة والعزة تغر بعض
الصادقين ، وتؤثر في نفوس بعض المخلصين فما بالك بغيرهم ؟
ولذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الأولياء من الكافرين . وقد
ورد بمعنى هذه الآية آيات أخرى ، فلا بد من تفسيرها تفسيراً تتفق
به معانيها .

والسيد رشيد رضا يعلق على تفسير الامام للآية بقوله :

« أقول : قصة حاطب التي أشار إليها مسندة في الصحيحين
وغيرهما ملخصها : أن حاطباً كتب كتاباً لقريش يخبرهم فيه
باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم للزحف على مكة إذ كان يتجهز
لفتحها وكان يكتُم ذلك ليبيت قريشاً على غير استعداد منها فتضطر
إلى قبول الصلح وما كان يريد حرباً . »

ولما أرسل حاطب خطابه خفية إلى قريش مع إحدى الجوارى
أخبر الله نبيه بذلك فأرسل في أثرها من أحضر الخطاب . وفي ذلك
يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَلَّوْا عَدُوَّكُمْ
أَوْلِيَاءَ » .

وبعد أن يذكر السيد رشيد القصة يستمر في تعليقه بقوله :
« ولم أر أحداً قال إن الآية التي تفسرها نزلت في قصة حاطب فلعل
ما قاله الأستاذ الامام سهو سببه أن هذه الآية وما أنزل في قصة
حاطب يشتركان في النهي عن موالاة الكافرين (١) » .

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٧٦ .

وانت تلاحظ أدب السيد رشيد حين أراد أن يرفض كلام
الامام قال : لعله سهو ، ثم التمس له العذر في هذا السهو .

٤ - ولم يكن نقد السيد رشيد رضا وتصحيحه يعتمد على
كونه حجة في الحديث فقط . بل كان يعتمد أيضا على ذوق بصير
وقلب متفتح يدرك قبول المعنى أو رفضه .

ولذلك كان يروى كلاما نقله ابن جرير الطبري المؤرخ العظيم
ثم ينقده ويفنده .

جاء في تفسير المنار تحت عنوان « خلق الطير من الطين »
عند تفسير قوله تعالى في قصة المسيح « ويعلمه الكتاب والحكمة
والتوراة والانجيل ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية
من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيها فيكون طيرا
بأذن الله » .

قال الأستاذ الامام : الخلق التقدير والترتيب لا الانشاء
والاشتراع ، ويقرب أن يكون هذا اجماعا من المفسرين ونفسه
الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير ... الخ .

ويعلق السيد رشيد رضا بقوله : « هذا ما قاله الأستاذ
الامام . ومن الغريب أن ابن جرير يروى عن ابن اسحق « أن
عيسى صلوات الله عليه جلس يوما مع غلمان من الكتاب فأخذ
طينا ثم قال اجعل لكم من هذا الطين طائرا . قالوا أو تستطيع
ذلك ؟ قال نعم بأذن ربي ثم هبأه حتى اذا جعله في هيئة الطائر
فنفخ فيه ، ثم قال كن طائرا بأذن الله فخرج يطير من بين كفيه
« فكانه اتخذ آية الله على رسالته العوية للصبيان . والحاصل أنه
ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصاري
الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية إلا ما في انجيل

الصبا أو الطفولة من نحو ما قال ابن اسحق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم .

ولعل سورة المائدة أدنى الى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي : « ٥ : ١١٠ » اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذا تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتفتح فيها فتكون طيرا باذني وتبرئ الأكمه والأبرص باذني واذا تخرج الموتى باذني واذا كففت بني اسرائيل عنك اذ جستهم بالبينات » .

فان جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه ، الا ان يقال ان جعل هذه الآيات مما يجرى على يديه عند طلبه منه والحاجة الى تحديه به من اجل النعم واعظما ولكن هذا خلاف الظاهر .

وانت تشاهد :

(١) ان السيد رشيد يسير على نهج امامه في الوقوف عند لفظ الآية وعدم الزيادة في تفصيلات يتوقف التصديق بها على نقل يحتج به .

(ب) وانه مع ذلك خبير بما يتعلق بموضوع الآية من آيات مماثلة أو روايات في الحديث أو كلام في الكتب المقدسة وهو يروي ويقارن ويمحص وينقد .

(ج) ومع كونه صريح ان الآية الأخيرة تؤذن بوقوع الخلق من الطين الا انه دقيق في التعبير لأنه صرح سابقا : انه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير يؤكد ماتؤذن به الآية .

وينقله الى برجة الحصول بالفعل .

(د) وهو يرفض كلام ابن اسحق ويراه غريبا لأنه يحصل المعجزة الى العوبة يتظاهر بها عيسى امام الصبيان .

هـ - وأحيانا يعرض صاحب المنار افكار الامام فيبسطها ويوضحها توضيحا كاملا حتى يهيا لك أنه صاحب الفكرة والتوضيح، ولعل ذلك هو سبب اتهام بعض العلماء للسيد رشيد فيما نسبته من آراء للامام وقولهم انه افترى على الامام مالم يقله .

مع أن صاحب المنار رجل ثقة في الحديث ، معروف بالصدق وهو لم يوافق الامام في كل ما حكاه عنه . بل كان يرد رأى الامام اذا رأى انه بجانب للصواب . وقد مرت بنا قصة آدم عليه السلام . وذكر الامام هناك انها اشارة الى الأطوار الفطرية الثلاثة للبشر وهي طور الطفولية وطور التمييز الناقص وطور الرشد والاستواء . قال الأستاذ الامام : كأن تدرج الانسان في حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة قويم الوجهة مقتصرأ في طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاوننا علم دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبي . ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض افراده أيديهم الى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما في نفوس سائرهم فثار الفزع وعظم الخلاف واستنزل الشقاء وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم . ثم جاء الارث الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الرغبات وهو طور التوبة والهداية ان شاء الله .

ولكن السيد رشيد لا يقبل هذا الكلام على علته فيقول : « ان توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على

الحقيقة قد كانت بالرجوع الى الله واعترافه مع حواء بظلمتهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبير العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ما قاله شيخنا هنا تبعا لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين . وهو قد بين في بحث الحاجة الى الرسالة من رسالة التوحيد ان عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للأعمال تنتهي اليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الأهواء والرغبات ، بل لابد له من تشريع الهى لذلك . ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمة مظلمة ، واتنا نرى ان طور العقل والفكر قد بلغ في هذه العصور مرتقى لم يعرف في التاريخ ما يقربه ووضع علماءه وحكماؤه شرائع وقوانين لايقاف التنازع والتخاصم عند حد لايتفاهم شره ، ثم نرى أعلم هذه الأمم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والفتن ، فلا هداية الا هداية الدين الالهى الذى تدعن له الأنفس بمحض العبودية لله تعالى(١) .

ان السيد رشيد رضا راو أمين ، روى أفكار الامام وشرحها وبسطها ومدح الصواب منها وأطراه ونبه على الخطأ . ومن يدري ماذا كان يصبح محير آراء الامام فى التفسير لو لم ينقلها لنا السيد رشيد .

لقد ضاعَت مذاهب أئمة اعلام لان تلاميذهم لم يقوهوا بنشرها .

بينما انتشرت مذاهب أئمة أقل منهم حين هيئت لها وسائل النشر . وقد وقف الامام الشافعى على قبر الامام الليث بن سعد فقال : الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه لم يقوموا به ، وقال

(١) تفسير المنار ج١ ص ٢٨٤ .

الشاعري أيضا : مالك شيعي والليث أمته من مالك غير أن أصحابه ضيعوه .

وقديما قال النقاد ، ان المعاني والأفكار عامة وشائعة وقد يعبر الشاعر أو الكاتب عن المعنى فينسب اليه ويصبح ملكا له . فقيام الأمم على الأخلاق فكرة قديمة ، ولكن شوقي حين عبر عنها أصبحت كأنها ملك له ونسبت اليه لبيته المشهور :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ان واجبنا ان نقابل جهود السيد رشيد في نشر افكار الامام بالشكر والوفاء والاعتراف بالفضل لأهله ، لا بالكثود والجحود .

٦ - وقد كان السيد رشيد رضا محدثا وفقهيا .

وقد اشتهر اناس بالحديث ولا فقه لهم . واشتهر قوم بالفقه وكانوا ضعافا في الحديث .

اما السيد رشيد فقد جمع بين الحسنين ، فكان حجة في الحديث وكان فتحا جديدا في بحوثه الفقهية وفتاويه التي رد بها على أسئلة وجهت اليه في المنار .

وهو لذلك ربما رد تفسير المفسرين للآية لأن ظواهر الأحاديث الواردة في الموضوع تأباه . ثم لا يلبث أن يلتمس لأمسترين مخرجا مما وقعوا فيه .

في تفسير قوله تعالى : « اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعتك الي ومطورك من الذين كفروا » . قال السيد رشيد . . . فالمتبادر من الآية اني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي ، كما قال تعالى في ادريس عليه السلام ١٩ : ٥٢ « ورفعتناه مكانا عليا » والله تعالى يضيف اليه ما يكون فيه الأبرار من عالم

الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء ٣ : ١٦٩ « أحياء عند ربهم » وقال ٥٤ : ٥٤ « أن المتقين في جنات ونهر في سعة صدق عند مليك مقتدر » وما تطهره من الذين كفروا فهو انجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر .

هذا ما يفهمه القارئ الخالي الذهن من الروايات والأقوال ، لأنه هو المتبادر من العبارة . وقد أيدناه بالشواهد من الآيات ، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده ، وهاك ما قاله الأستاذ الامام في ذلك .

« يقول بعض المفسرين « انى متوغيك » أى منومك ، وبعضهم : انى قابضك من الأرض بروحك وجسدك » ورافعك الى ، بيان لهذا التوفى ، وبعضهم : انى أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميئك حتف أنفك ثم أرفعك الى ، ونسب هذا القول الى الجمهور ، وقال : للعلماء ههنا طريقتان ، أحدهما وهى المشهورة أنه رفع حيا بجسده وروحه . وأنه سينزل فى آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى . ولهم فى حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف .

وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن فى تقديم الرفع فى التوفى بأن الواو لاتفيد ترتيبا أقوال : وفاتهم أن مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتى فى الكلام البليغ الا لنكتة ولا نكتة ، هنا لتقديم التوفى على الرفع اذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة .

قال : والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفى على الظاهر المتبادر وهو الامامة العادية ، وأن الرفع يكون بعده وهو

رفع الروح ، ولا بدع في اطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه ،
فإن الروح هي حقيقة الانسان والجسد كالثوب المستعار ، فإنه يزيد
وينقص ويتغير والانسان انسان لأن روحه هي هي . قال :
« ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان
تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من
أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي لأن
المطلوب فيها هو اليقين ، وليس في الباب حديث متواتر .

وثانيهما تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر
رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة
والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها
والتمسك بقشورها دون لبانها ، وهو حكمتها وما شرعت لأجله .

فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ولكنه
جاءهم بما يرحمهم عن الجمود على ظواهر الفاظ شريعة موسى
عليه السلام ويوقفهم على فقها والمراد منها . ويأمرهم بمراعاته
وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتدرى كمال الآداب ، أي ولما كان
أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر الفاظها بل والفاظ
من كتب فيها معبرا عن رأيه وفهمه ، وكان ذلك مزهقا لروحها ذاهبا
بحكمتها كان لابد من اصلاح عيسى يبين لهم أسرار الشريعة
وروح الدين وأدبه الحقيقي . وكل ذلك مطوى في القرآن الذي
حجبوا عنه بالتقليد الذي هو أفة الحق وعد والدين في كل زمان .
فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه
بروح الدين والشريعة الإسلامية لاصلاح السرائر من غير تقييد
بالرسوم والظواهر .

هذا مقال الأستاذ الامام في الدرس مع بسط وايضاح ،
ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في تلك تباها ، ولاهل هذا التأويل أن

يقولوا : ان هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى الأكثر الأحاديث ، والناتل
للمعنى ينقل ما فهمه . وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له
فقال : ان الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير
الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها . وان القرآن أعظم
هاد الى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام
مبينة لذلك فلا حاجة للبشر الى اصلاح وراء الرجوع الى ذلك (١) ، .

وترى من هذا النقل ان الشيخ رشيد منظم في سرده لأراء
السابقين ، ومحقق حين يرد على بعضها أو يعرضها بما هو اقوى
منها . وفقهه في فهمه لأسرار الشريعة وروح الدين وکلياته ، فله
دوره عالما .

وعند تفسير الامام لقوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين
لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » قال : اي ويباح
لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامة الليل حتى يتبين لكم بياض
الفجر ، فمتى تبين وجب الصيام . وما أحسن التعبير عن أول
طلوع الفجر بالخيطين . والخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر
الصادق ، فمتى أسفر لا يظهر وجه لتسميته خيطا ، فما ذهب اليه
بعض السلف كالأعمش من أن ابتداء الصوم من وقت الاسفار تنافيه
عبارة القرآن : وعلق السيد رشيد بقوله : هذا ما كتبه أولا وهو
غير دقيق وسأفصله في الاستدراك والايضاح الذي تراه بعد تمام
تفسير الآية . ثم استدرك عليه ببحث عنوانه (مسألة بدء الصيام
وهل هو طلوع الفجر أم تبين بياض النهار للناس (٢)) .

(١) تفسير المنار ج٢ ص ٣١٦ وما بعدها .

(٢) انظر تفسير المنار ج١ ص ١٧٨ ، ١٨٠ .

الخاصة الثانية :

تأثير صاحب المنار بابن كثير

كان الحافظ ابن كثير حجة في الحديث والتفسير . . . وقد طبع صاحب المنار تفسير ابن كثير ونشره في البلاد العربية والاسلامية (١) ، وتفسير ابن كثير تفسير سنن سلفي (وهو من أفيد كتب التفسير بالرواية يفسر القرآن بالقرآن ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين المحدثين بأسانيدها ، ويتكلم على أسانيدها جرحا وتعديلا ، فيبين ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذ غالبا ، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين (٢) قال السيوطي فيه : « لم يؤلف على نمطه مثله » .

وقد قرأ ابن كثير على شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه (٣) ، واشتهر ابن كثير بالضبط والتحرير وانتهت اليه رئاسة العلم في التاريخ

(١) رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة : شكيب أرسلان القاهرة ١٩٢٧ .

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : تليف أحمد محمد

شماكر. ص ١٦ .

(٣) نفس الرجوع السابق .

والحديث والتفسير وكان أحفظ أقرانه لتون الأحاديث وأعرفهم
بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يشهدون
له بذلك .

وقال المؤرخ الشهير ابن تغرى بردى : « الشيخ الامام العلامة
عماد الدين ابو الفداء . . لازم الاشتغال ، ودأب وحصل وكتب ،
وبرع فى الفقه والتفسير والحديث وجمع وصنف ، ودرس وحدث
وآلف ، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والفقه والعربية
وغير ذلك ، وأفتى ودرس الى ان توفى » .

١ - ولما تمر آية فى تفسير ابن كثير الا ويروى ما يتعلق
بها او يناسبها من احاديث ثم يخرج هذه الاحاديث ويبين درجتها
ثم يشرح الآية شرحا مبسطا معقولا . ويطيل فى آيات لها مناسبات
خاصة مثل آية الكرسي ليزكر ما ورد فى فضلها . والآراء الماثورة
فى تفسيرها .

٢ - واذا كانت هناك احاديث ماثورة يخالف ظاهرها
مضمون الآية فانه يورد هذه الاحاديث ويوفق بينها وبين الآية .

فعند تفسيره لقوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على
بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » يفسر الآية ثم يروى
حديث الصحيدى فى ذلك وهو : « اختصم رجلان : رجل من
المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم والذى فضل محمدا على
العالمين . فقال اليهودى والذى فضل موسى على العالمين . فلطم
المسلم اليهودى فاشتكى اليهودى للنبي (صلى الله عليه وسلم)
فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تقضوا لى على موسى

ولاتفضلوني على الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بساق العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله » .

فالآية صريحة في تفضيل بعض الرسل على بعض والحدود ينهي عن تفضيله (صلى الله عليه وسلم) عن موسى أو على الأنبياء . ولكن ابن كثير يدفع هذا الاشكال فيقول « ان تخريجه من خمسة وجوه » ثم يروى هذه الوجوه « (١) » .

٣ - وكان ابن كثير خبيرا بالتاريخ وله فيه كتاب يسمى « البداية والنهاية » ذكر فيه فصوص الأنبياء والأمم الماضية على ما جاء في القرآن الكريم والأخبار الصحيحة ، وبين الغرائب والمناكير والاسرائيليات (٢) ، ثم يدقق السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي الى زمنه ، ثم ينقل الفتن واشراط الساعة والملاحم واحوال الآخرة .

ولذلك تراه يذكر ما يتعلق بالآية من احداث تاريخية كما في تفسير قوله تعالى : « هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا الالباب » (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠٤ .

(٢) ص ١٦ الباعث شرح اختصار علوم الحديث للصالظ ابن كثير

(٧٠١ - ٧٧٤ هـ) .

(٣) آل عمران ، آية ٧ .

يروى ابن كثير عن مسند الامام أحمد ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : اذا رأيتم الذين يجادلون في آيات الله فهم الذين عناهم الله فاحذروهم .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) هم الخوارج . . اول ما ظهر منهم عند تقسيمه (صلى الله عليه وسلم) غنائم حنين فقال له احدهم (١) اعدل . فقال (صلى الله عليه وسلم) لقد خبت وخسرت ان لم اكن اعدل ايامننى على اهل الارض ولا تأمنون ؟ . فقال عمر أو خالد دعنى أضرب عنقه ، فقال عليه السلام : دعه فانه يخرج من ضئضىء هذا أى من جنسه قوم يحقر احدكم صلاته الى صلاتهم وقراءاته الى قراءاتهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية فاینما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم اجرا لمن قتلهم » .

ثم كان ظهورهم ايام على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وقتلهم بالنهر وان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعث القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التى أخبر عنها الصادق (صلى الله عليه وسلم) فى قوله : « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال من كان على ما أنا عليه واصحابى » أخرجه الحاكم فى مستدرکه .

فابن كثير يهتم بتاريخ نزول الآية وما يدور حولها من أحاديث نبوية شريفة . وما يتعلق بها من أسئلة وجهت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنها أو حوادث تاريخية توضح تأويلها قبل نزول الوحى أو عنده أو بعده فى العصور التالية لنزول الرسالة .

(١) هو ابو الخويرة بقر الله خاصرته .

٤ - ولم يكن ابن كثير مفسرا ومحدثا فحسب بل كان فقيها أيضا ولذلك كان يورد آراء الفقهاء عند تفسيره لآيات الأحكام مثل قوله تعالى : «الطلاق» رتان فامساك بمعروفه وتسريح باحسان» فنراه يفصل التفريعات الفقهية في مسائل الطلاق والخلع ويورد الأحاديث النبوية المتعلقة بأحكامها بكثرة كثيرة .

والخلاصة :

- ١ - أن تفسير ابن كثير تفسير مهتم بالرواية (١) .
 - ٢ - ويحاول أن يوفق بين الآية وما أثر من أحاديث تخالفها في الظاهر .
 - ٣ - وهو مؤرخ يذكر ما يتعلق بالآية من تاريخ سابق أو لاحق .
 - ٤ - وهو مهتم بإيراد التفريعات الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام .
- وقد طبع صاحب المنار تفسير ابن كثير وتأثر به في هذه الأشياء وإن تميز مع هذا بطابعه وسننقل لك الشواهد على ذلك من تفسير المنار .

١ - صاحب المنار مهتم برواية الأحاديث التي تتعلق بالآية :

لقد كان صاحب المنار حجة في الحديث . كما كان ابن كثير من رجال الحديث وتشاهد العناية برواية الحديث وتخريجه ظاهره في تفسير المنار . فمثلا عند تفسير قوله تعالى : «لن تنالوا البر

(١) يقول ابن كثير في مقدمة تفسيره : ان خير ما فسر القرآن القرآن ثم السنة ثم قول الصحابة ثم اقوال التابعين اذا كانت متفقة فان اختلفوا فليس احدهم حجة على الآخر .

حتى تنفقوا مما تحبون») أورد السيد رشيد رضا الكثير من الأحاديث والآثار والأخبار المتعلقة بهذه الآية مقتنيا في ذلك أثر ابن كثير .

٢ - وصاحب المنار مهتم بالتوفيق بين الآية وما أثر من أحاديث تخالف الآية في الظاهر مثل ابن كثير .

وقد مر بنا ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : « اذ قال الله يا عيسى اثنى متوفيت وراقعت الي ومظهورك من الذين كنروا » . فقد فسر الآية ثم حكى ما قاله الامام وما نقله عن المفسرين ثم علق قائلا : « هذا ما قاله الأستاذ الامام في الدرس مع بسط وايضاح ولكن ظواهر الأحاديث تأباه ، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا : ان هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه (١) » .

٢ - وصاحب المنار محقق لحوادث التاريخ التي تتعلق بالآية كابن كثير .

(١) فعند تفسيره لقصة نوح(٢) عليه السلام علق على تفسيره لها بعلاوات أربع ، العلاوة الثانية منها كانت عن حادثة الطوفان في القرآن والتوراة والتاريخ القديم .

ثم حقق أخبار الطوفان في الأمم القديمة ونقدها ومحصلها .

واتبع حديثه عن الطوفان بقوله : « وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنص قطعي ، فنحن نقول بما تقدم انه ظاهر النصوص ولا نتخذة عقيدة دينية قطعية ، فان

(١) ج٢ ص ٣١٦ تفسير المنار ، وانظر ج٢ ص ١٥٢ من تفسير المنار تجده يوفق بين قوله تعالى (وان تصرموا خير لكم) وقوله (صلى الله عليه وسلم) ليس من البر الصيام في السفر .
(٢) ج٢ ص ١٠٥ تفسير المنار .

أثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض نصا قطعيا
عندنا « (١) » .

(ب) ونقل صاحب المنار عن الزمخشري رواية تثبت أن الذبيح
اسحق ، ثم نقد هذه الرواية وزيفها من الناحية التاريخية :

قال الزمخشري : روى أن أخوة يوسف لما دخلوا عليه أدوا
إليه كتاب يعقوب : « من يعقوب إسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله
ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر » أما بعد فانا أهل بيت
موكل بنا البلاء ، أما جدى فشددت يداه ورجلاه ورمى به فى النار
ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فوضع
السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما انا فكان لى ابن وكان أحب
أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا
بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عينائى من بكائى عليه ثم كان لى
ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا
انه سرق وأنتك حسبته لذلك ؟ رانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا
فان رددته على والا دعوت عليك دعوه تدرك السابغ من ولسدك
والسلام » . فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وكتب
الجواب : اصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا . انتهى قول
الزمخشري وأقره ابن المنير وغيره عليه بل اتبعوه فيه .

واقول ان الرواية التى ذكرها فى كتاب يعقوب (ع ٠ م) الى
عزيز مصر من الاسرائيليات الباطلة واسلوبه اسلامى مصنوع .
ومن أغراض كعب الأخبار ووهب بن منبه المروى عنه فيه اقناع
المسلمين بأن الذبيح اسحق لا اسماعيل خلافا للمتواتر عند العرب
الذى أقره الاسلام وجعلت الأضاحى وهى سنة ابراهيم فى فداء ولده

(١) تفسير المنار ج ١٢ ص ١٠٥ ، ١٠٩ .

اسماعيل من مناسك الحج حيث قداه الله فى منى من ضواحي مكة
وطن اسماعيل ، فبث زنادقة اليهود فى التفسير المأثور ان الذبيح
اسحاق وقد صار هذا مذهباً يؤخذ بالتقليد ويحرف لأجله تفسير
القران ، فان القصة فى سورة الصافات صريحة فى ان الذبيح هو
ولد ابراهيم الأول (اسماعيل) وأن الله قد بشره على احسانه فيها
بولده الثانى (اسحاق) اذ قال فى آخرها ٢٢ : ١٠٦ « ان هذا لهو
الجبلاء المبين » ١٠٧ وفديناه بذبح عظيم - الى قوله - ١١٢
« وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين » (١) .

(ح) واحيانا يفسر صاحب المنار الآية ثم ينقل التفسير
السابقة لها فى تسلسل تاريخى . قال فى تفسير قوله تعالى :
« ولا تتركوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

أى ولا تستندوا الى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من
غيرهم فتجعلوهم ركناً لكم تعتمدون عليهم فتقرونهم على ظلمهم ،
وتوالونهم فى سياساتكم الحربية وأعمالكم المالية فان الظالمين بعضهم
أولياء بعض .

ثم يذكر تحقيقاً لغويا عن الركون . ومنه يظهر سعة بابه
ودقة فهمه ، وحسن ذوقه فى تحريره للمعانى اللغوية ثم يعلق على
التفسير قائلاً :

« نموذج من قصور أقوال المفسرين وغلطهم فى تفسير الآية » :
الرواية الماثورة والمعتمدون عليها :

١ - روى الامام ابن جرير المتوفى سنة ٣١٠ عن ابن عباس

(١) تفسير سورة يوسف للسيد رشيد رضا : بقلم محمد بهجت البيطار
ص ١١ . وقارن ذلك بما ورد فى كتاب مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة
دكتور عبد الحليم النجار ص ١٠٠ .

(رضى الله عنه) • انه فسر الآية بالركون الى الشرك (وهو اقوى
ماروى فيها) •

٢ - وقال أبو بكر الحصاص الحنفى المتوفى سنة ٣٧٠ فى
تفسيره (احكام القرآن) •

٣ - وقال الزمخشري المعتزلى المتوفى سنة ٥٢٨ فى كشفه
بعد ذكر القراءات فى الآية •

٤ - وقال القاضى أبو بكر العربى المالكى المتوفى سنة
٥٤٣ فى احكام القرآن : وتبعه القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ فى تفسيره
جامع احكام القرآن فنزل مكانه بدون عزو اليه ولم يزد عليه •

٥ - وقال أبو على الفضل بن الحسن الطوسى الشيعى
المتوفى سنة ٥٦١ هـ فى تفسيره مجمع البيان •

٦ - وقال فخر الدين الرازى الشافعى المتوفى ٦٠٦ هـ فى
تفسيره الكبير مفاتيح الغيب ••

٧ - وقال القاضى ناصر الدين عبد الله عمر البيضاوى
الشافعى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ••

٨ - وقال عبد الله بن أحمد النسفى الحنفى المتوفى سنة
٧٠١ فى تفسيره مدارك التنزيل ••

٩ - وقال أبو السعود شيخ الاسلام مفتى دولة الروم
العثمانية المتوفى سنة ٩٧٣ فى كتابه ارشاد العقل السليم •

١٠ - وقال السيد محمود الألوسى مفتى الحنفية فى بغداد
(بعد أن كان شافعيًا) فى تفسيره روح المعانى ••

١١ - واختتم هذه النقول بما أورده السيد محمد صديق
حسن خان نائب ملك بهوبال (الهند) المتوفى سنة ١٣٠٧ فى تفسيره

« فتح البيان في مقاصد القرآن الذي أودعه تفسير استاذہ القاضي الشوكاني المسمى (بفتح القدير) »

« وقد اختلفت أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقل خاصة ، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين وأنهم المرابون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص المسبب »

وقد اكتفيت بذكر المفسرين ولم أنكر آراءهم في تفسير الآية لأن مرادى بيان عناية صاحب المنار بالتسلسل التاريخي لتفسير الآية ، وملاحظاته على تطور التفسير بتطور الزمن »

٤ - وصاحب المنار مهتم بالبحوث الفقهية التي تتعلق بآيات الأحكام كابن كثير ويمتاز عنه بالتوسع والتنظيم »

(١) فبعد أن فسر قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تفتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا » النساء ٤٣ »

قال واثنا نختم تفسير الآية بمسائل في أحكام التيمم (١) لابد منها وذكر عشر مسائل :

المسألة الأولى : معنى التيمم اللغوي والشرعي »

المسألة الثانية : محل التيمم »

(١) تفسير المنار ج ٥ ص ١٢٣ - ١٣٥ »

المسألة الثالثة : التيمم ضربية واحدة ولا ترتيب فيه .

المسألة الرابعة : ما هو الصعيد ؟

المسألة الخامسة : التيمم من الحدثين لفاقد الماء المسافر والمقيم فيه سواء .

المسألة السادسة : في كون التيمم لا يعيد الصلاة اذا وجد الماء .

المسألة السابعة : الرواية في تيمم المسافر مع وجود الماء .

المسألة الثامنة : التيمم من الجراح والبرد .

المسألة التاسعة : التيمم كالوضوء في الوقت وقبله وفي استباحة عدة صلوات به .

المسألة العاشرة : في حكمة التيمم .

(ب) ولصاحب المنار أبحاث متعددة في العبادات وأصول الفقه (١) .

ويمتاز في بحوثه الفقهية بالتجديد والبعد عن التقليد ، وقرجيع ما يناسب مصالح الناس وتجنب الحيل والتعصّب .
« وكان صاحب المنار يعقد في كل عدد من المنار باباً للمراسلات (الأسئلة والأجوبة الدينية) ينشر فيه مسائل واردة من كل جوانب العالم الاسلامي مع الجواب عليها ، ليثبت نظرياته في ضوء

(١) انظر تفسير المنار ج٥ من ص ١٦٨ - ٢٢٢ تجد بحثاً في اصول التشريع : الكتاب والسنة والاجماع والقياس والمصالح المرسلة . وفي ص ١٥٤ - ١٦٨ ج٦ تجد بحثاً في منزلة السنة من الكتاب . وانظر ص ٢٠٠ ج٤ .

الأحوال الواقعية الجارية . والظاهر أن جانباً كبيراً من هذه الأسئلة مصنوع ، حصل أعداده على حسب الأجوبة المقصود بيانها .

وهذا فن من فنون التحرير في كل مكان ، اصطنعه لنفسه أيضاً رئيس التحرير السوري المصري . ولست مجانباً للصواب إذا قررت أن السؤال التالي مع جوابه قد أعدا على عمد لإبراز القصور في حالات الفقه ومسائله في ضوء مثال لاقت للنظر :

ذكرت المجلة أن سيداً من تونس وجه السؤال التالي إلى محرر المنار :

« عندنا ماجل (١) في دارنا يجتمع فيه المطر من السسطوح فنستعمله في العادة والعبادة . وقد وقع فيه فرخ حمام ميت وكان الوقت صيفاً والماء فيه قليلاً . فتغير لونه وريحه وتعذر علينا إخراج الفرخ منه فتركنا استعماله حتى جاء الشتاء وامتلا الماجل بالماء وزال التغير من لونه ورائحته وعاد زلالاً نقياً ، فسألنا ساداتنا الحنفية عنه ، فقالوا : لا بد من نزح ماء الماجل كله . وسألنا ساداتنا المالكية ، فقالوا لا بد من إخراج الطير أو ما بقي منه في الماء ليجوز استعماله في العادة والعبادة . وفي ذلك مشقة علينا لكبيرة ونحن مضطرون لاستعمال هذا الماء . وقد قصدنا مذهب ساداتنا الشافعية لعلنا نجد فيه رحمة فأفيدونا رحمكم الله .

ولكن شيخنا الذي يعالج مع ذلك السؤال برمته ، في أسلوب قوي التندر ، يستطيع أن يأتي بحل مطمئن على مذهب الشافعية :

« مذهب الشافعية أن الماء إذا بلغ قلتين لا ينجس إلا بتغير طعمه أو لونه أو ريحه من النجاسة . فلو كان الماء متنجساً لوقع

(١) الماجل في اللغة كل ماء في أصل جبل أو دار ولعل أهل تونس يطلقونه على الصهريج .

نجاسة فيه وهو قليل ثم زاد حتى بلغ قلتين يطهر ، ولو كان المتجدد متنجسا أيضا ، بل ولو كان مائعا نجس العين ، والقلتان ستمائة رطل بالبغدادى وتبلغ بالمساحة نحو ذراع وربيع طولاً وعرضاً وعمقاً .

ولاشك أن ما جلکم أوسع من ذلك ، فهو ظاهر حتماً ، هذا وإن الله تعالى أمرنا بإزالة النجاسة ليطهرنا لا ليعنتنا وهو يريد بنا اليسر لا يريد بنا العسر ، وما جعل علينا في الدين من حرج ، والنجاسة التي نهينا عنها هي القاذورات التي تنفر منها الطيباع السليمة فهل يعقل أن ماجلاً عظيماً وحوضاً كبيراً فيه ماء صاف نقى لا تغير فيه يحكم عليه بالنجاسة لتدقيق بعض الفقهاء في الحدود التي وضعوها للاصطلاحات الشرعية ، ويلزم لهذا التدقيق اعنات أهل بيت من المسلمين وإيقاعهم في الحرج والعسر اللذين نفاهما الله تعالى (١) .

(ح) ويمتاز صاحب المنار في بحوثه المفهية ببيان أضرار العبادات وحكماتها وفوائدها ، على نمط ما صنع الغزالي في كتابه أحياء علوم الدين ، فقد تحدث صاحب المنار عن الصيام عند تفسيره لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) .

واستغرق تفسير آيات الصيام خمسين صحيفة (٣) ، ويضع صاحب المنار في أعلى الصحيفة عنواناً لما يبحث فيها مثل :

(١) مذاهب التفسير الاسلامي - د . عبد الحليم اللجار ص ٣٦١ .

(٢) البقرة آية ١٨٤ .

(٣) تفسير المنار ج ٢ من ص ١٤٢ الى ١٩٤ .

- ١ - فوائد الصيام الدينية والاجتماعية والصحية .
- ٢ - صيام المريض والمسافر .
- ٣ - روح الصيام وما تجب مراعاته والتنزه عنه فيه .
- ٤ - فرض الفدية على من يفتقر للمشقة الدائمة .
- ٥ - التطوع في الصيام وكون الصيام خيراً ، انزال القرآن في رمضان .
- ٦ - مزية القرآن على سائر الكتب السماوية .
- ٧ - سلف المسلمين وخلفهم في هداية القرآن .
- ٨ - بدء انزال القرآن في ليلة القدر المباركة من رمضان .
- ٩ - التقدير للأصوات الخمس وصيام شهر في جهتي القطبين .
- ١٠ - تعليل الرخصة في الصيام بيسر الدين وعدم العسر فيه .
- ١١ - بلاغة القرآن وإيجازه في تعليل الأحكام .
- ١٢ - معنى قرب الله من عباده والمراد من أخبارهم به .
- ١٣ - معنى الأمر بالاستجابة لله وبالإيمان به .
- ١٤ - حل الرفث إلى النساء في ليلة الصيام .
- ١٥ - معنى الرفث ونزاهة القرآن في كناياته .
- ١٦ - الأمر بمباشرة النساء ليلة الصيام للإباحة .
- ١٧ - بدء نهار الصيام ونهايته والنهي عن مباشرة المعتكف .

١٨ - النهى عن قرب حدود الله وعن اعتدائها .

وفى نهاية تفسير آيات الصيام عقد فصولا لتحقيق شسائك مسائله فقال « استدراك وايضاح لتفسير آيات الصيام ، وتحقيق الحق فيما اختلف فيه منها اجتهاد العلماء » .

١ - مسألة بدء الصيام وهل هو طلوع النجر أم تبين بياض النهار .

٢ - ومسألة تعجيل الفطر وتأخير السحور وما بينه وبين صلاة الفجر .

٣ - ومسألة تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج والعيد في الاقطار والعمل بالحساب القطعى .

٤ - فصل فيما يفطر المصائم وما لا يفطره .

ملخص من رسالة شيخ الاسلام احمد تقى الدين بن تيمية نشرت فى المجلد ٣١ من المنار (١) .

ومن هذه العناوين يتبين لك عمق البحث وخصوبته وشمول اطرافه لجميع مسائل الموضوع . وتراه يورد آراء السابقين عند تحقيقه لمسائل الخلاف حتى يهيا لك انك تدرس الصيام فى أحد كتب الفقه أو الخلاف . وان كان فى ذلك من عيب فهو الاطالة المملة التى تستهلك جهد القارئ ونشاطه . ولذلك نصع صاحب المنار قارئه « أن يقرأ الفصول الاستطراذية وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير » (٢) .

(١) تفسير المنار ج١ ص ١٨٨ .

(٢) تفسير المنار ج١ ص ١٦ .

٥ - صاحب المنار متأثر بابن تيمية كما تأثر به ابن كثير .

كان ابن كثير تلميذا لتقى الدين أحمد بن تيمية وقرأ عليه كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه (١) .

وكان صاحب المنار من مدرسة ابن تيمية التي دعيت الى الاجتهاد . وحاربت التقليد والتعصب للمذاهب . ونقل السيد رشيد في تفسير المنار فصولا كاملة وبحوثا مستوفاة من كتب ابن تيمية . وقال « ان كتب ابن تيمية وابن القيم انتفع كتب الكلام ، وان هذين الشيخين هما الجديران بلقب شيخ الاسلام » (٢) .

وفي الصحيفة السابقة رايت أنه نقل فصلا كاملا عنوانه « نعل فيما ينظر الصائم وما لا يفطره » ، ملخص من رسالة شيخ الاسلام أحمد تقى الدين بن تيمية نشرت في المجلد ٣١ من المنار (٣) .

وقد تأثر صاحب المنار أيضا بوارث ابن تيمية وراويته وتلميذه ابن القيم الجوزية . وساق نصوصا متفرقة من كتبه ، وأخرج فصولا مطولة من مؤلفاته لتأييد آرائه في تفسير المنار ، فعند تفسيره لقوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد اسكتركم من الانس وقال أوليائهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدن فيها الا ما شاء الله ان يريك حكيم عليم » (٤) .

(١) الباحث الحديث شرح اختصار علوم الحديث ابن كثير - تأليف الاستاذ احمد محمد شاكر ص ١٦ .

(٢) المنار ج ٦ ص ٨٩١ .

(٣) تفسير المنار ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) سورة الانعام آية ١٢٨ .

حكى الروايات الواردة في انتهاء عذاب النار(١) . وقال صاحب المنار : على هذه الروايات ، بغيت الأقوال في أبدية النار وعدم نهايتها وفي ضده .

تفصيل ابن القيم للمسألة :

وقد استوفى ذلك بالاسهاب المحقق ابن القيم في كتابه حادى الأرواح .

ونقل عنه السيد رشيد رضا حجج القائلين بدوام النار وعدم نهايتها والرد عليهم . ثم نقل عنه فصلا طويلا عنوانه :

فصل(٢) : « ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعا وعقلا وذلك يظهر من وجوه » ونقل عنه خمسة وعشرين وجها في الفرق بينهما .

وهذا الفصل نموذج لكثير من الفصول التي ينقلها صاحب المنار عن كتب ابن تيمية وابن القيم أو يحيل عليها(٣) ، وهو يحيل بوجه خاص وتأکید ظاهر على كتاب اعلام الموقعين لابن القيم الجوزية في مسائل الاجتهاد والفصل في الموارث التشريعية(٤) .

وعمد صاحب المنار الى اخراج الكثير من كتب ابن تيمية وابن القيم كدليل على أنه لم يرتجل نظرياته بالهوى والاختيار الذاتى . بل هي تقف مع هذه الحجج في اتصال اسلامى شريف المقصد مطرد الحلقات بل اتصال مرتبط أيضا بالسلف من الدنيليين .

-
- (١) مثل نقل الالومى عن عبد الله بن عمرو بن العاصى قل : يأتى على جهنم يوم ما فيها من ابن آدم احد نصف ابوابها كأنها ابواب الموحدين .
- (٢) تفسير المنار ج٨ من ص ٨١ الى ٩٩ .
- (٣) تفسير المنار ج ٨ ص ٢٥٦ .
- (٤) المنار ج٦ ص ٨٩١ .

ولن يصعب حقا على من عرفوا تاريخ الأدب الدينى للإسلام أن يلاحظوا أن تأثير كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ذلك التأثير الذى أبرز عمله الخفى حركة الوهابيين • يتجلى دون تكبر أصلا فى وجهات النظر التى تقود حرب حزب المنار على المحالسة العقدية السائدة وعلى الروح الدينية العامة المرتبطة بهذه الحالة • فإن هنا كما هناك أطراحا لطبيعة التقيد بالمذاهب الأربعة ، والتقليد الذى يتطلبه ذلك ، وهذا كما هناك رجوع إلى السنة وإلى السنة وحدها من حيث هى الميزان المعتمد فحسب فى تنظيم الحياة الدينية ، وهنا كما هناك حرب عنيفة على البدع جميعا ، وعلى الأشخاص لاستئصال تعظيم الأولياء والمخلفات وما يقترب بذلك من عادات خرافية ذميمة (١) •

وقد كان السيد رشيد يطبع كتب ابن تيمية وابن القيم لحساب الملك سعود • وفى خطاب أرسله إلى شكيب أرسلان ذكر فيه المصروفات المطلوبة منه • وختمه بقوله « وجملة القول أن كدين الواجب على أدائه هذا العام لبنك مصر والبنك المرهونة له الدار تسعمائة جنيه مصرى • والإيراد الرسمى الثابت المصدر لذلك هو مطبوعات جلالة الملك وفى الحقيقة يجب علينا السعى لغيرها » (٢) •

وأرى أن صاحب المنار كان يجمال ملك الحجاز حين يقول : « وذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الأئمة وآل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين ،

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار - مكتبة الخانجي ص ٢٦٦ •

(٢) رشيد رضا : أو آراء أربعين سنة لشكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧م ص ٥١٩ •

وارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التى يعد بعضها من الشرك الصحيح وبعضها من البدع والمعاصى ولا سيما المعاصى التى تفعل تدينا وتقربا وتوصلا الى الله تعالى كما ترى فى كتاب الزواجر للفقهاء ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم ، وفى كثير من كتب الحنابلة ، ويحتجون بهدم النبى (صلى الله عليه وسلم) لمسجد الضرار « (١) » .

ان ما علم من السيد رشيد من سعة الأفق ومراعاة المصالح العامة للمسلمين كان يجب ان يبعد به عن مثل هذا القول .

والخلاصة ان صاحب المنار كان متأثرا بابن كثير فى تفسيره للقرآن من حيث الاهتمام بالرواية والتوفيق بين النصوص المتخالفة فى الظاهر . والعناية بأحداث التاريخ المتعلقة بالقرآن ، والاهتمام بالتفريعات الفقهية والأبحاث الأصولية ، وتأثر الاثنان بابن تيمية . فنزعا منزع المدرسة السلفية ، وطبع السيد رشيد لملك الحجاز مؤلفات المدرسة السلفية لتأييد مذهب الوهابيين فى الحجاز . وتأثر به فى هذا جماعة أنصار السنة بمصر .

ولكثيرا ما كان صاحب المنار ينقل آراء ابن كثير فى سياق الاكبار والاعجاب . خصوصا فى المتشابه من القرآن وما تعددت فيه آراء المفسرين (٢) .

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) تفسير المنار ج ٨ ص ٢٢٦ .

الخاصة الثالثة :

تأثر صاحب المنار بالفزالي

١ - نبذة عن حياة الفزالي :

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي وكنيته أبو حامد الفزالي ، وهو غنى عن كل تعريف من ناحية تأثيره فى التفكير الاسلامى .

ولد بطوس ، احدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ ، وكان شافعى المذهب ويذكر صاحب عيون الأنبياء « أنه لم يكن للطائفة المشافعية مثيل له فى عصره ، وكان علما من الاعلام الذين يشار اليهم فى وقته » .

وقد ذهب الى بغداد سنة ٤٨٤ هـ للتدريس بالمدرسة النظامية وكان ذلك فى الرابعة والثلاثين من عمره .

ولما أخذ يلقى دروسه فيها أعجب به أهل العراق ، ولكنه لم يلبث أن سئم بغداد وحياة أربع سنوات فى سنة ٤٨٨ هـ . ويرجع سأمه منها وعدم رضاه عن نفسه الى أن أزمة نفسية جامعة دعتة الى الرغبة فى الزهد والانقطاع عن الناس ثم اضطرتة أن يتترك مظاهر الفرور والشهرة ، الى حياة التأمل وصفاء النفس عشر

سنوات أو يزيد . وفى ذلك يقول الغزالي : « ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء العاجز المضطر الذى لا حيلة له . فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب » .

وترك الغزالي تعداد بعد أن تصدق بماله الا ما ادخره من القليل الذى يثوده ويكفل قوت اولاده ، ثم قصد الى الشام واقام بها .

وآثر العزلة والرياضة على الطريقة الصوفية ، فكان يعتكف فى مسجد دمشق ويصعد نهاره الى المنارة انقريبية من الجامع ويفلق على نفسه بابها يتأمل ويتعبد ثم رحل الى بيت المقدس ، ويذكر أنه كان يدخل الصخرة كل يوم ويفلق بابها على نفسه كشأنه فى مفارة مسجد دمشق .

ومن العسير على المؤرخ أن يحدد الأماكن التى ارتادها أبو حامد منذ سنة ٤٨٤ حتى سنة ٤٩٩ هـ تحديدا تاريخيا دقيقا إذ كان كثير الانتقال يبحث عن العزلة ليخلو فيها بنفسه وهو أجسه .

وقد وصف لنا هذه الفترة الغامضة من حياته فقال : « ودمت على ذلك بمقدار عشر سنين وانكشف لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها » ومن المحتمل أنه ألف فى هذه الفترة كتاب احياء علوم الدين وكثيرا من الكتب التى كانت تهدف الى بيان عظمة الاسلام وتفوقه على جميع الديانات الأخرى ، والتى حق بصيبتها أن يسمى حجة الاسلام .

واضطر أبو حامد الى قطع عزلته والعودة الى نشر العلم والدفاع عن الدين بسبب ما رآه من ضعف الايمان لدى معاصريه ومن كثرة الشبه التى اثارها اعداء الاسلام وأصدقائه من الجاهل .

وقد حدد الغزالي عزلته الطويلة فقال : « وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ٤٨٨ وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة وهذه حركة قدرها الله سبحانه وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقذاح في القلب في هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأموال مما خطر أصلا بالبال » .

وأخيرا غادر أبو حامد المدرسة النظامية وعاد الى طوس وأنشأ حلقة صوفية وقضى فيها ما بقي من عمره في التأمل والعبادة حتى توفي رحمه الله في يوم الاثنين ١٤ من جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ (١) .

٢ - كتاب احياء علوم الدين :

هذا كتاب من الكتب الخالدة ، ولا نظير له في بيان عظيمة الاسلام ، وتفصيل مناهجه التعليمية والتربوية والأخلاقية . وقد اشتمل الكتاب على أربعة مجلدات :

المجلد الأول : ربع العبادات .

المجلد الثاني : ربع العادات .

المجلد الثالث : ربع المهلكات .

المجلد الرابع : ربع المنجيات .

وقد أخرجته لجنة الثقافة الاسلامية ، في طبعة بيضاء مصقولة سنة ١٣٥٧ هـ . وقسمته الى أجزاء مجموعها ستة عشر جزءا تقع في أربع وثلاثين وثلاث آلاف صحيفة .

(١) الدكتور محمود قاسم ، استاذ الفلسفة بكلية دار العلوم ، محاضرات عام ١٩٥٥ بالكلية .

فى المجلد الأول : أسرار العبادات وحكمتها وتفصيلات واسعة وبحوث شائقة وعميقة حول الصلاة والصيام والزكاة والحج .

وفى المجلد الثانى : آداب العادات من الأكل والكسب والمعاش والنكاح والسفر والصحبة ، والأمر بالمعروف ، والخلل والحرام .

وفى المجلد الثالث : ربيع المهلكات وهى : كتاب شرح عجائب القلب ورياضة النفس وكتاب كسر الشهوتين وكتاب آفات اللسان . وكتاب ذم الغضب . وكتاب ذم الدنيا . وكتاب ذم البخل . وكتاب ذم الجاه . وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

والمجلد الرابع فيه ربيع المنجيات : وهى كتاب التوبة . وكتاب الصبر والشكر . وكتاب الخوف والرجاء . وكتاب الفقر والزهد . وكتاب التوحيد والتوكل . وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا بالله تعالى . وكتاب النية والاخلاص . وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير . وكتاب ذكر الموت .

٢ - وقد تأثر صاحب المنار بهذا الكتاب منذ نشأته الأولى وصرح بذلك فقال :

« وكانت أعجب كتب التصوف الى احياء علوم الدين لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى ، فهو الذى طالعتة كله وكنت أكثر مراجعته وقراءة بعض أبوابه عودا على بدء ، ثم صرت أقروء للناس ، وكان له اكبر التأثير فى دينى وأخلاقى وعلمى وعلمى ، وانه لتأثير نافع فى أكثره ضار فى أقله . وقد عالجت الضار منه بعد العلم به « (١) .

(١) رشيد رضا او اخاء اربعين سنة ، شكيب ارسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق . سنة ١٩٢٧م ص ٣٦ .

ومن الضار عدم الدقة فى رواية الحديث : وقد تبغ صاحب المنار فى رواية الحديث ونقد الغزالى فى ذلك .

واستفاد السيد رشيد من أفكار الغزالي . لأنسه قاد أعنف الحروب على التقاليد وعلى الزوائد المتفرعة عن الفقه ، وسخر من ضروب التعقيد في افتراض الصور والأحوال ومن فروق المذاهب ، كما القى وزنا راجحا للتشبيح بمعنى التهذيب الخلقي والعمل بروح التشريع في تعاطي الدين بدلا من أداء العبادات على وجه صوري آلى . فكتبه في هذا المعنى هي المصدر الذي يؤخذ عنه ، اذا عارضت مدرسة المنار الروح الصورية السائدة للمذهب السني المحافظ ، حتى في تناول أسس الاسلام الخمسة ، فأقامت في وجهها المطالب الخلقية التهذيبية السائدة في القرآن والحديث (١) .

٤ — ونقل صاحب المنار كثيرا من ابواب الإحياء ، اما بنصها وأما بمعناها .

فنقل رأيه في التوبة وحدها . والركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صفائرها وكبائرها (٢) ، عند تفسيره لقوله تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (٣) . فتحدث صاحب المنار عن اختلاف العلماء في الصفائر والكبائر . ثم نقل رأى الغزالي في السيئات وأنواعها وتقسيمها فقال :

« قال الغزالي في بيان الركن الثاني وهو تمام التوبة وشروطها ودوامها » . ونقل رأيه في المعاصي وبيان أنها سم قاتل . وكيفية التوبة عنها بالندم على الماضي والاغلاق عن الذنب في الحال .

(١) مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ص ٢٦٨ مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٥٥ م .
(٢) تفسير المنار ج ٥ ص ٥٢ .
(٣) سورة النساء آية ٢١ .

والعزم على الاستقامة في المستقبل • ثم أبدى إعجابه بالغزالي لدقة فهمه لحكمة القرآن وتطبيقه على فطرة الاسلام (١) •

مقارنة : -

وإذا قارنت بعض موضوعات المنار بنظيرها في أبواب الأحياء وجدت مطابقة تامة واتفاقا في التفاصيل ومن أمثلة ذلك :
« محبة العبد لله تعالى »

فقد كتب السيد رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » كلاما في حب العبد لربه وأنه أسمى الغايات ومن شغل به فهو السعيد حقا (٢) •
وهذا الكلام نقله صاحب المنار عن الغزالي بتصريف واختصار ولم يعزه إليه •

فقد كتب الغزالي عن محبة العبد لله تعالى اثنتي عشرة ومائة صحيفة في الجزء الرابع من الأحياء بعنوان : « كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا » ورغم تأثر صاحب المنار بالغزالي في فهم الدين فهما تهنئيا خلقيا ، إلا أنه نقده في شطحاته الصوفية وعدم الدقة في رواية الحديث ، فعند تفسير المنار لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » •

(١) المنار ج ٥ ص ٥٤ . ٥٥ •

(٢) المنار ج ٢ من ص ٢٨٤ إلى ص ٢٨٧ •

وضح السيد رشيد : كمال الاسلام وتوسطه في القيام بحق البدن
وحق الروح ونقد الغزالي لتطرفه في فهم الزهد ، وبين أن الموضوع
الذي كتبه بعنوان : (بيان فضيلة الجوع وذم الشبع) (١) أكثر
أحاديثه لا يعرف المحدثون له أصلا ، وبعضها ضعيف أو موضوع .

ثم أراد صاحب المنار أن يفهم الغزالي ومن لف لفه من الزهاد
والمتصوفين فنقل من النصوص والآثار ما يؤيد منهج الاسلام في
السماحة والتوسط . ويخطيء الصوفية في خروجهم عن الاعتدال
في العبادة ، والمبالغة في الزهد والتوكل .

وعند تفسير صاحب المنار للتوكل بين أنه الأخذ في الأسباب
ثم الاعتماد على الله تعالى .

ونقد الغزالي لمبالغته في التواكل والاستسلام وبين أن ذلك
تواكل وعجز « فليس من التواكل الخروج على سنة الله أصلا » (٢) .

وفي الباب حديث الرجل الذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه
وسلم) وأراد أن يترك ناقته وفي رواية أنه قل اعقلها واتوكل أم
اطلقها ؟ ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) « اعقلها وتوكل » .

والقارئ للمنار يلاحظ أن صاحبه ينقل آراء الغزالي في كثير
من الموضوعات وفي جميع أجزاء المنار . ففي الجزء الثالث مثلا
نقل رأيه في أسباب اختلاف المسلمين (٣) . ورأيه في النقادين

(١) المنار ج٧ ص ٢١ وما بعدها .

(٢) تفسير المنار ج٤ ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٨ .

(٣) المنار ج٢ ص ١٢ .

والربا (١) ، ورأيه في صفات الله تعالى (٢) ، ورأيه في الشكر والتوكل (٣) .

وهي آراء حسنة في مجموعها ، وضارة في القليل منها . غير أن صاحب المنار مدح الحسن منها واطراه ، ونبه الى الضار منها .
لنتجنبه .

فأصاحب المنار من الله أحسن الجزاء والمثوبة .

(١) المنار ج٢ ص ١١٠ .

(٢) المنار ج١ ص ١٩٩ .

(٣) المنار ج٢ ص ٢٩ .

الخاصة الرابعة :

التوسع والاطالة

١ - كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا فى نواحى المعرفة
الاسلامية .

وكان يطيل فى بعض البحوث المتعلقة بالآية طولا مملا يستهلك
نشاط القارئ ويلوى ذهنه عن متابعة الآيات القرآنية .

لقد فسر السيد رشيد رضا اثنى عشر جزءا من القرآن الكريم
وقعت فى ستة آلاف صحيفة(١) فمتوسط صحائف الجزء الواحد
خمسمائة صحيفة .

ومعنى ذلك انه لو اكمل تفسير القرآن لوقع تفسيره فى خمسة
عشر الف صحيفة .

وهذا العدد الضخم من شأنه أن يزهد الناس فى ذلك التفسير
العظيم . وأن يحجب الجمهور عن الانتفاع به .

(١) عدد صفحات الجزء الاول من تفسير المنار : ٤٩٢ صحيفة والثانى :
٤٩٨ ، والثالث ، ٣٧٦ ، والرابع : ٤٨١ ، والخامس ٤٧٦ ، والسادس ٤٩٢
والسابع ٦٧٢ والثامن ٥٢٢ والتاسع ٦٨٨ والعاشر ٥٠٠ ، والحادى عشر
٥١١ ، والثانى عشر ٢٢٤ ، فعدد الجميع ٦٠٢٣ صحيفة .

لقد طبعت جريدة الشعب تفسير جزء عم للأستاذ الامام خمس طبعات متوالية في زمن متقارب وكانت كل طبعة تقدر بالآلاف المؤلفه وما ان تخرج الطبعة الى السوق حتى يتلقفها الناس . لأنه تفسير مختصر وقريب من الشعب (١) . أما تفسير المنار فقد حشدت فيه بحوث استطرادية كانت تصل الى ٥٠ صحيفة والى ٧٥ صحيفة .

وقد عاب صاحب المنار على غيره من المفسرين الاستطرادات الخارجة عن التفسير كما عاب على الفخر بحوثه الطويلة المتنوعة عن السماء والأرض والفلك والهيئة . بيد أنه وقع فيما عاب على غيره .

ومن الانصاف أن نذكر أن بحوث الفخر الرازى وغيره لم تكن لها صلة بالتفسير .

أما بحوث صاحب المنار فكانت لها صلات تربطها بتفسير القرآن وأهداف الاسلام ومطالب العصر ، وعلم الاجتماع وغير ذلك .

وانى انصح من يقرأ تفسير المنار أن يقرأ قبله تفسيراً مختصراً مثل تفسير لنسفى الذى يقع فيه تفسير جزء القرآن فى ٣٥ صحيفة .

أو مثل « فى ظلال القرآن » الذى يعرض الأفكار العامة للآيات فى ترابط وتسلسل وروحانية تهم القلب . ويقع تفسير الجزء فى ٩٠ صحيفة ، وبعد أن يقرأ التفسير المختصر يستطيع أن يتابع تفسير المنار ويستفيد مما فيه من درر غالية قد تبعد أحياناً وتأخذ جهداً فى البحث عنها والاحاطة بها ولكنها بعد ذلك ثمينة وقيمة ومنيدة .

(١) ثمن تفسير جزء عم ٢٠ قرشاً أما ثمن تفسير المنار فهو خمسة جنيهات ، ولعل ذلك من أسباب ترك الناس لتفسير المنار .

٣ - نموذج من بحوث المنار :

١ - فى الجزء الخامس من تفسير المنار بحث فى أصول
المشريعة الاسلاميه وهى :

أ - الكتاب ، ب - السنة ، ج - الاجماع ، د - القياس ،
هـ - المصالح المرسله .

وتحدث عنها فى اثنتى عشرة مسالة استغرقت أربعاً وخمسين
صحيفة (١) .

٢ - فى الجزء السادس بحث فى منزلة السنة من الكتاب
استغرق أربع عشرة صحيفة (٢) .

٣ - فى الجزء السابع : بحث فى يسر الاسلام ، وفى القياس
وكلام العلماء فيه . والمصالح المرسله وأشهر أئمة الاصلاح فى
الاسلام من علماء الحديث والفقه وكتبهم النافعة (٣) ، واستغرق هذا
البحث سبعة وسبعين صحيفة (٤) .

٤ - فى الجزء التاسع : بحث فى السحر استغرق ثمان
وأربعين صحيفة (٥) .

(١) من صفحة ١٦٨ - ٢٢٢ ج ٥ .

(٢) من صفحة ١٥٤ - ١٦٨ ج ٦ .

(٣) وهم ابن حزم مجدد القرن الخامس : وكتابه المغنى ، والعز بن
عبد السلام ، وابن تيمية ق ٧ . وتلميذه ابن القيم والحافظ احمد بن حنبل
المعقلانى وكتابه فتح البارى فى ق ٩ . ومحمد بن على الشوكانى وكتابه
نيل الاوطار وارشاد الفحول (فى تحقيق الحق من علم الاصول) فى ق ١٢ .
انظر ص ١٤٥ ج ٧ .

(٤) من ١٢٥ - ٢٠٢ ج ٧ .

(٥) من ص ٣٦ - ٨٢ ج ٦ .

هـ - فى الجزء الثامن : بحث فى مفاصد اللواط وأضراره :
استغرق أربع عشرة صحيفة (١) .

وقد علل السيد رشيد رضا اطالته فى هذه البحوث والاستطرادات بأنها كانت لتحقيق مسائل تشدد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر أو يقوى حجّتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التى أعاها حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس وأنصح للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطراضية وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير « (٢) » .

٣ - وإذا نحن نظرنا الى العصر الذى عاش فيه السيد رشيد رضا التمسنا له بعض العذر فى هذه الاطالة ، فقد كانت لها أهداف شرحها . وحققت هذه الاطالة هذه الأهداف ولا تزال تحققها .

فبحوث المنار مرجع ممتاز لكبار العلماء والباحثين والمهتمين بالدين . وحجة للمسلمين على خصومهم من الملحدّين والمبتدعين .
وفى بيان لمبادئ الدين وتوضيح لأهداف القرآن الكريم .

(١) من ص ٥٠٨ - ٥٢٢ ج ٨ .

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ١٦ .

الخاصة الخامسة :

بيان السنن الاجتماعية واسباب التطورات التاريخية

واسـتنباط ذلك من آيات القرآن الكريم

١ - ايقاظ المسلمين :

كان السيد رشيد رضا - كاستاذ الامام - شديد الرغبة
في ايقاظ المسلمين وبعث همهم .

وقد بين الاستاذ الامام ان لقواعد الاجتماع وال عمران فوائن
صارمة لا تقل في دقتها واضطرادها عن القوانين الطبيعية .

وزاد السيد رشيد على استاذه الاكثار من الشواهد والأمثلة
التي رآها تؤيد سنة الله في الخلق وأن قيام الأمم ونصرها أو
هزيمتها مرتين بأعمالها وسلوكها . وهذه الخاصة أبرز الخصائص
والسمات التي تميز تفسير المنار .

وقد وضع أساس ذلك الأستاذ الامام . وتوسع السيد
رشيد في هذه الخاصة توسعا ملموسا يكاد يطفى على جميع
الخصائص الأخرى ، مدفوعا في ذلك بارشاد أممه ، وصحاء

نفسه ، وكثرة مشاهداته . وحالة المسلمين الراهنة التي جعلتهم يحولون القرآن الى تملثم وتعاويز تجلب النصر وتدفع الضر .

« فكر الأستاذ الامام انه لما كان في أوروبا مر على بلاد المجر وزار دار الآثار فيها فما وجدته محفوظة في ذلك المتحف قميص الوزير « كوبريلي مصطفى باشا » وهو آخر قائد عثماني حارب تلك البلاد وبعد قتله تقلص عنها ظل السلطنة العثمانية سنة ١١٠٢ للهجرة .

قال الأستاذ الامام انه رأى ذلك القميص وقد نقشت عليه الآيات القرآنية وخاتم الامام الغزالي واستعاذة الجلجلوتية وامثال ذلك من الطلاسم وغريب الخواتيم (١) .

٢ - سنن الاجتماع :

ورث السيد رشيد رضا امامه ونى هذا الميراث حتى اصبح ثروة كبيرة خالدة .

قال صاحب المنار في تفسير قوله تعالى : « يا معشر الجن والانس اني انا انزل رسلي انزل منكم يقصون آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين » الانعام ١٢٠ .

وعقاب (٢) الله تعالى للأثم وكذا للأفراد في الدنيا والآخرة انواع منه ما يسمى عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد ان جاءوهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية وانذارهم الهلاك اذا هم يؤمنوا بعد تأييد الله اياهم بها كعاد رثمود وقوم لوط ، فسنة

(١) على هاشم المفسير : عبد القادر المغربي : موضوع القرآن .

(٢) تفسير المنار ج ٨ من ١١٠ .

الله في ذلك خاصة وقد انتطعت بانتقطاع الرسل ، اذ ليست
جارية عن سائر سنن الاجتماع . ودنه هلاك الامم بما يغلب عليها
من الظلم او الفسق او المنجور الذي يفسد الاخلاق ويقطع
روابط الاجتماع ويجعل بأس الامة بينها شديدا فيكون ذلك سببا
اجتماعيا لسلب استقلالها وذهاب ملكها بحسب سنن الاجتماع
وقد انذرنا الله هذا في كتابه وعلى لسان رسوله كما شرحنا
من قبل . فيراجع تفصيل ذلك فيما مضى من التفسير (١) .

ويستمر السيد رشيد رضا في تعليقه على الآية بقوله :

« ثم ان هذه الآية وما في معناها من الآيات — كآية هود —
من قواعد علم الاجتماع البشري الذي لا يزال في طور الوضع
والتدوين . وهو العلم بسنن الله تعالى في قوة الامم والشعوب
وضعها وعزها ونلها وغناها وفقرها . وبداوتها وحضارتها
واعمالها ونحو ذلك ، وغائدة هذا العلم في الامم كفايدة علم النحو
والبيان في حفظ اللغة . وفي القرآن الحكيم اهم قواعد واصوله
وقد سبق بعض الحكماء المسلمين الى بيان بعضها وبدا ابن خلدون
بجعله علما مدونا يرتقى بالتدريج كغيره من العلوم والفنون .

ولكن استفاد غير المسلمين ما كتبه في ذلك وبنوا عليه
ووسعوه فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم
يستفيدوا من هداية القرآن العليا في اقامة امر ملكهم وحضارتهم
على ما ارشدهم اليه من القواعد وسنن الله تعالى فيمن قبلهم ولا
يزالون معرضين عن هذا الرشاد والهداية على شدة حاجتهم اليها
بسبب ما وصل اليه تنازع البقاء بين الامم في هذا العصر .

(١) يراجع في جزء التفسير ٧ من ٢٠٨ ، ٤٩٣ وكذلك لفظ الامم والعذاب
والجزاء وسنة الله في فهرس الجزء السابع وفهارس سائر الاجزاء : ١ هـ
نقلا عن حاشية تفسير المنار .

وانا نرى بعضهم يعزى نفسه عن ضعف أمتة ويعتذر عن
تقصيرها بالقدر الذي يفهمه مقلوبا بمعنى الجبر أو يسليها بأن
هذا من علامات الساعة وارتكس بعضهم في حماة جهله
بالإسلام حتى ارتدوا عنه سرا أو جهرا زاعمين أن تعاليمه
هى التى أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم . والتمسوا هداية
غير هدايته ليقيموا بها دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ، وذلك
هو الخسران المبين .

٣ - سنن الله فى تفسير المنار :

ونلاحظ أن كلام السيد رشيد رضا عن علم الاجتماع كلام
فنى دقيق لم يتطرق اليه الخل ولا النفساد بعد مرور عشرات
السنين . فابن خلدون هو الذى دون أساس علم الاجتماع ووضع
أهم قوانينه وقواعده .

واستناد الغربيون من كلامه وادعوا أن « دور كايم » مؤسس
علم الاجتماع مع أن « دور كايم » ومدرسته عيال على ابن خلدون
ومقدمته وقد أكثر صاحب المنار من ذكر أمثلة علم الاجتماع وقواعده
وبين قوانين الدول فى قيامها ونهوضها وتأخيرها وسقوطها .
وأن الله لا يحابى مردا ولا أمة . وانما يخضع الجميع لسنن الله
ولن تجد لسنة الله تبديلا . وقد ذكر هذه المعانى أكثر من مائة
مرة فى تفسيره بأساليب متغيرة ومتجددة .

وما عليك الا أن تتصفح تفسير المنار أو عناوين الصفحات
أو تفسير الآيات الاجتماعية والكونية والتاريخية أو تراجع فهارس
أجزاء المنار فى لفظ الأمم والأجزاء وسنة الله لتشاهد أن القوانين
الاجتماعية تحتل مكانا ملحوظا فى هذا التفسير .

وسأنقل هنا ما جاء فى فهارس أجزاء المنار عن سنن الله
لنتبين حقيقة ذلك :

سنن الله في فهارس تفسير المنار

في فهرس الجزء الثاني

سنن الله وجهل المقلدين بها	صحيفة ٣٠٢
سنن الله ومشيئته	صحيفة ٤٧٨
سنن الله وتولييقه	صحيفة ٤٦٨
سنن الله في عزة الأمم	صحيفة ٢٧٥
سنن الله في نجاح الأعمال	صحيفة ٤٨٠، ٢٦٨، ٢٦٠، ٢٧
سنن الله في اجابة الدعاء	صحيفة ٤٢٠ ، ١٧٠
سنن الله في حياة الأمم	صحيفة ٤٦٨ ، ٤٥٨
سنن الله في خلقه	صحيفة ٤٧١، ٢٤١، ٨٩
سنن الله في الخير والشر	صحيفة ٢٨١
سنن الله في الرزق	صحيفة ٤٦٨ ، ٢٧٤
سنة الله في الظفر والنصر	صحيفة ٤٧٤ ، ٤٠
سنة الله في نصر الحق واهله	صحيفة ٢١٤، ٢٩٩، ٣٩
السنن الاجتماعية	صحيفة ٤٩٢ ، ٤٦٠
سنن الفطرة	صحيفة ٢٩٨، ٢٤٥، ٢٢٨

في فهرس الجزء الثالث

سنة الله في خلقه	صحيفة ١٥٢ ، ٣٢١
سنن الله ومشيئته	صحيفة ٢٧١
سنة الله في خلق الانسان	صحيفة ٧

سنة الله في اصلاح النفوس	صحيفة ٦٦
سنة الله في الملك	صحيفة ٢٧٠
سنة الله في نصر من ينصره	صحيفة ٢٣٥
سنة الله في عاقبة الظالم	صحيفة ٢٠
سنة الله في الهداية	صحيفة ٢٦٣

في فهرس الجزء الرابع

السنن والأسباب في الدنيا	صحيفة ١٧٤
سنن الاجتماع . عوارضها	صحيفة ١٨٠
سنة الله في الاملاء للكنار وغيرهم	صحيفة ٢٥٢
سنة الله حكمة مطردة	صحيفة ١١٥ ، ١٦٣
سنة الله في الانفس والآفاق	صحيفة ٢٢٠
سنة الله في تأثير الأعمال في النفس	صحيفة ٢٥٠
سنن الله اطرافها في الانبياء وغيرهم	صحيفة ٢٢٦
سنن الله في تولى الصالحين	صحيفة ١٧٧
سنن الله في الجزاء	صحيفة ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢١٧
سنن الله في خلقه واحدة	صحيفة ١٧٢
سنن الله في العفو عن الذنب	صحيفة ١٩٢
سنن الله في عقاب الأمم	صحيفة ٢٩٣
سنن الله في النصر والسيادة	صحيفة ٢٧٤
سنن الله في النعم والنقم	صحيفة ١٦٣

في فهرس الجزء الخامس

٢٦٩،٢٢٤،٢٢٠	صحيفة	سنن الله في الاسباب والمسببات
١٥٤	صحيفة	سنن الله اطرادها بلا محابة
١٥٢	صحيفة	سنن الله . اقامتها
٥٢ ، ٤٦	صحيفة	سنن الله في افساد الظلم للنفوس
٢٧٠	صحيفة	سنن الله في الانسان
١٢٦	صحيفة	سنن الله في تدبير الامم وفائدته
١١٤	صحيفة	سنن الله في تولية من تولى
٤٣٤،٤٤١،٤٤٢٠	صحيفة	سنن الله في الجزاء
٤٥٤	صحيفة	سنن الله في حياة الامم وموتها
١٣٧	صحيفة	سنن الله في النصر
١٥٠	صحيفة	سنن الله ومشيئته
١٨٥	صحيفة	سنن الله في من يلعنهم

في فهرس الجزء السادس

٢٩٤١٠،٤٧٢،٢٣٢	صحيفة	سنة الله في الجزاء على الاعمال
٣٩٠	صحيفة	سنة الله في الجزاء على الاعمال
٢١٨	صحيفة	سنة الله في المصائب والحرب

في فهرس الجزء السابع

٤٣٥	صحيفة	سنة الله في عقاب معاندى الرسل
		سنة الله في عقاب المختلفين في دينهم

بالتفرق والتقاتل

سنن الله في المقلدين صحيفة ٤٩٤

سنن الله في الأمم : تقصير علمائنا

في بيان آياتها وأحاديثها صحيفة ٤٩٩

في فهرس الجزء الثامن

سنن الله في الخلق لا تتبدل صحيفة ١٢ ، ٢٦

سنن الله في الشقاوة والسعادة واقتتان

بعض الناس ببعض وحياة الأمم

وموتها

صحيفة ٢٥٢ ، ٢٨٧

السنن والأقدار لا تنافى الاختيار صحيفة ٢٨٦

سنة الله في اكابر المجرمين مع

المصلحين

صحيفة ٣

سنة الله في اهلاك الأمم صحيفة ٢٦١.٩.٣٤٤.٨٠٤

سنة الله في الأعمال والأعمار صحيفة ٦٠

سنة الله في تنازع البقاء صحيفة ٦ ، ٣٦

سنة الله في السابقين الى

الاصلاح

صحيفة ٥٠٥

سنة الله في سوء عاقبة

الماكرين

صحيفة ٣٥

سنة الله في عداوة شياطين الانس

والجن للرسل

صحيفة ٥

سنة الله في ولاية الظالمين

بعضهم لبعض

صحيفة ١٠٠

فى فهرس الجزء التاسع

صحيفة ٣٦٥	سنن الله فى افعال العباد وخلقه وقدره
صحيفة ١٨ ، ٢٢	سنن الله فى الامم
صحيفة ٦٦٢	سنن الله فى التمييز بين الخبيث والطيب
صحيفة ٤٠٩	سنن الله ومشيئته
صحيفة ١٤ ، ١٦	سنن الله فى اخذ اقوام الرسل بالشهداء ثم تبديلها رخاء وحسنات
صحيفة ٥٧٧	سنن الله استخلاف الامم فى الارض
صحيفة ٢١	سنن الله فى بقاء الامم بخيارها الناهين عن الفساد
صحيفة ٢١	سنة الله فى حفظ الامم من الهلاك
صحيفة ٥٧٦	سنة الله فى خلق البشر وثنونهم
صحيفة ١٩٦	سنة الله صرف المتكبرين عن آياته
صحيفة ٥٧٩	سنة الله فى ضياع الممالك
صحيفة ٣٣	سنة الله وطباع البشر فى الايمان والكفر ايماناً وامتناعاً
صحيفة ٣٧٧ ، ٣٨٠	سنة الله فى عقاب الامم

فى فهرس الجزء الحادى عشر

صحيفة ١٠٣٤١٠١٦٨٩٠١٥	سنته تعالى فى أفعاله
صحيفة ٤٨٧	سنته تعالى فى أقوام الأنبياء
صحيفة ٤٦	سنته تعالى فى الانتخاب الطبيعى أو بقاء الحق وذهاب الباطل
صحيفة ٣٤٤	سنته تعالى فى عقاب البغى للأمم
صحيفة ١٩٩ ، ٣٠٧	سنته تعالى فى ترتب العمل على العلم والإيمان
صحيفة ١٩٩	سنته تعالى فى تربية الأمم والأفراد

فى فهرس الجزء الثانى عشر

صحيفة ٢٣٥	سنن التكوين والفرائز والاجتماع
صحيفة ٢٣٥	سنن الله فى اهلاك الأمم بظلمهم
صحيفة ١٠٣ ، ٢٤٥	سنن الله فى التكوين والتقدير
صحيفة ٢٣٨	سنن الله فى الطبائع والفرائز
صحيفة ٢٤٠	سنن الله فى العمران والاجتماع
	سنة الله تعالى فى كون العاقبة للمتقين
صحيفة ٢٤٢	سنة الله تعالى فى تنازع رجال المال
صحيفة ٢٤٢	سنة تعالى فى تنازع رجال المال ودعاة الإصلاح

٤ - هدف صاحب المنار :

والآن لعلك لاحظت طول الفهرس فضلا عن موضوعات الفهرس وعذر السيد رشيد في الاكثار من هذه الموضوعات . هو حالة العصر الذي عاش فيه . فقد كان المسلمون في بؤادر نهضة واراد هو ان يسهم في هذه النهضة من جهة ، وان يجعلها تسير على اساس من هدى الاسلام ولا تنجرف مع تيار الغرب من جهة اخرى .

« فبين ان كتاب الله يشتمل على جميع الحقائق : التي تعبر عنها الآراء الحديثة في الفلسفة والاجتماع (١) » .

« وأقل ما تعتده مدرسة المنار فرضا ثابتا لتفسير القرآن على وجه صائب هو ان القرآن لا يمكن ان يحتوى على تعليم يتعارض مع حقائق العلم ، بل يشتمل كتاب الله على النظريات العلمية للقرنين التاسع عشر والعشرين وان خفى ذلك على انظار السطحيين . وانما ينبغي على المرء ان يقرأ بعينين مفتوحتين ، ويفهمه بعقل سليم ، خالص من الاحكام السابقة (٢) » .

« ولا تستشعر مدرسة المنار خوفا ولا خشية على الاسلام امام العلم فهي تعلم جيدا ان كثيرا ممن يصطنع العلم على الطريقة الأوروبية يطرح تعاليم الدين ظهريا متابعة لما اصطنعه .

ولكن السبب في هذا هو انه لم يعرف الاسلام ولم يتعلمه قبل العلم الأوروبي ولا بعده . ولهذا نطالب علماء ديننا بأن يجتهدوا في جعل زمام تعليم العلوم الكونية بأيديهم . لأننا نثق

(١) مذاهب التفسير الاسلامي ص ٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

أتم الثقة في انه لا يمكن أن يرجع عن الإسلام من عرغه . وكيف
يختار الظلمة من عاش في النور « (١) » .

هذه الفكرة تتكرر دائما باطراد ، على صور كثيرة في
التصريحات المنهجية لمدرسة محمد عبده ولاسيما في تطبيقها على
الناحيتين التاريخية والعلمية الطبيعية .

فالقرآن قبل كل شيء ينطق بأن النمو التاريخي والاجتماعي
للأمم يسير على سنن ثابتة . ففي كل مكان يواجه القرآن فيه النظر
إلى سنة الأولين (في الآية ٣٨ من سورة الأنفال) أو يعبر في
سياقه عن فكرة كهذه الفكرة الكثيرة الورد « سنة الله في الذين
خلوا من قبل وإن تجد لسنة الله تبديلا » (في الآية ٦٢ من سورة
الأحزاب مثلا) يؤخذ النص دائما دليلا على إثبات هذه الحقيقة
الواقعة « (٢) » .

سنة الله التي لا تبدل ولا تتحول هي القانون السائد في
التاريخ .

ومن هنا كانت دراسة التاريخ إحدى المصالح البالغة أقصى
الأهمية في رعاية الإسلام الحق . وتقدم البواعث الكثيرة ، التي
تحث على النظر في ذلك ، آيات القرآن التي تقص مصائر الأمم
السابقة وسوء عاقبة ما اقترفوه من آثام (٣) . ففي ذلك إشارات
وبيانات تاريخية . واستخدم هذا التفسير تنبيها مشددا لعلماء
الرسوم والأمر (٤) . والدوائر الحاكمة (الأمراء والسلاطين)

(١) نفي النار ج ٤ ص ٤٥٣ .

(٢) النار ج ٦ ص ٥٥ .

(٣) النار ج ٥ ص ٦٩٢ .

(٤) النار ج ٨ ص ٤١ - ٦٧ .

لتحميلهم وزر الاهمال فى التربية التاريخية وتقصيرهم بذلك فى
اداء واجب الاسلام (١) .

وبهذه الروح يشرح تفسير محمد عبده ومدرسته — بكثرة
نسبها — نظريات حديثة فى القرآن وعلى الأخص نظريات دارون ،
ولنتف مثلاً عند تفسير الآية ٤٩ وما بعدها من سورة البقرة :
« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .
فان التفسير يتجه فى انظاره العامة الى ان هذه الآيات تتضمن
نظريتي « تنازع البقاء » و « الانتخاب الطبيعى » (٢) . كذلك يراد
استخدام الآية ٢٥٢ من نفس السورة . « ولو شاء الله ما اقتتلوا
ولكن الله يفعل ما يريد » ، ١٧ من سورة الرعد : « فأما الزيد
فيلهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

والجمل المكبرة كثيراً : « والعاقبة للمتقين » (فى الآية ١٢٨
من سورة الاعراف مثلاً) و : « ان الله لا يصلح عمل المفسدين »
(فى الآية ٨١ من سورة يونس) الخ ، تحمل بكل جد على بقاء
الأصلح (٣) . فهذا ارشاد الى تنازع البقاء والدفاع عن الحق ،
وانه ينتهى ببقاء الأمثل وحفظ الأفضل (٤) .

٥ — عيب هذا المنهج :

وهذا المنهج الاجتماعى مخيد للمسلمين حقاً . ولكن العيب
فيه هو حمل آيات القرآن على النظريات الحديثة ، وهذا عيب
وقع فيه السابقون من المفسرين كالفخر الرازى ، وحذر منه

(١) النار ج ٨ ص ٨٩ .

(٢) النار ج ٨ ص ٩٢٩ - ٩٣٠ .

(٣) النار ج ٩ ص ٦٠ .

(٤) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد العظيم النجار من

ص ٢٧٥ الى ص ٢٨٢ .

الامام وصاحب المنار ثم وقع صاحب المنار فيما حذر منه . فالقرآن لم ينزل ليكون كتاب اجتماع أو تاريخ ولكنه اشار الى القوانين المفيدة فيهما تحقيقا للعبارة والهداية .

ثم ان هذه النظريات الحديثة متطورة ومتغيرة وتظهر قوانين جديدة تبطل النظريات القديمة ، وهذا يستدعى بطلان التفسير أو بطلان القرآن عند بطلان النظرية التي جاء بها . والله تعالى يقول : « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ان القرآن يجب ان يظل هكذا اماما يقتدى به ولا يقتدى بغيره ونموذجا يقاس عليه ولا يقاس بغيره . واذا فكرنا نظريات حديثة في التفسير نقول انها توافق ما تشير اليه الآية ويكون هذا رايانا منا ، بماذا اخطأت النظرية اخطا رايانا ولم يخطئ كتاب الله .

وعلى كل فالشيخ رشيد مجتهد له أجره ونيته . والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : « واتموا الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله . ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه (١) » .

فالشيخ رشيد رضا حسن النية وحسن المثوبة من الله تعالى على نبوغه وتفوقه ، وانه يز علماء التفسير جميعهم في ابراز القرآن الكريم للناس معجزة دائمة . وهداية عامة شاملة وسعادة لهم في دينهم ودنياهم . تقرأ طائفة من التفسير فتحس في خلال القراءة ان من ورائك سوطا من أسواط الحق يسوقك الى الفضيلة

(١) رواه البخاري .

ويردك عن الرذيلة وأن صلتك بكتاب الله تعالى وتعلقك به في هدايته وفقه معانيه هي أغلى شيء في هذه الحياة . وأعظم شيء ساقه الله إليك ، كما تحس في ذلك التفسير أنك في دائرة من المعارف الالهية الكبرى (١) .

والحمد لله أولا وآخرا ، والشكر لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى العمل منه ليلة الجمعة المباركة ٢٦ من جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ ٢٧ من نوفمبر ١٩٥٩ م بمسجد الإمام الشافعي بالقاهرة .

عبد الله محمود شحاتة

وتمت مراجعة الطبعة الثالثة صباح الأربعاء ٢٤ ذو القعدة سنة ١٤٢٠ هـ الموافق ١ مارس سنة ٢٠٠٠ م بمدينة المقطم بالقاهرة ، والله ولي التوفيق .

(١) من تقریظ الشیخ محمد احمد العدوی لكتاب الوحي المحمدی .
انظر ص ٢١٧ من كتاب الوحي المحمدی للمعید رشید رضا .

مراجع البحث

- الإمام محمد عبده ، ورشيد رضا :
تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار . القاهرة -
المنار .
- الإمام فخر الدين محمد الرازي :
مفاتيح الغيب . الشهير بالتفسير الكبير - القاهرة .
- الإمام ابن جرير الطبري :
جامع البيان في تفسير القرآن - القاهرة : الاميرية ط ١ سنة
١٣٢٢ هـ .
- عبد الله بن أحمد النسفي :
تفسير القرآن الجليل ، الشهير بتفسير النسفي ، القاهرة
الحسينية المصرية .
- الحافظ اسماعيل بن كثير :
تفسير القرآن العظيم .
القاهرة ، دار احياء الكتب العربية .
- محمد بن أحمد القرطبي :
الجامع لأحكام القرآن
القاهرة ، دار الكتب المصرية .

محمود بن عمرو الزمخشري :

• تفسير الكشاف

جلال الدين المحلى و جلال الدين السيوطى :

• تفسير الجلالين

• المطبعة العربية ١٩٥٣م

سليمان عمرو العجيلي الشهير بالجمل :

حاشية « الفتوحات الالهية » على الجلالين - عيسى البابي
الحلبى •

محمد الالوسى البغدادي :

روح المعانى - ادارة الطباعة المنيرية •

عبد الجليل عيسى :

تيسير التفسير ط ١٩٥٨

الدكتور محمد عبد الله براز :

• النبأ العظيم ، نظرات جديدة فى القرآن الكريم ١٩٥٧م

محمد محمد المدنى :

• المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء مخيمر ١٩٥٧م

محمود شلتوت :

• تفسير القرآن الكريم

محمد البهى :

الفكر الاسلامى المعاصر وصلته بالاستعمار الغربى ، مخيمر
• ١٩٥٧م

عثمان أمين :

رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده - مكتبة النهضة المصرية
١٩٥٥ م .

الامام محمد عبده :

الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : المنار ١٣٤١ هـ .
تفسير جزء عم المنار ١٣٢٩ هـ .

محمود شلتوت :

منهج القرآن فى بناء المجتمع ، دار الكتاب العربى ١٣٧٥ هـ .

المستشرق جولد تسهير :

مذاهب التفسير الاسلامى : ترجمة الدكتور عبد النعم
النجار : السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م .

محمد كامل الفقى :

الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، المنيرة ١٣٧٥ هـ
١٩٥٦ م .

محمد الغزالى :

نظرات فى القرآن : مؤسسة الخانجى ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

سيد قطب :

فى ظلال القرآن : دار احياء الكتب العربية .

محمد أبو زهرة :

محاضرات فى النصرانية : مخيم ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

بدر الدين بن على الحنبلى البعلب :

مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية : السنة المحمدية ١٣٦٨ هـ
١٩٤٩ م .

الإمام ابن القيم الجوزية :

تفسير سورة الكافرون والمعوذتين : السنة المحمدية ١٣٦٨ هـ
٠ ١٩٤٩ م

محمد الخطرى :

نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ، مصطفى محمد ، ط ٤
١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م

الإمام أبو حامد الغزالي :

احياء علوم الدين : نشر الثقافة الاسلامية ١٣٥٧ هـ

عباس محمود العقاد :

٠ الله

محمود قاسم :

المنطق الحديث ومناهج البحث : الأنجلو المصرية ١٩٥٢ م

رشيد رضا :

تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده : المنار ١٩٣١ م

رشيد رضا :

الروحى المحمدى : المنار ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون :

مقدمة ابن خلدون ، شرح وتعليق الدكتور على عبد الواحد
وافى : لجنة البيان العربى ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

محمد محمد المدنى :

مناهج التفكير فى الشريعة الاسلامية ، أحمد مخيمر ١٩٥٧ م

محمد بن محمد الأمير :

- حاشية على شرح عبد السلام بن إبراهيم المالكي لجوهرة التوحيد للامام اللقاني .
- مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٨ هـ ١٩٤٨ م .

رشيد رضا :

- تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، المنار ١٣٦٧ هـ .
- شبهات النصارى وحجج الاسلام ، المنار ١٣٦٧ هـ .

محمد عبد الله دراز :

- محاضرات في تفسير سورة النساء لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥ م .

شكيب أرسلان :

- رشيد رضا ، او اخاء اربعين سنة ، ١٩٢٧ م .

الحافظ اسماعيل بن كثير :

- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، صبيح .

حسن البنا :

- تفسير سورة الفاتحة والآيات الاولى من سورة البقرة . مجلة الشهاب العدد الاول المحرم ١٣٦٧ هـ والأعداد التالية .

عبد القادر المغربي :

- تفسير جزء تبارك : المطبعة الاميرية ١٣٧٦ هـ ١٩٤٧ م .
- على هامش التفسير .

على حسب الله :

- اصول التشريع الاسلامي .

عبد الوهاب خلاف :

- مصادر التشريع الاسلامى

أحمد محمد جلال :

- مع المفسرين والكتاب

السيد أحمد خليل :

- نشأة التفسير فى الكتب المقدسة والقران

المستشرق الدكتور آرثر جفرى :

- مقدمات من علوم القرآن

أمين الخولى :

- التفسير معالم حياته : منهجه اليوم

الامام محمد بن ادريس الشافعى :

- احكام القرآن
- الرسالة

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم ...
٧	تعريف بالكتاب ...
	تقديم بقلم فضيلة الأستاذ محمد محمد أبو زهرة
	أستاذ الشريعة الإسلامية المنتخب بكلية الحقوق
	بجامعة القاهرة والعضو بلجنة القانون بالمجلس
٩	الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
١٥	مقدمة بقلم المؤلف ...
الباب الأول	
٢٥	حياة الشيخ محمد عبده ...
٢٥	نسبه ...
٢٧	لسانه ...
٣١	أساتذته ...
٣٢	عرفه بالشيخ درويش خضر ...
٣٥	عودته الى طنطا ...
٣٦	دراسته في الجامع الأزهر ...
٣٨	عرفه بالسيد جمال الدين الأفغاني ...
٤٦	تأثره بالسيد جمال الدين الأفغاني ...
٥٠	عظمة الامام ...

الباب الثاني

٥٧	منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم
٥٧	مقارنا بمناهج المفسرين السابقين
٥٩	قيام المنهج على تسعة أسس

الأساس الأول :

٦١	اعتبار السورة وحدة متناسقة
٦٦	المدرسة التي تأثرت بالشيخ محمد عبده في مبدأ وحدة السورة

الأساس الثاني :

٧٣	عموم القرآن وشموله
٧٣	١ - معاني القرآن عامة وشاملة وإرشاده مستمر الى يوم القيامة
٧٤	٢ - قدرة القرآن
٧٦	٣ - العبرة في فهم الآيات بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

الأساس الثالث :

٧٩	القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع
٧٩	١ - حديث معاذ
٨٢	٢ - ذم تقديم المذاهب على القرآن

الأساس الرابع :

٨٥	محاورة التقليد
٨٥	١ - دعوة القرآن الى اقامة الحجة والدليل ...
٨٦	٢ - دعوة القرآن الى البحث والاستنباط
٨٧	٣ - مسيرة التراث الاسلامي للتطور ...
٨٩	٤ - باب الاجتهاد باق ومستمر ...
٩٠	٥ - محاورة التقليد عند الحنابلة وابن تيمية ...
	٦ - مراعاة المصلحة العامة في التفسير والفتوى أعمال الصحابة تؤيد رعايتهم للمصالح
٩٢	المرسلة

الأساس الخامس :

	أعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمي في البحث والاستنباط
١٠٥	١ - سبق القرآن في الدعوة الى النظر والتأمل
١٠٥	٢ - مقارنة بين الأديان في حرية الفكر واحترام العقل
١٠٧	٣ - الاقناع وعدم الاكراه من مبادئ الاسلام ..
١٠٩	٤ - تأثير الأستاذ الشيخ « محمود شلتوت » بالامام
١١٢	

الأساس السادس :

	تحكيم العقل والاعتماد عليه في فهم آيات القرآن
١١٩	لا تعارض بين العقل والوحي

الصفحة	الموضوع
١٢١	١ - مفهوم الملائكة عند الامام
١٢٦	٢ - (أ) تأويل سجود الملائكة
١٢٨	(ب) تأويل معصية آدم
١٣٠	٣ - مفسرون سابقون يستخدمون التمثيل والتخييل
١٣٤	الفرق بين منهج الامام ومنهج المفسرين السابقين
١٣٥	٤ - تأثر الامام بالمؤلفين الفرنسيين
١٣٥	رأيه في خلق عيسى
١٣٦	الرد على هذا الرأي
١٣٩	٥ - رأى الامام في القصة
١٤٣	٦ - رأى الامام في الجن والسحر وتقديس الأولياء
١٤٤	(أ) الجن
١٤٨	(ب) السحر
١٥١	مناقشة رأى الامام في السحر
١٥٤	رأى الامام في النفاثات في العقد
١٥٧	مناقشة رأى الامام في النفاثات في العقد هل سحر النبي صلى الله عليه وسلم حديث السحر
١٥٨	١٥٨
١٦٢	موافقة رأى الامام للزمخشري
١٦٣	موجز آراء الامام في السحر
١٦٤	موجز آراء الامام في سحر الرسول صلى الله عليه وسلم

الموضوع	الصفحة
موجز الرد على الامام	١٦٥
هدف الامام	١٦٨
سنة حديث السحر	١٦٩
اقسام السنة باعتبار السند	١٦٩
تعبيرات للامام جانبها الصواب	١٧٢
(ج) تقديس الاولياء	١٧٤
مفسرون متأثرون بالامام في حربه للبدع	١٧٦
١ - رشيد رضا	١٧٧
٢ - عبد الجليل عيسى	١٧٩

الاساس الساتع :

ترك الأطناب في الكلام عما ورد في القرآن بصورة	
مبهمة	١٨١
١ - منهج الامام في المبهمة	١٨١
٢ - منهجه في تفسير الصراط والميزان والجنة	
والنار .. الخ	١٨٥
مقارنة بين المفسرين في تفسير مبهمة القرآن	١٨٩
٣ - القضاء والقدر	١٩١
٤ - اسباب تفسير الامام للقضاء والقدر تفسيراً	
روحياً عملياً	١٩٥
٥ - القضاء والقدر في التفاسير السابقة	١٩٩
(أ) الفخر الرازى	٢٠٠
(ب) الزمخشري	٢٠٥
مقارنة	٢٠٨

الأساس الثامن :

	التحفظ في الأخذ بما سمي بالتفسير المأثور
٢٠٩	والتحذير من الاسرائيليات
٢٠٩	١ - أسباب ضعف التفسير بالمأثور
٢١٢	٢ - رأى الامام في التفسير بالمأثور وحد التواتر
٢١٤	٣ - ابن خلدون ينقد المفسرين بالمأثور ...

الأساس التاسع :

	اهتمامه بتنظيم الحياة الاجتماعية على اساس من
٢١٩	هدى القرآن
٢٢١	١ - تنظيم المجتمع الاسلامى
٢٢٢	٢ - حق الفرد والمجتمع
٢٢٤	٣ - الحكمة من تشريع العبادات
٢٢٦	٤ - تقوية شخصية المسلم ...
٢٢٨	٥ - الدعوة الى التعليم
٢٣٤	٦ - محاربة الاسراف والترف
٢٣٨	٧ - مفاصد تعدد الزوجات - آراء حديثة في التعدد
٢٤٤	٨ - آداب السلوك الاسلامى

الباب الثالث

٢٤٩	مدرسة الأستاذ الامام في التفسير
٢٤٩	تمهيد
٢٥٣	خصائص تفسير المنار للسيد رشيد رضا

الخاصة الاولى :

٢٥٥	التحقيق العلمى
٢٥٧	١ - أول ما نزل من القرآن
٢٥٩	٢ - رواية علم الحديث
٢٦٠	٣ - الأدب فى التعليق والنقد
٢٦٢	٤ - النوق السليم فى النقد
٢٦٤	٥ - بسط الفكرة وشرحها
٢٦٦	٦ - فقه صاحب المنار

الخاصة الثانية :

٢٧١	تأثر صاحب المنار بابن كثير
٢٧١	ابن كثير
٢٧٢	١ - اهتمامه بالرواية
٢٧٢	٢ - التوفيق بين الآيات والأحاديث المتعارضة
٢٧٣	٣ - اهتمامه بالتاريخ
٢٧٥	٤ - عنايته بالتفريعات الفقهية
٢٧٥	٥ - تأثره بشيخه تقي الدين ابن تيمية صاحب المنار
٢٧٥	١ - اهتمامه بالرواية
٢٧٦	٢ - التوفيق بين الآيات والأحاديث المتعارضة
٢٧٦	٣ - اهتمامه بالتاريخ
٢٧٦	٤ - عنايته بالتفريعات الفقهية
٢٨٠	٥ - تأثره تشيخه تقي الدين ابن تيمية

الموضوع

الخاصة الثالثة :

٢٩١	تأثر صاحب المنار بالغزالي ...
٢٩١	١ - نبذة عن حياة الغزالي ...
٢٩٣	٢ - كتاب احياء علوم الدين ...
٢٩٤	٣ - تأثر صاحب المنار باحياء علوم الدين
٢٩٥	٤ - نقل صاحب المنار من الاحياء ...
٢٩٦	محبة العبد لله تعالى في الاحياء والمنار ...
٢٩٧	نقد صاحب المنار للاحياء ...

الخاصة الرابعة :

٢٩٩	التوسع والاطالة ...
٢٩٩	١ - بحوث واسعة ...
٣٠١	٢ - نماذج من بحوث المنار ...
٣٠٢	٣ - بحوث المنار مرجع ممتاز ...

الخاصة الخامسة :

٣٠٣	بيان السنن الاجتماعية وأسباب التطورات التاريخية واستنباط ذلك من آيات القرآن ...
٣٠٣	١ - ايقاظ المسلمين ...
٣٠٤	٢ - سنن الاجتماع ...
٣٠٦	٣ - سنن الله في تفسير المنار ...
٣١٣	٤ - هدف صاحب المنار ...
٣١٥	٥ - عيب هذا المنهج ...
٣١٩	مراجع البحث ...

صدر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر ،
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة ،
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - فارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،
عليه عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ،
ج ١ ، ١ ،
لمى الطيبي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د. عبد النعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرلي لازمة الحياة العسكرية ،
د. علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية ،
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكر القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د. نيل راجب ، ١٩٨٨
- ١٣ - الكلبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح المصري الى قيام الدولة الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،
د. علي حسن الخربوطلي ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاة الشرعي في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد نور لرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. طر. السيد محمد ، ١٩٨٨

- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد
القطرين ،
د. أحمد محمود صايون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ :
المراسلات السرية بين سعد زقلول
وعبد الرحمن فهمي ،
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف في مصر إبان العصر
العثماني ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر ،
جمال بدوي ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر إبان العصر
العثماني ج ٢ ، أمام التصوف
في مصر : الشعراني ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا
الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الإسلامي والقرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد
بووين : ترجمة : د. أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر
الحديثة ،
د. سعد اسماعيل علي ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ،
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ،
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،
د. ميعة اسماعيل كاشف ،
١٩٨٩
- ٣٠ - المؤلفون في مصر في عصر محمد
علي ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية
وشخصية ،
شكري القاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
للى الطيمى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر والقضايا الجنوب الافريقي :
نظرة على الارضاع الراهنة ورؤية
مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية الغربية ،
منذ مطلع العصور الحديثة حتى
عام ١٩١٢ ،
د. يونان رزق ، محمد مزين ،
١٩٩٠
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر
١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والقرب ،
ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة

- د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية
١٩٩٠ (١٩٢٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي
والعصر الإسلامي ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية
(١٩٤٨ - ١٩٧٩)
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا
الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٢
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها
لجنة التاريخ والآثار بالجلس
الأعلى للثقافة ، في إبريل
١٩٩١) أعدتها للنشر : د.
عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل
الفرنسيين ، في القرن الثامن
عشر ،
د. الهام محمد علي دهنر ،
١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من
ديلة الممالك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين
علي ، ١٩٩٢
- ٣٧ - الشيخ علي يوسف وجريدة
المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادي
والاجتماعي في العصر العثماني ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن
عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان
(١٨٢٤ - ١٨٢٧)
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في
حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم التيسوي
الجبلي ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الولف والمأساة
ملحة مصرية ،
د. راعت السيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر المصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ،
١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في
مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تألف : وليم الصوري ، ترجمة
وتقديم د. حسن حبشي ، ١٩٩١

- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر
العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري : ترجمة
وتعليق : د. حسن حبشي ،
١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في مصر محمد
على : دراسة عن التليم المتولية ،
د. حلمي أحمد فليبي ، ١٩٩٢
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل اللغة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ،
١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية
والصحافة ،
د. ابراهيم عبد الله الملسي ،
١٩٩٢
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ،
من التمهيد إلى التأميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١)
د. عبد السلام عبد الحليم
ماسر ، ١٩٩٢
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى
العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٢
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر
الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمس الطمس ، ١٩٩٢
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور :
تاريخ مصر الإسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل
كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ،
أندما للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٢
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان ، بين
الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٢
- ٦٥ - مؤلف الصحافة العربية من
الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
سهايم نصار ، ١٩٩٢
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ،
١٩٩٢
- ٦٧ - مساعي السلام العربية
الإسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها
لجنة التاريخ والأثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع
قسم التاريخ بكلية البنات جامعة
عين شمس ، في أبريل ١٩٩٢) ،
أندما للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٢
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة
وتعليق : د. حسن حبشي ، ١٩٩٢
- ٦٩ - نبوة موسى وديورها في الحياة
العربية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٢

- ٧٠ - أهل اللغة في الإسلام ،
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة
وتعليق : د. حسن حبشي ط ٢ ،
١٩٩٤ .
- ٧١ - مذكرات اللود كليق (١٩٢٤ -
١٩٤٦) ،
إعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة :
د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ،
١٩٩٤ .
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال
المالية والاقتصادية لمصر في
العصر الفاطمي (٢٥٨ -
٥٦٧ هـ)
أمانة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ،
ج ١ ، في العصر الفرموني ،
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤ .
- ٧٥ - أهل اللغة في مصر ، في العصر
الفاطمي الأول ،
د. سلام شالمى محمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال
الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د. سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة
وتعليق : د. حسن حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية
(١٨٧٣ - ١٨٩٩)
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ،
في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة
عبد الحميد فهمي الجمال ،
١٩٩٥
- ٩٠ - قصة السويس والتنافس
الاستعماري الأوروبي (١٨٨٢ -
١٩٠٤)
د. السيد حين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة
المصرية ، من هزيمة يونيو إلى
نصر أكتوبر ،
د. رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الإسلام ، من الفتح
العربي إلى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ،
ط ٢ ، ١٩٩٤ .
- ٨٣ - مذكرتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ،
١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ،
القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ،
١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية : دراسة
تاريخية (١٩٢٤ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥

- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)
د. أحمد الشربيني ، ١٩٦٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كلرن ، ج ١ ، (١٩٢٤ - ١٩٤٦)
امداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٦٥
- ٨٨ - التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٦٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٦٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د. نوريان عبد الكريم أحمد ، ١٩٦٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال ، ١٩٦٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٢٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٦٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٢ - ١٩٥٨)
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د. سمير أسكندر ، ١٩٦٦
- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة) ، أمدها للنشر ، د. عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الیارة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني - الروماني)
ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور :
لتاريخ مصر القديمة ،
١. د. عبد العزيز صالح ،
١. د. جمال مختار ، أ.د. محمد

- أبراهيم بكر ، ١.د. إبراهيم نصحي ، ١.د. فاروق القاضى ، أمدحا للنشر : ١.د. عبد العظيم رمضان .
- ١.١ - ثورة يوليو والحقيقة الخائبة ، اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصر ، اللواء/ عبد الحميد كفاك ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السيد/ جمال منصور
- ١.٢ - المقطم جريمة الاحتلال البريطاني في مصر (١٨٨٩ - ١٩٥٢) ، د. تيسر أبو عرجة
- ١.٣ - رؤية العبرني لبعض القضايا مصره ، د. على بركات
- ١.٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ، د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١.٥ - السلطة السياسية في مصر والقضية الديمقراطية (١٨٠٥ - ١٩٨٧) ، د. أحمد فارس عبد النعم
- ١.٦ - الشيخ على يوسف وجريدة الأيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ، ج ٢ ، د. سليمان صالح
- ١.٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ، تأليف : دليب هرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال
- ١.٨ - مصر للمصريين ، ج ١ ، سليم خليل النقاش
- ١.٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ، سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين الماليك) ، ج ١ ، د. البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدى ، د. محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ، د. اسماعيل عز الدين
- ١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ، أحمد وشدي صالح
- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ، أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق العربية) ، علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ، عبد الرزاق إبراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين الماليك ، د. البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية « دراسة وثائقية » ، حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث (١٧٧٥ - ١٩٥٢) ، لويس جرجس

- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادي النيل (١٧٧٥ - ١٩٥٢) ،
محمد عبد الحميد الخاوي
١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦ ،
سليم خليل النقاش
١٢٣ - السيد أحمد البدوي ،
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في
نصف قرن ،
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧ ،
سليم خليل النقاش
١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨ ،
سليم خليل النقاش
١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية
(١٩٢٢ - ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
١٢٨ - معارك صحفية ،
جمال بدوي
١٢٩ - الدين العام (واثره في تطور
الاقتصاد المصري) (١٨٧٦ -
١٩٢٣) ،
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ - تاريخ نقابات الثانئين في مصر
(١٩٨٧ - ١٩٩٧) ،
سمر فريد
١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو
١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨) ،
تاليف : جابر ماير ، ترجمة :
د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ١٢٢ - دار المنوب السامي في مصر
ج ١ ،
د. ماجدة محمد محمود
١٢٣ - دار المنوب السامي في مصر
ج ٢ ،
د. ماجدة محمد محمود
١٢٤ - الحملة الفرنسية على مصر في
صو مخطوط عثمانى للدارندلي ،
بقلم : عزت حسن افندي
الدارندلي ، ترجمة : جمال
سعيد عبد الفنى
١٢٥ - اليهود في مصر المملوكية (في صو
وثائق الجنيزة) (٦٤٨ -
٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) ،
د. محاسن محمد الوفاة
١٢٦ - أوراق يوسف صديق ،
تقديم : ا.د. عبد العظيم رمضان
١٢٧ - تجار التوابل في مصر في العصر
المملوكي ،
د. محمد عبد الفنى الاشقر
١٢٨ - الاخوان المسلمون وجذور التطرف
الدينى والارهاب في مصر ،
السيد يوسف .
١٢٩ - موسوعة الفناء المصري في القرن
العشرين ،
بقلم : محمد قابيل
١٣٠ - سياسة مصر في البحر الاحمر
في النصف الاول من القرن
التاسع عشر ١٢٢٦ - ١٢٦٥ هـ /
١٨١١ - ١٨٢٨ م ،
طارق عبد الباطن غنيم بهومي

- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين
سلاطين الماليك في مصر ،
لطفى أحمد نصار
- ١٤٢ - مذكراتى في نصف قرن ،
ج ٤ ،
أحمد شفيق باشا
- ١٤٣ - بلوماسية البطالة في القرنين
الثاني والأول ق.م. ،
د. منيرة الهنرى
- ١٤٤ - كشوف مصر الأفريقية في عهد
الخدوي اسماعيل (١٨٦٣ -
١٨٧٩)
عبد المليم خلال
- ١٤٥ - النظام الإدارى والاقتصادى في
مصر في عهد دقلديانوس (٢٨٤ -
٣٠٥ م)
د. منيرة الهنرى
- ١٤٦ - المرأة في مصر المملوكية ،
د. أحمد عبد الرازق
- ١٤٧ - حسن البناء ،
مى .. كيف .. لماذا ؟
د. رفعت السيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة
الاسكندرية ،
تأليف : د. سمير فوزى ، ترجمة:
نسيم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية العجائزية في
القرن الثامن عشر ،
حسام محمد عبد المعطى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها
وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الافغانى والثورة
الشاملة ،
السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية في القاهرة
المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /
١٢٥٠ - ١٥١٧ م) ،
د. محاسن محمد الوفاة
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقدمات
السياسية) ،
د. طية عبد السميع الجزورى
- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على
شواطئ مصر الاسلامية في
العصور الوسطى ،
د. طية عبد السميع الجزورى
- ١٥٥ - عصر محمد على ونهضة مصر في
القرن التاسع عشر (١٨٠٥ -
١٨٨٢) ،
د. عبد الحميد البطريق
- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية
ج ٢ (في العصر الاسلامى) ،
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية
في العصر الاسلامى الحديث ج ١
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية في مصر
(من ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٧ -
١٥١٧ م)
د. محمد عبد الفتى الاشقر
- ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٢٦ - ١٩٥٢)
ج ١ ،
د. محمد فريد حشيش

- ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٢٦ - ١٩٥٢) ج ٢ ،
د. محمد فريد حشيش
- ١٦١ - السيف والنار في السودان ،
تأليف : سلاطين باشا
- ١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان
(١٩٣٦ - ١٩٥٢)
د. تمام تمام تمام
- ١٦٣ - مصر والحركة الفرنسية :
الشارح/محمد سعيد المشاوي
- ١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر
التاريخ ،
(أعمال ندوة لجنة التاريخ
والآثار بالجلسة الأولى للثقافة
بالاشتراك مع معهد البحوث
والدراسات الأفريقية بجامعة
القاهرة ٢٠ - ٢١ ديسمبر
عام ١٩٩٧)
اعداد : د. عبدالعظيم رمضان
- ١٦٥ - التعليم والتغير الاجتماعي في
مصر في القرن التاسع عشر ،
صامي سليمان محمد السهم
- ١٦٦ - مذكرات معتقل سياسي صفحة
من تاريخ مصر ،
السيد يوسف
- ١٦٧ - الحركة العلمية والأدبية في
اللساط منذ الفتح العربي الى
نهاية الدولة الاخشيدية ،
د. صفى علي محمد
- ١٦٨ - مؤرخون مصريون من عصر
الموسوعات ،
يبري عبد الفنى
- ١٦٩ - مدن مصر الصناعية في العصر
الاسلامي الى نهاية عصر الفاطميين
(٢١ - ٦٤٢هـ / ١١٧١م)
د. صفى علي محمد عبد الله
- ١٧٠ - القرية المصرية في عصر سلاطين
المماليك (٦٤٨ - ٩٢٢هـ /
١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
محمدي عبد الرشيد بحر
- ١٧١ - تاريخ الحالة الادمية في مصر
القرن التاسع عشر ،
محمد رامت
- ١٧٢ - تاريخ اهل اللغة في مصر الاسلامية
(من الفتح العربي الى نهاية
العصر الفاطمي ج ١)
د. فاطمة مصطفى عامر
- ١٧٣ - تاريخ اهل اللغة في مصر
الاسلامية (من الفتح العربي الى
نهاية العصر الفاطمي ج ٢)
د. فاطمة مصطفى عامر
- ١٧٤ - مصر وليبيا فيما بين القرن
السابع والقرن الرابع ق.م ،
د. احمد عبد الحليم دواز
- ١٧٥ - محمد توفيق نسيم باشا ودوره
في الحياة السياسية ،
عادل ابراهيم الطويل
- ١٧٦ - الملاحه النيلية في مصر المثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨ م)
د. عبد الحميد جابر سليمان

- ١٧٧ - سياسة مصر العسكرية - ازاد
حروب الشرق الاوسط ،
لواء دكتور/ صلاح سالم
- ١٧٨ - العلاقات التجارية بين مصر وبلاد
الشام الكبرى في القرن الثامن
عشر ،
د. سحر على حنفى
- ١٧٩ - دور العامية العثمانية في تاريخ
مصر (١٥٦٤ - ١٦٠٩ م) ،
د. طلعت سعد السيد العبد
- ١٨٠ - الحقيقة التاريخية حول قرار
تاميم شركة قناة السويس ،
د. عبد العظيم رمضان
- ١٨١ - الحرب الصليبية الثالثة
(صلاح الدين وريتشارد ج ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق : ا. د.
حسن حبشى
- ١٨٢ - الحرب الصليبية الثالثة
(صلاح الدين وريتشارد ج ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق : ا. د.
حسن حبشى
- ١٨٣ - شاهد على العصر ،
مذكرات محمد لطفى جمعة
- ١٨٤ - المتوفية في القرن الثامن عشر ،
ياسر عبد المنعم معاريق
- ١٨٥ - تاريخ مدينة الخرطوم تحت
الحكم المصرى (١٨٢٠ - ١٨٨٥ م)
د. احمد احمد سيد احمد
- ١٨٦ - العقائد الدينية في مصر المملوكية
بين الاسلام والتصوف ،
د. احمد صبحى منصور
- ١٨٧ - نيابة حلب في عصر سلاطين
المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
٦٢٨ - ٩٢٢ هـ (ج ١) ،
د. عادل عبد الحافظ حمزة
- ١٨٨ - نيابة حلب في عصر سلاطين
المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
٦٢٨ - ٩٢٢ هـ (ج ٢) ،
د. عادل عبد الحافظ حمزة
- ١٨٩ - يهود مصر منذ عصر الفراعنة ،
مرلنه عبده على
- ١٩٠ - العلاقات السياسية بين مصر
والعراق (١٩٥٠ - ١٩٦٢ م) ،
عبد الحميد عبد الجليل احمد
شلبى
- ١٩١ - اليهود في مصر ج ١ ،
د. محسن على شومان
- ١٩٢ - اليهود في مصر ج ٢ ،
د. محسن على شومان
- ١٩٣ - الامام محمد عبده ،
د. عبد الله محمود شحاته

رقم الإيداع ٨٤٨٦/٢٠٠٠

الترقيم الدولي 3 — 6686 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

هذا الكتاب يتحدث عن منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، الذى كان يتخذه أداة لمحاربة الأفكار الرجعية والتخلف فى فهم الدين، ويدعو فيه إلى الرجوع بالدين إلى منابعه الأولى.

وقد قسم الدكتور عبدالله شحاته كتابه إلى ثلاثة أبواب: الباب الأول، وقد تحدث فيه عن حياة الشيخ محمد عبده، أما الباب الثانى فقد تناول فيه منهج الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، مقارنةً بمنهج المفسرين السابقين، أما الباب الثالث والآخر، فقد تحدث فيه عن تلامذة الإمام محمد عبده فى التفسير.

والكتاب على هذا النحو يقدم جانباً مهماً من حياة الشيخ محمد عبده، ويرسم صورة قد لا يحيط المؤرخون.

